الإعجاز التشريعى

فــــى

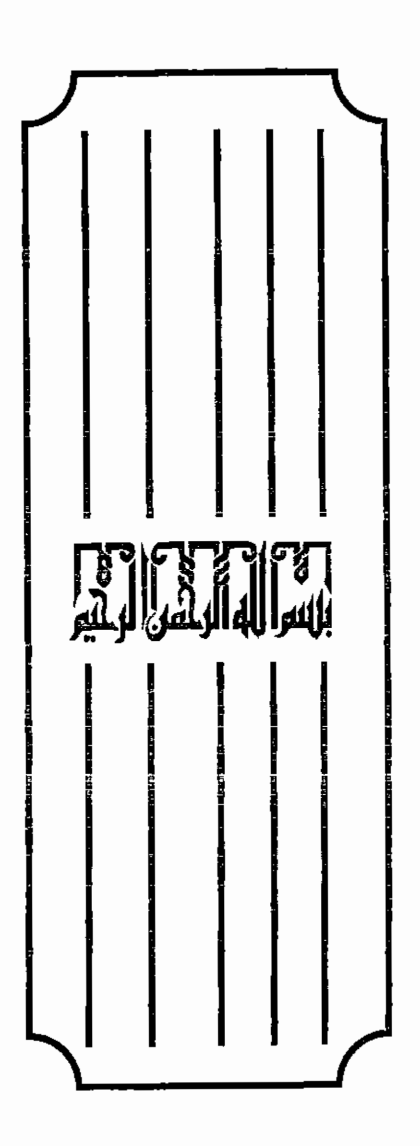
القرآن الكريم والسنة المطهرة

تأليف

هاشم بكرى أمين

دار الروضــة

طبع ـ نشر ـ توزيع



الطبعة الأولى
١٤٣٦ - ٢٠١٥م

دار الروضة

للطباعة والنشر

٢ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥٠٦٦٨٨٤ - ٠١٢٢٢٣٦٠٨٩٩٥
darelrwdamms@yahoo.com

رقم الإيداع: ٨١٢٤ / ٢٠١٤

الترقيم الدولى/ ٩-٠٦٥-٤٥٨-٩٧٧-٩٧٨

المقدمة

الحمد لله ونشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وبعد:

من المعلوم بداهة أن القرآن الكريم هو مصدر التشريع الأول للمسلمين ثم تأتي من بعده السنة المطهرة الممثلة في الأقوال والأفعال الصادرة عن النبي عليه الصلاة والسلام، وكلاهما مصدر تشريع وبيان لكل من آمن بالله ربا وبالإسلام دينا، فلا يمكن ولا يصح أن يعتقد المسلم إمكانية صدور منهج آخر من عند غير الله ليكون أصح من منهج الخالق؛ كيف ذلك والله تعالىٰ هو الذي خلق وهو الذي يعلم ما يصلح لعباده؛ هذا ما تقر به كل الفطر السليمة والعقول الصحيحة، لأن صاحب الصنعة هو أعلم بها وبدقائقها وبما ينفعها فيأمرها به، وبما يضرها فينهاها عنه، أليس الله هو خالقنا؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: ١٤] .

فما بالنا عندما يتعلق الأمر بالتشريع نذهب نبحث عن القوانين هنا وهناك مغترين بما تروجه معاقل الإفساد والتآمر علىٰ البشرية، وأوكار التمرد علىٰ الخالق العظيم، كل ذلك تحت مسميات ما أنزل الله بها من سلطان؛ وإنما هي نزغة من نزغات إبليس اللعين الذي أعلن علىٰ الملأ أن يغوي بني آدم بكل ما أوتي من كيد، حتى يشقوا كما شقي هذا المطرود الرجيم!. وبين أيدينا شريعة معجزة لتشمل جميع أمور الدنيا والدين.

بل إن وجوه الإعجاز في هذا الذكر الحكيم لا تُحَدُّ ولا تنفد عبر الزمان، إنَّها تتَّسع باتساع العلوم والمعارف: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ [فصلت: ٥٣ ـ ٥٤].

إنَّ جوانب الإعجاز في القرآن المجيد والسنة المطهرة لتجل عن الحصر

ولا ترتبط بعصر أو مصر، ولسوف يظل يقذف في وُجُوه المعاندين بهذا التَّحدي المُعجز: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨] ؛ فإعجازه في أساليبه وتراكيبه، ومعانيه وتصويره، وحُججه وبراهينه، وأخباره وأحكامه وتشريعاته، وهدايته وإرشاده.

لقد جاءت الشريعة الإسلامية لما فيه صلاح البشرية في الدنيا والآخرة، ولما يقوم عليه معاشهم فأنبتت نباتاً طيباً وأزهرت وأَينَعَت، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] ، وبالعكس فكلما ابتعد المسلم عن منهج الله وشريعته ازداد تعاسةً، وشقاوةً، وخسراناً في الدارين الدنيا والآخرة قال جلّ شأنه: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤] .

أما موضوع الإعجاز التشريعي فهو بمثابة معجزة ناقة صالح، وعصا موسى، وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى عليهم السلام. لذا كان هذا البحث إبرازاً وإظهاراً لهذه المعجزات الساطعة الباهرة التي ظهرت للناس اليوم، وهو أي الإعجاز متجدد يشبه مدينة عجيبة فيها ألف باب، ينفتح للطارق من كل باب منها ألف أخرى تسوقه إلىٰ أبواب أخرى بأعداد متزايدة، وهكذا.

قال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النَّمل: ٩٣] .

فالموضوع أكبر من أن يحصر في بحث أو اثنين بل من وجهة نظري المتواضعة يحتاج إلىٰ سلسلة أبحاث وأن يدرس كمنهج دراسي علىٰ طلبة الثانوية وطلبة الجامعات لأنه من الأهمية بمكان، ورغم كبر الموضوع وصعوبته فقد بذلت فيه وسع الطاقة في البحث والتنقيب، والتمحيص والتدقيق، والجمع والتوفيق. وكلما وصلت إلىٰ نقطة مهمة في مسار البحث أجدها بتوفيق الله تعالىٰ تقودني لما ورائها من حقائق وبراهين وكنت أشعر في كثير من الأحيان أن القلم يدون ما يصل إلىٰ الفهم من معاني بسرعة فائقة،

ودقة بالغة، ومع هذا فإني أشعر أن هذه الدراسة رءوس موضوعات، يحتاج بعضها إلىٰ كتاب مستقل لتوضيح ما بها من خبايا وتفصيل ما اعتراها من إيجاز وتقصير. والله الموفق وعليه التكلان.

هاشم بكري.
محمول "جوال" (٠١٢٢٣٨٩٨٥٠٧) (٠١١٢٩٣٣٤٣٨٧).
الصفحة علىٰ الفيس بوك: هاشم بكر أمين
Email: elshekh_hashem|@yahoo.com

الفصل الأول

تعريفات

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول

تعريف القرآن الكريم

تمهيد:

القرآن الكريم آية باقية، ومعجزة خالدة، إذ هو كلام الله المنزل علىٰ رسوله محمد ﷺ للتحدي والإعجاز، والهداية والإرشاد، المتعبد بتلاوته، وحفظه والعمل به، المنقول إلينا تواتراً كما أنزل علىٰ محمد الرسول الأمين ﷺ .

تعريف القرآن الكريم:

١) تعريف القرآن لغة:

المشهور بين علماء اللغة: " أن لفظ القرآن في الأصل مصدر مشتق من قرأ " يقال قرأ قراءة وقرآناً، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القِيَامَة: ١٧] . ثم نقل لفظ القرآن من المصدرية وجعل علماً[(١)].

قال الزرقاني: أما لفظ القرآن فهو في اللغة مصدر مرادف للقراءة ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل علىٰ النبي ﷺ من باب إطلاق المصدر علىٰ مفعوله، ذلك مما نختاره استناداً إلىٰ موارد اللغة وقوانين الاشتقاق وإليه ذهب اللحياني وجماعة[(٢)].

أما القرطبي فقال: القرآن اسم لكلام الله تعالىٰ وهو بمعنى المقروء، ويسمّى المقروء قرآنا علىٰ عادة العرب في تسميتها المفعول باسم المصدر ثمّ

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني،ج١، دار المعارف.

(٢) المرجع السابق.

اشتهر الاستعمال في هذا واقترن به العرف الشّرعيّ فصار القرآن اسما لكلام اللّه وقيل: هو اسم علم لكتاب الله غير مشتق كالتوراة والإنجيل»[1].

وقال الجرجاني: القرآن: هو المنزل علىٰ الرسول، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه نقلا متواترا بلا شبهة»[2].

قال أبو إسحاق النحوي: يسمى كلام الله تعالىٰ الذي أنزله علىٰ نبيّه ﷺ كتابا وقرآنا وفرقانا ومعنى القرآن معنى الجمع، وسمي قرآنا لأنّه يجمع السور، فيضمها»[3].

٢) تعريف القرآن الكريم اصطلاحاً:

تعددت آراء العلماء في التعريف الاصطلاحي للقرآن وذلك بسبب تعدد الزوايا التي ينظر العلماء منها إلىٰ القرآن.

فقيل: " القرآن هو كلام الله المنزل علىٰ سيدنا النبي محمد ﷺ المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته المعجز ولو بسورة منه".

وقيل: "هو كلام الله تعالىٰ المنزل علىٰ سيدنا محمد ﷺ بلفظه ومعناه والمنقول إلينا بالتواتر".

وزاد بعضهم علىٰ هذا التعريف قيوداً أخرى مثل: المعجز أو المتحدى بأقصر سورة منه أو المتعبد بتلاوته أو المكتوب بين دفتي المصحف أو المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس.

وجاء في كتاب شرح جوهرة التوحيد: بأنه اللفظ المنزل علىٰ سيدنا محمد المنقول إلينا بالتواتر، التعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه.

وهو الكتاب الخالد، والمعجزة التي تمتاز علىٰ سائر المعجزات بأَبَديَّتها

---

(١) تفسير القرطبي(٢/ ٢٩٨).

(٢) التعريفات للجرجاني (١٨١). وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ـ مجد الدين الفيروز أبادي الجزء الأول المكتبة العلمية .

(٣) لسان العرب (١/ ١٨٢). البحر المحيط، بدر الدين بن محمد بهادر الزركشي، دار الكتب سنة النشر: ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م الطبعة الأولى.

علىٰ مرِّ العصور، وتتابع الأجيال.

وهو المعجزة المناسبة لحال العرب فقد كانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال من أُرسل إليهم، فلما كان السحر فاشيًا في قوم موسى جاءهم بما يناسبهم وما هم عليه، ومثل ذلك يقال في عيسى ﷺ، لما كان الطب سائدًا في زمنه جاءهم بما يوافق أمرهم وحالهم.

ولما كان العرب أرباب فصاحة وبلاغة وخطابة، جعل الله سبحانه معجزة نبينا ﷺ القرآن الكريم، إلا أن معجزته ﷺ - إضافة إلىٰ أنها جاءت موافقة لما كان عليه العرب من الفصاحة والبلاغة - امتازت علىٰ غيرها من المعجزات بأمرين اثنين أولهما: أنها كانت معجزة عقلية لا حسية، وثانيهما: أنها جاءت للناس كافة وجاءت خالدة خلود الدهر والناس.

والإعجاز في القرآن الكريم جاء علىٰ وجوه عدة؛ جاء من جهة اللفظ، ومن جهة المعنى، وجاء من جهة الإخبار، ومن جهات أخرى ليس هذا مقام تفصيلها.

ومن وجوه الإعجاز كذلك، الإعجاز التشريعي وهو موضوع بحثنا، فقد جاء القرآن هداية للناس أجمعين، واشتمل علىٰ أحكام تشريعية تكفل سعادة العباد في الدنيا والآخرة، وتفي باحتياجاتهم الزمانية والمكانية بخلاف ما عليه حال قوانين البشر وشرائعهم التي ظهر عجزها وما يزال عن معالجة متطلبات البشر، وثبت قصورها عن مسايرة الأوضاع المستجدة بين الحين والآخر.

* * *

المبحث الثاني

تعريف السنة النبوية المطهرة وفيه تمهيد وثلاثة مطالب:

تمهيد: يختلف تعريف السنة في الاصطلاح تبعًا لاختلاف أغراض العلماء من بحوثهم حسب تخصصاتهم المختلفة، وسوف نتناول التعريف عند المحدثين، والأصوليين، والفقهاء، في عجالة دون الدخول في تفاصيل:

المطلب الأول: السنة في اصطلاح المحدثين:

للمحدثين تعريفات متعددة للسنة، من هذه التعريفات:

أ ـ هي أقواله ﷺ وأفعاله، وتقريراته، وصفاته الخَلقية والخُلقية، وسائر أخباره سواء كان ذلك قبل البعثة أم بعدها.

هذا هو المشهور عند جمهور المحدثين، وكأن السنة عندهم خاصة بالحديث المرفوع فقط، أما الموقوف والمقطوع فلا. ولعل سند هؤلاء فيما ذهبوا إليه هو تسمية النبي ﷺ لكل ما جاء به في مقابلة القرآن بالسنة مثل قوله في خطبته في حجة الوداع: **«يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا: كتاب الله وسنتي»**[(١)].

ب ـ هي ـ أي السنة ـ أقواله ﷺ وأفعاله، وتقريراته، وصفاته الخَلقية والخُلقية، وسائر أخباره سواء كان ذلك قبل البعثة أم بعدها، وكذلك أقوال الصحابة وأفعالهم. وممن ذهب إلىٰ هذا القول الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت ﷺ المتوفى سنة ١٥٠هـ، فقد ورد عنه أنه قال: " ما جاءنا عن الصحابة اتبعناهم وما جاءنا عن التابعين زاحمناهم".

---

(١) الحديث أخرجه مالك في الموطأ بلاغًا، كتاب القدر، ص: ٥٦١، ط: الشعب، قال الزرقاني في شرحه للموطأ (٤/ ٢٤٦): " إن بلاغه صحيح كما قال ابن عيينة" وقد أسنده ابن عبد البر في التمهيد من حديث أبي هريرة وحديث عمرو بن عوف، وقال: " هذا حديث مشهور عن النبي ﷺ عند أهل العلم شهرة يكاد يستغنى بها عن الإسناد"، ينظر: (فتح المالك بترتيب التمهيد لابن عبد البر علىٰ موطأ مالك (٩/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣) وأخرجه الحاكم في المستدرك (رقم ٩٣١) وصححه، ووافقه الذهبي".

وقال: " إذا لم أجد في كتاب الله ولا سنة رسوله أخذت بقول أصحابه من شئت، وأدع قول من شئت ثم لا أخرج عن قولهم إلىٰ قول غيرهم"[١].

وكأن السنة عند أبي حنيفة مخصوصة بالمرفوع والموقوف فقط، أما ما عداهما من المقطوع فلا، ولعل سنده فيما ذهب إليه قوله ﷺ: «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ**»[٢].

ج ـ هي ـ أي السنة ـ أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته الخَلقية والخُلقية وسائر أخباره سواء كان ذلك قبل البعثة أم بعدها، وكذلك أقوال الصحابة والتابعين وأفعالهم.وممن ذهب إلىٰ هذا القول الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين المعروف بالبيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـ، حيث أسمى كتابه ـ الذي جمع فيه ما جاء عن النبي ﷺ وفتاوى الصحابة والتابعين وأفعالهم ـ بالسنن الكبرى، وكأن السنة عنده تشمل: المرفوع، والموقوف، والمقطوع. ولعله استند فيما ذهب إليه إلىٰ أن الصحابة خالطوا رسول الله ﷺ وشاهدوا الوحي والتنزيل، وكذلك خالط التابعون الصحابة وجالسوهم، وسمعوا منهم، فكان قولهم وفعلهم أولى بالقبول من غيرهم، وأصبح داخلاً في مفهوم السنة.

المطلب الثاني: السنة في اصطلاح الأصوليين:

عرف الأصوليون السنة بأنها: أقوال النبي ﷺ غير القرآن، وأفعاله وتقريراته التي يمكن أن تكون دليلاً لحكم شرعي[٣].

المطلب الثالث: السنة في اصطلاح الفقهاء:

أ ـ هي كل ما ثبت عن النبي ﷺ ولم يكن مفروضًا ولا واجبًا مثل تثليث

---

(١) أصول السرخسي (١/ ٣١٣).

(٢) أخرجه الترمذي في السنن، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٥/ ٤٤، ٤٥) وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود في السنن، كتاب السنة، باب لزوم السنة، (٢/ ٥٠٦)، وابن ماجه في السنن.

(٣) ينظر: فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت (٢/ ٩٦)، بهامش المستصفى للغزالي، الأحكام في أصول الأحكام للآمدي (١/ ١٢٧)، التحرير في أصول الفقه لابن الهمام (٣/ ١٩ ـ ٢٠)، إرشاد الفحول للشوكاني، ص: ٣٣.

الوضوء، ومثل المضمضة، والاستنشاق عند بعضهم، ومثل تقديم اليمنى على اليسرى، ومثل الركعتين قبل فرض الصبح ونحو ذلك.

ب ـ وقد يطلقها الفقهاء ويعنون بها، ما يقابل البدعة كقولهم فيمن طلق زوجته في غير حيض وفي غير طهر التقيا فيه ـ هذا طلاق سني ـ في مقابلة الطلاق البدعي، وهو الذي يحدث في طهر التقيا فيه، أو يحدث في حيض، حيث يأبى الإسلام بنظامه العام أن يشق على المطلقات بإطالة العدة[1].

ومرد هذا الاختلاف إلى اختلاف الأغراض التي تعنى بها كل فئة أهل العلم[2].

* * *

(١) إرشاد الفحول للشوكاني، ص: ٣٣.

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص: ٤٧ ـ ٤٩.

المبحث الثالث

مفهوم الشريعة

وفيه مطلبان:

معنى التشريع:

الشَّرع: مصدر شَرَعَ بالتخفيف، والتَّشريع مصدر شرَّع بالتشديد، والشَّريعة في أصْل الاستعمال اللُّغوي: مَورد الماء الذي يقصد للشرب، ثم استعملها العرب في الطريقة المستقيمة، وذلك من حيث إنَّ الماء سبيل الحياة والسلامة، ومثل ذلك أيضًا الطريقة المستقيمة، التي تهدي النفوس فتحييها.

قال الراغب: "الشَّرع: نَهجُ الطَّريق الواضح، يُقال: شرعت له طريقًا، والشَّرعُ مصدر، ثُم جُعِل اسمًا للطَّريقِ النَّهْجِ، فقيل له: شَرَعَ، وشَرْع وشَرِيعة، واستعير ذلك للطَّريقة الإلهيَّة"[1].

المطلب الأول: أهم المبادئ التي جاءت بها الشريعة الإسلامية:

لقد جاءت الشريعة بالعديد من المبادئ ومن أهم هذه المبادئ:

١. جمع الناس على إله واحد، قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍۢ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًۭٔا﴾ [آل عِمرَان: ٦٤] .

٢. مبدأ الاتصال المباشر بالله دون وساطة:

وقوله جل شأنه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقَرَة: ١٨٦] .

٤. مبدأ المساواة والعدالة بين الناس جميعاً، وكلُّ ما من شأنه أن يحفظ سلامة المجتمع، ويحافظ على أمنه واستقراره ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًۭا

---

(١) كتاب الشين، للراغب، (ص: ٢٥٨).

﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء: ١٣٥] .

٥. **مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: وهو في الحقيقة دستور لجميع نواحي الإصلاح. قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠﴾ [آل عِمرَان: ١١٠] .

٦. **مبدأ الشورى**: لقوله تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩] .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشّورى: ٣٨] .

٧. **مبدأ التسامح**: وهو من أسمى وأهم ما يعرف اليوم بمبدأ التعايش السلمي.

٨. **مبدأ الحرية**: لقوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦] .

٩. **مبدأ التكافل الاجتماعي**: فقد جعل الله الزكاة فيها حق الفقير في مال الغني وليست تفضلاً من الأغنياء علىٰ الفقراء[1].

وهذه المبادئ تدل علىٰ متانة بناء التشريع الإسلامي وقوة أركانه وصلاحيته للأحكام في كل زمان ومكان بين جميع الأجناس، ويدل علىٰ ذلك أن الأمة الإسلامية ازدهرت وقويت شوكتها حينما كانت تخضع في جميع شؤونها للشرع الإسلامي، وأنها ضعفت وتفككت حينما انصرفوا عن شريعته وجمد الفقهاء وركنوا إلىٰ التقليد وحاولوا أن يخضعوا التشريع لأهوائهم وشهواتهم وأدى ذلك علىٰ الاستعانة بالقوانين الوضعية علىٰ اعتبار أن الفقه الإسلامي لم يعد يتفق مع التطورات العالمية وما تقضيه المدنية الحديثة من مجاراة الدول القوية الغنية.

المطلب الثاني: التشريع القرآني والتشريع الوضعي في الميزان:

ليس من شكٍّ في أنَّه لا تصلح المقارنة أو الموازنة، بين التشريع القرآني وبين

---

(١) كتاب القرآن وإعجازه التشريعي، تأليف: الأستاذ محمد إسماعيل إبراهيم.

القوانين الوضعية؛ لأنَّ الذي يوازن بينهما كأنما يوازن بين الخالق والمخلوق ورغم ذلك سنأتي بهذه الموازنة من باب التوضيح لعلنا نحكم العقول.

إن الاختلاف بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية يقع من عدة وجوه:

١ ـ الشريعة الإسلامية من عند الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ والقوانين الوضعية من صنع البشر، ولا يعقل أن نعقد مقارنة بين الخالق ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وبين المخلوق، وحيث إن الأفعال والتصرفات تأخذ صفات المصدر فإن الشريعة الإسلامية تكون كاملة مكتملة خالدة صالحة لكل زمان ومكان علىٰ مر الدهور وكر العصور، فهي كاملة بكماله سبحانه وتعالىٰ خالدة بخلوده، أما القوانين الوضعية فهي تحمل صفات البشر وطبائعهم فهي ناقصة منقوصة بنقص الإنسان مؤقتة بحياته وظروفه ومحددة بقصر نظره وعصره.

٢ ـ القوانين الوضعية مؤقتة وضعت لمرحلة معينة وظروف معينة ومع تغير الظروف والعلاقات بين الجماعات البشرية، فالحياة متغيرة متطورة بينما القوانين الوضعية المفروض فيها الثبات، ولذلك فهي ثابتة تحكم متغير وبالتالي فهي لا تساير التطورات والتغيرات في المجتمعات وبالتالي فهي مشوبة بالنقصان وغير مكتملة الأركان، بينما الشريعة الإسلامية وضعها خالق الزمان والمكان، الذي بيده مجريات الأحداث والواقع والوقائع، فهي لذلك تساير التغييرات والتطورات التي تحدث في المجتمعات البشرية كما أنها تستوعب المستجدات المستقبلية التي يمكن أن تحدث في المجتمعات البشرية.

٢ ـ نصوص الشريعة الإسلامية تتصف بالمرونة والعموم بحيث تتسع لحاجات الجماعة علىٰ مر الدهور وكر العصور، وتستوعب التغييرات والتطور، كما أن قواعد الشريعة الإسلامية ونصوصها من السمو والارتفاع بحيث إنها لا يمكن أن تتأخر في أي مكان أو زمان أو تنخفض عن مستوى الجماعة البشرية.

٣ ـ أن الشريعة وضعت لتنظيم وتوجيه البشر لذلك فهي دين وقانون، فالجماعة البشرية خاضعة للشريعة الإسلامية، بينما القوانين الوضعية وضعت

لتنظيم الجماعة لذلك فالقانون الوضعي تابع للجماعة وخاضع لها ولتطوراتها.

٤ ـ الجزاء في الشريعة الإسلامية في الدنيا والآخرة، بينما الجزاء في القوانين الوضعية دنيوي فقط، إن الشريعة الإسلامية تتصل قوانينها بقانون السلوك الإنساني العام، وأحكامها تتفق مع قانون الأخلاق والفضيلة، وعقابها دنيوي وأخروي فالأفعال الظاهرة يعاقب عليها بعقوبة دنيوية والأفعال غير الظاهرة يكون عقابها أخروي أمام الله سبحانه وتعالىٰ، لذلك اتصلت الشريعة الإسلامية بالضمير الإنساني والوجدان، واتصال الحكم الدنيوي بالضمير الديني يشعر الإنسان أنه في رقابة مستمرة، من ربه سبحانه وتعالىٰ، وذلك يعد أهم مانع نفسي وروحي من الجرائم، مما جعل مرتكب الجريمة سرا يذهب إلىٰ الرسول ﷺ ويطلب منه أن ينفذ عليه العقوبة ويقيم عليه الحد بوازع من ضميره وحسه الإيماني الذي خلقه ونماه فيه الخالق سبحانه وتعالىٰ[1].

بخلاف القوانين الوضعية فإن المجرم إذا لم يكتشفه أحد أفلت من العقاب وأزداد ضراوة وإذا دخل السجن مدة طويلة أو قصيرة فأنه يزداد خبرة في الإجرام، فالعقوبات في القوانين الوضعية غير مانعة للجريمة.

ولنا أن نأخذ مثالاً واحدًا علىٰ الأثر العملي في الواقع للتشريع القرآني في مشكلةٍ لا تزال المجتمعات غير المسلمة تعاني منها إلىٰ اليوم، هي مشكلة الخمر.

فقد عالج التشريع القرآني هذه المشكلة علىٰ مراحل ثلاث، بطريقة حسمتها في النهاية:

١ ـ قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: ٢١٩] .

٢ ـ وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ

(١) الإمام محمد أبو زهرة، الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي الجزء الثاني (العقوبة) ص: (١٤/ ١٧).

﴿تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] .

٣ ـ وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠] .

هذا هو التحريم القاطع، الذي حسم المشكلة، وفي المقابل ـ كما يذكر الأستاذ/ مالك بن نبي في كتاب "الظاهرة القرآنية" ـ أثارت المشكلة بعد ذلك بثلاثة عشر قرنًا من الزمان، أثارت اهتمام المشرعين في أمَّة لعلها أرقى الأمم حضارةً، وهي الولايات المتحدة الأمريكيَّة، في عام ١٩١٩م، ثارت المشكلة في الرَّأي العام الأمريكي، وفي العام نفسه أدخل في الدستور الأمريكي تعديل تحت عنوان "التعديل الثامن عشر"، ويتضمن هذا التعديل أمرًا بحظر الخمر، أطلِق عليه وقتها قانون "فولستد"(ACTE Volstead). وقد أعدت لتنفيذ هذا التحريم داخل الأراضي الأمريكية وسائل هي:

١ ـ الأسطول البحري لمراقبة الشواطئ.

٢ ـ الطيران لمراقبة الجو.

٣ ـ المراقبة العلميَّة.

وفي النهاية، كانت النتيجة هي الفشل الذريع، وسقوط قرره التعديل الحادي والعشرون، الذي صدَّق عليه الكونجرس في عام ١٩٣٣م. أ.هـ(١) .

إنَّه من الأدلة الدامغة، والبراهين القاطعة علىٰ الإعجاز التشريعي في القرآن ـ اشتمال القرآن المجيد نفسه علىٰ المقاصد الأساسية، والقواعد الكلية للشريعة الإلهية، التي تنظم كل شؤون الحياة، وفي الوقت نفسه تحقق العدل التام بين الجميع، بقطع النظر عن الانتماءات الدينية أو العرقية أو غيرها، وهذا بالقطع لا يدخل تحت استطاعة أحد من البشر كائنًا من كان.

---

(١) الظاهرة القرآنية مالك بن نبي، ترجمة الدكتور/ عبد الصبور شاهين، ص٢٨٤ . بتصرف.

والتشريعات الإسلامية التي أثبت العلم التجريبي نفعها وصلاحها للإنسان متعددة الجوانب:

منها في العبادات: كالإعجاز التشريعي في تطبيق سنن الفطرة، وفي الوضوء، وفي مشروعية التيمم بالتراب، وفي مشروعية السواك بعود الأراك، وفي مواقيت الصلاة، وفي أداء الصلاة، وفي قيام الليل، وفي مشروعية البكاء من خشية الله تعالىٰ، وفي مشروعية المشي إلىٰ المساجد، وفي الزكاة ومكافحة الفقر وتحريم الربا، وفي الصيام، وفي الاضطجاع والنوم علىٰ الشق الأيمن وغيرها.

ومنها في الأحوال الشخصية: كالإعجاز التشريعي في تطبيق الحجاب، وفي تعدد الزوجات، وفي زواج الودود الولود، والنهي عن اختلاط الرجال بالنساء، وتحريم الزواج بين المحارم، وتحريم زواج المسلمة بغير المسلم، وتحريم الوشم، وحماية المرأة من العنف الأسري، وتحريم الزنا واللواط، وغير ذلك.

ومنها التشريعات التي تتصل بالعقوبات، وهي ما يعرف بالقانون الجنائي: كالإعجاز التشريعي في حد السرقة، وحد الحرابة، وحد الزنا، وحد القتل، ونحو ذلك.

ومنها ما يتعلق بصحة الإنسان: كالإعجاز التشريعي في مشروعية الحجر الصحي، وفي تحريم الخمر، وفي تحريم لحم الخنزير، وتحريم أكل الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية، وفي تحريم أكل لحم الجوارح وكل ذي ناب، والنهي عن الشرب قائماً، وفي عدم إكراه المرضى علىٰ الطعام، وفي تحريم الدماء، وفي البسملة عند الذبح، وفي طريقة الذكاة المشروعة، وغسل الإناء الذي ولغ فيه الكلب، والفرار من المجذوم، وفي تحريم الوطء في الحيض، وفي الختان، وغيرها.



المبحث الرابع: تعريف الإعجاز

قد يخفي على البعض معنى الإعجاز فكان لا بد من بيانه ولو بشيء من الإيجاز؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، ولأن ما بعده مبني عليه ومتعلق به.

معنى الإعجاز: العَجُز ـ بضم الجيم ـ : مؤخر الشيء، وجمعه: أعجاز، والعجز الضَّعف، وأعجزه الشيء: فاته، وعَجَّزته تعجيزًا: ثبَّطته، ونسبته إلى العجز[(١)].

والعجز: أصله التأخر عن الشيء، وحصوله عند عجز الأمر، أي: مؤخره، وسار في التعارف اسمًا للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة[(٢)].

قال صاحب القاموس: وأعجزه الشيء: فاته، وأعجز فلاناً: وجده عاجزاً وصيّره عاجزاً، والتعجيز: التثبيط والنسبة إلى العجز، ومعجزة النبي ﷺ: ما أعجز به الخصم عند التحدي والهاء للمبالغة[(٣)].

أعجزته وعاجزته، جعلته عاجزًا، وقوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ [الحج: ٥١] ؛ وقرئ (مُعَجِّزين)[(٤)] فمعاجزين ـ قيل معناه ـ : ظالمين ومُقدرين أنّهم يُعاجزوننا؛ لأنّهم حسبوا أن لا بعث، ولا نشور، فيكون ثواب وعقاب؛ وهذا في المعنى كقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت: ٤] .

ومعجزين: ينسبون من تبع النبي ﷺ إلى العجز نحو جهلته وفسقته، وقيل معناه: مثبطين، أي: مقنطين الناس من النبي ـ ﷺ كقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ

---

(١) مختار الصحاح (ع . ج . ز)، (ص: ٤١٣).

(٢) المفردات، للراغب، كتاب العين، (ص: ٣٢٢).

(٣) القاموس المحيط ص: ٦٦٣.

(٤) هذه قراءة ابن كثير وأبو عمرو.

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأعرَاف: ٤٥] وورد في مواضع أخر .أهـ[١] وإعجاز القرآن معناه: إثبات عجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله، وليس المقصود من (إعجاز القرآن) هو تعجيز البشر لذات التعجيز، أي: تعريفهم بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن)[٢].

* * *

---

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٤/ ٢٢).

(٢) التبيان في علوم القرآن ص: ٩٣.

المبحث الخامس

تعريف: الإعجاز التشريعي

الإعجاز التشريعي عبارة واسعة المجال تشمل كل ما شرعه الله تعالىٰ لعباده، فهو بعبارة أخرى المنهج الذي أراده الله لعباده أن يسلكوه ويأتمروا به قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المَائدة: ٤٨].

المراد من الإعجاز التشريعي في القرآن:

هو إثبات عجز البشر جميعًا عن الإتيان بِمثل ما جاء به القرآن من تشريعاتٍ وأحكام، تتعلق بالفرد والأسرة والمجتمع في كافة المجالات.

وليس المراد من الإعجاز التشريعي هو مجرد إثبات الإعجاز، وإنَّما المراد منه لازمه، وهو إثبات صدق النبي - ﷺ - وبيان كون القرآن من عند الله - ﷻ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصّلَت: ٤٢] .

وها نحن نعرج علىٰ زاوية رحبة، أودع فيها المفكر الإسلامي: مالك بن نبي إحدى روائعه الفكرية (الظاهرة القرآنية)، لنوضح فيها ماهية الإعجاز التشريعي يلخصها د. ابن عيسى باطاهر، من جامعة الشارقة، كما يلي:

١ - الإعجاز في تصور مالك: هو الحُجَّة التي يقدمها النص القرآني؛ لإثبات حقيقته ومصدريته الإلهية، وأنه معجز فوق الطاقة البشرية، وهو جوهر القرآن، ومقصد من مقاصده، ووسيلة من وسائل تبليغ رسالته.

٢ - يشترط في الإعجاز أن يكون خارقًا للعادة، وفوق الطاقة، وأن يكون في مستوى إدراك جميع المخاطبين، وأن تأثيره بقدر ما في تبليغ الدين من حاجة إليه، وهذه الشروط لا توافي اليوم إلا في القرآن الكريم.

٣ - مر الإعجاز بثلاث مراحل مختلفة في تاريخ المسلمين، فكانت مرحلة التذوق الفطري في زمن النزول، ثم تلتها مرحلة التذوق اللغوي في القرن الثالث الهجري، واستمرت حتى العصر الحديث الذي شهد مرحلة التذوق

العلمي، ولكل مرحلة من هذه المراحل رسائلها الخاصة في إدراك الإعجاز وتذوقه.

وترى د. عائشة عبد الرحمن: أن انشغال الدارسين بالقرآن الكريم علىٰ مر العصور ـ هو وجه من وجوه الإعجاز، وكما قال مالك بن بني: "بقي الإعجاز مع القرآن؛ لأنه من جوهره، وليس من توابعه"[١].

معجزات القرآن التشريعية:

لقد اهتم العلماء بالقرآن بحثاً ودرساً وبياناً وشرحاً، ولكن أعلى هذه الأمور خطراً، وأجلها قدراً، وأبقاها أثراً؛ ذكر خصائصه ومزاياه التي كان بها وحياً معجزاً تحدى الله به الثقلين أجمعين أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله كما قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

لقد كانت معجزات الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام معجزات حسيةً مشاهدةً تقع ولا تبقى بعد موت صاحبها، فلا يعرفها علىٰ اليقين إلا من عاينها، لكن معجزة رسولنا محمد ﷺ كانت من نوع آخر، لم تكن حادثة تقع وتزول فقط، بل كانت معجزةً دائمةً مستمرةً تخاطب الأجيال، يراها ويقرؤها الناس في كل عصر، ولهذا ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[٢]، قال ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: ومعجزة القرآن مستمرة إلىٰ يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه، وفي بلاغته، وإخباره بالغيبيات، فلا يمر عصر من الأعصار، إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به "إن معجزة القرآن الكريم مستمرة إلىٰ قيام الساعة، وهذا الإعجاز يتجلى في أمور كثيرة، إعجاز في نظمه وبلاغته، وإعجاز في قصصه، وإخباره بالغيبيات السابقة والمستقبلية التي لم تكن معهودةً في وقت التنزيل"[٣].

---

(١) الظاهرة القرآنية"، مالك بن بني.

(٢) صحيح الجامع برقم(٥٦٨١).

(٣) الظاهرة القرآنية"، مالك بن نبي.

ومن إعجازه:

الشريعة العظيمة التي احتوى عليها فإلى جانب ما احتوى عليه القرآن العظيم من الهدى والنور في جانب الاعتقاد والإيمان الذي نزل من أجله، فقد اشتمل علىٰ أفضل وأرقى التشريعات التي تكفل سعادة الفرد والمجتمع؛ بل والعالم بأكمله في جميع شؤون حياتهم؛ في جوانب السياسة والقضاء والحكم وإقامة العدل، وفي جوانب الاقتصاد والمال والمعاملات، وفي جوانب الاجتماع والتكافل والأخلاق والآداب والفضائل، وفي جوانب الفكر والبحث والعلم، وفي جوانب الصحة البدنية والنفسية وحماية الأعراض واستتباب الأمن، وفي جوانب الحرب والسلم والعلاقات بين سائر بني الإنسان، فلم يبقِ جانباً من جوانب الحياة إلا وقد بين فيه سبيل الحق والهدى والصواب كما قال تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النّحل: ٨٩] .

فهي شريعة جاءت بهدايات كاملة شاملة تامة تفي بحاجات جميع البشر في كل زمان ومكان لأنها من لدن حكيم، عليم بكل شيء، خالق البشرية، والخبير بما يصلحها وينفعها، وما يفسدها ويضرها، فإذا شرع أمراً جاء في أعلى درجات الحكمة والخبرة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: ١٤] .

ويزداد هذا الأمر وضوحاً عند التأمل في أحوال الأنظمة، والقوانين البشرية التي يظهر عجزها عند معالجة المشكلات البشرية، ومسايرة الأوضاع والأزمنة والأحوال، مما يضطر أصحابها إلىٰ الاستمرار في التعديل والزيادة والنقص، فيلغون اليوم ما وضعوه بالأمس، لأن الإنسان محل النقص والخطأ والجهل لأعماق النفس البشرية، والجهل بما يحدث غداً في أوضاع الإنسان، وأحواله، وفيما يصلح البشرية في كل عصر ومصر .

ويزداد الأمر جلاءً أكثر عندما نرى الاكتشافات العلمية - في زمن العلم - تجلي بوضوح فوائد ومنافع تطبيق الشريعة الإسلامية في شتى المجالات،

وتثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن التشريع الإسلامي معجز في تحقيق مصالح الخلق، وإدخال السرور والبهجة إلىٰ قلوبهم، وتطهير نفوسهم، وتهذيب أخلاقهم، وإصلاح حالهم، وتوجيه مجتمعهم؛ سواء في ذلك الشرائع الواردة في الأوامر والمندوبات والمستحبات، والشرائع الواردة في المحرمات والمكروهات .

فهذان دليلان شاهدان علىٰ عجز البشر عن الإتيان بأنظمةٍ تُصلح الخلق، وتُقوم أخلاقهم، وعلىٰ أن الشريعة الإسلامية سليمة من كل عيب ونقص، كفيلة برعاية مصالح العباد في العاجل والآجل، ودرء المفاسد عنهم في الدنيا والآخرة، وأن هذه الشريعة مصدرها خالق الإنسان؛ الذي يعلم أسرار خلقه وفطرته، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: ١٤] .

ومن إعجازه السعة والمرونة:

إذا كان التشريع القرآني يمتاز بالشمول، وأعني به الشمول الزماني، والشمول المكاني، والشمول الموضوعي، أي: إنَّه يشمل مجالات الحياة كافة علىٰ اختلافها وتنوعها؛ فإنه ـ أيضًا ـ يمتاز بخاصية أخرى، هي السعة والمرونة التي تسع الجميع من الفقهاء والمُجتهدين.

هذه السعة التي تتيح الاختلاف المشروع بين الفقهاء، وهو اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد، واختلاف في الفروع، لا في الأصول، والقرآن المجيد في كل هذا لا يتبدل، ولا يتناقض: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء: ٨٢] .

فأدلة الأحكام في القرآن مُترددة بين القطع أو الظن[١]، بخلاف أدلَّة العقيدة، فهي يقينية قطعية لا مجال فيها للظن، وهي كما ذكر الإمام الشاطبي في الموافقات: علىٰ طريقة البُرهان العقلي، ويستدل بها علىٰ المخالفين"[٢].

---

(١) القطعي: هو الذي لا يحتمل إلا معنًى واحدًا، والظني: هو الذي يحتمل أكثر من معنى، هذا من حيث الدلالة، أي: دلالة اللفظ علىٰ معناه، أمَّا من حيث الثبوت، فالقرآن كلّه قطعي الثبوت بالنسبة إلىٰ الله تعالىٰ.

(٢) الموافقات، للشاطبي، (٣/ ٣٢)

أمَّا أدلة الأحكام من حيث الدلالة - أي: دلالة اللفظ علىٰ معناه - فهي مترددة بين القطع والظن، والقرينة هي التي تعيِّن المعنى المراد؛ قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره: "المسألة الخمسون: دلالة الألفاظ علىٰ معانيها ظَنِّيَّة؛ لأنَّها موقوفة علىٰ نقل اللغات، ونقل الإعراب، والتصاريف، مع أنَّ أحوال الناقلين أنَّهم كانوا آحادًا، ورواية الآحاد لا تفيد إلا الظن، وأيضًا فتلك الدَّلائل موقوفة علىٰ عدم الاشتراك، وعدم المجاز، وعدم الإجمال، وعدم التخصيص، وعدم المعارض العقلي، فإنَّه بتقدير حصوله، يجب صرف اللفظ إلىٰ المجاز". أ.هـ[1].

ومثال ذلك: اللفظ المشترك[2]. في قوله - تعالىٰ - : ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٨] ذلك أنَّ لفظ القرء من الألفاظ المُشتركة؛ لأنَّه يدلُّ بالتَّساوي علىٰ مَعنيين اثنين، هما الحيض والطهر، وهنا يأتي دور الفقيه أو المجتهد في تعيين المَعنى المُراد، والقَرينة هي التي تُحدد ذلك، ومثال ذلك أيضًا: قوله - تعالىٰ - : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المَائدة: ٦] .

حيث اختلف في المُراد بقوله - سبحانه: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المَائدة: ٦] .

فأخذ الإمام مالك بالاحتياط، وأوجب الاستيعاب؛ أي: استيعاب كل الرأس بالمسح، وأمَّا الشافعي، فقد أَوجب أقل ما يقع عليه اسم المسح، وأخذ الأحناف ببيان الرسول ﷺ حيث ورد أنه قد مسح علىٰ ناصيته، وقدروها بربع الرأس[3].

---

(١) تفسير مفاتح الغيب، للرازي، (١/ ٢٨).

(٢) اللفظ المشترك: هو الذي يدل علىٰ أكثر من معنى بالتساوي.

(٣) عن ابن المغيرة عن أبيه ﷺ: أَنَّ رسول الله ﷺ مسح علىٰ الخفين، ومقدم رأسه، وعلىٰ عمامتِه"؛ صحيح مسلم شرح النووي، كتاب الطهارة، باب جواز المسح علىٰ الخفين، (٢/ ٦٩).

ومن إعجازه موافقة الفطرة:

يخاطب القرآن الكريم الإنسان بجانبيه: جانب الروح، وجانب المادة، ويعطي لكل جانب منهما ما يناسبه ويرضيه، والتشريع القرآني يوافق الفِطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها؛ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم: ٣٠] .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القَصَص: ٧٧] .

فلا يكلف التشريع القرآني الإنسان ما هو فوق طاقته، ولا يُحمِّله ما لا يتحمله، ومن هنا جاء قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦] .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحَجّ: ٧٨] .

وفي التشريع القرآني الرخص التي رخَّص فيها الشارع لرفع الحرج أو عند الاضطرار، فعلىٰ سبيل المثال لا الحصر، فرض الله الصيام، ورخص في الفطر للمريض والمسافر؛ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] ومن ذلك أيضًا أنه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ذكَر المحرمات من الميتة والدَّم ولحم الخنزير وغير ذلك، ثم بيَّن سبحانه أنه لا إثم علىٰ المضطر؛ فقال تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ

دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المَائدة: ٣] .

وهكذا فالتشريع القرآني مُوافق للفطرة التي فَطَر الله النَاسَ عليها مما يجعلُهم مُنقادين إليه، طائعين غير مَجبورين عن قناعة وثقة؛ يقول الأستاذ مالك بن نبي: "وفي ضوء القُرآن يبدو الدِّين ظاهرة كونيَّة تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبيَّة المادة وتتحكَّم في تطوُّرها". أهـ[١].

ومن إعجازه شمولية الإعجاز:

إنَّه من الأدلة الدامغة، والبراهين القاطعة علىٰ الإعجاز التشريعي في القرآن ـ اشتمال القرآن المجيد نفسه علىٰ المقاصد الأساسية، والقواعد الكلية للشريعة الإلهية، التي تنظم كل شؤون الحياة، وفي الوقت نفسه تحقق العدل التام بين الجميع، بقطع النظر عن الانتماءات الدينية أو العرقية أو غيرها، وهذا بالقطع لا يدخل تحت استطاعة أحد من البشر مهما كان.

ومما يدل دلالة دامغة أيضًا علىٰ الإعجاز التشريعي في القرآن: أنَّ العرب كانوا أمَّة أمِّية لم تكن لهم ثقافة، ولم يكونوا يعرفون إلا التحاكم إلىٰ العرق القبلي وقت نزول القرآن المجيد علىٰ النبي ﷺ فهذا ولا ريب هو الإعجاز ذاته.

فهذا التشريع الذي اشتمل عليه القرآن المجيد وجه من وجوه إعجازه التي لا تُحد، وهو الذي جعل من المسلمين الأوائل أمة لا نظير لها في التاريخ، فقام المجتمع المثالي، وأقيمت المدينة الفاضلة التي طالما خامرت عقول كثير من المفكرين والمصلحين علىٰ مدى تاريخ البشريَّة الطويل.

إنَّ القرآن الكريم يبدأ بتربية الفرد؛ لأنَّه لبنة المجتمع، ويقيم تربيته علىٰ تحرير وجدانه، وتحمله للتبعة؛ يُحرِّر القرآن الكريم وجدان المسلم، بعقيدة التَّوحيد الذي يُخلصه من سُلطان الخرافة والوهم، ويفكُّ أسْرَه من عُبُودية الأهواء والشهوات، حتى يكون عبدًا خالصًا لله.

---

(١) الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، (ص: ٢٨٤)، ترجمة: د/ عبد الصبور شاهين.

وإذا صحت عقيدة المسلم كان عليه أن يأخذ شرائع القرآن في الفرائض والعبادات، وكل عبادة مفروضة يراد بها صلاح الفرد، ولكنها مع ذلك ذات علاقة بصلاح الجماعة[1].

ومن تربية الفرد ينتقل الإسلام إلىٰ بناء الأسرة؛ لأنها نواة المجتمع، فشرع القرآن الزواج؛ استجابة للغريزة الفطرية، وإبقاءً علىٰ النوع الإنساني في تناسُل نظيف.

ويقوم رباط الأسرة في الزَّواج علىٰ المودَّة والرحمة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرُّوم: ٢١] .

وللرجال حقوق، وللنساء حقوق قررها القرآن المجيد؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٨] .

* * *

(١) مباحث في علوم القرآن، د/ مناع القطان، (ص: ٢٧٨)

الفصل الثاني
الإعجاز التشريعي
في الحفاظ على الكليات

تمهيد: من أجل صيانة المجتمع وسلامته، يقرِّر التشريع الإسلامي في القرآن والسنة النبوية الحفاظ علىٰ كل ما يتعلق بالإنسان من نفس ومال ونسل وعرض وهو ما يطلق عليه الكليات الخمس وهي:

الدين، والنفس، والعقل، والنسب، والمال، وجعلها بعضهم ستة فزاد علىٰ الخمسة، العرض، وأدلتها واضحة من القرآن والسنة ولا يتسع المقام لتتبعها وهذه الكليات هي التي اتفقت الأديان السماوية وأصحاب العقول السليمة علىٰ احترامها وصيانتها.

وقد أجمع أنبياء الله تعالىٰ ورسله من عهد آدم عليه السلام إلىٰ محمد ﷺ علىٰ وجوب حفظها ولهذا جاءت الشريعة الإسلامية بمجموعة من التشريعات تصون هذه الضروريات وتحميها وهي:

١. شرعت لحفظ الدين: حد الردة علىٰ المرتد بالشروط المبينة في محلها.

٢. شرعت لحفظ النفس: تناول ما يقيمها من ضروري الطعام والشراب والسكن، وأوجب دفع الضرر عنها ففرض القصاص والدية، وحرم كل ما يلقي بها إلىٰ التهلكة.

٣. شرعت لحفظ العقل: حد الشرب علىٰ من تناول مسكرًا.

٤. ولحفظ المال أوجبت السعي في طلب الرزق وأباحت المعاملات والمبادلات والتجارة..وللحفاظ عليه حرمت السرقة والغش والخيانة واكل أموال الناس بالباطل.

٥. شرعت لحفظ العرض: الزواج وحرمت الزنا وعاقبت عليه..وفرضت

حد القذف على من انتهك عرض محترم مصون العرض بالقذف.

هذا بالإضافة إلى الآداب والتشريعات والتعاليم الأخرى التي تصب كلها في صيانة هذه الضروريات وحفظها.

- قال أبو حامد الغزالي: "إن مقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسبهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة..."[1].

- ومن أجل الحفاظ على هذه الكليات، التي تتفق كل المجتمعات على صيانتها والحفاظ عليها، حذر القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من الاعتداء عليها، ووضع ما يُعرف في الفقه الإسلامي بالجنايات أو الحدود.



(١) المستصفى - ج ١ص ٢٨٤.

المبحث الأول

الإعجاز التشريعي في الحفاظ على الدين

وفيه ثلاثة مطالب:

تمهيد: لقد قدر الإسلام ما للدين من أهمية في حياة الإنسان حيث يلبي النزعة الإنسانية إلىٰ عبادة الله، ولما يمد به الإنسان من وجدان وضمير، ولما يقوى في نفسه من عناصر الخير والفضيلة، وما يضفي علىٰ حياته من سعادة وطمأنينة.

نظرًا لتلك الأسباب كلها كان الدين ضرورة حياة بالنسبة للإنسان، قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم: ٣٠] .

يقول برجستون: لقد وجدت ـ وتوجد ـ جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكن لم توجد قط جماعة بغير ديانة(١).

ونظرا لتلك الاعتبارات حافظت شريعة الإسلام علىٰ الدين، سواء من حيث غرسه في النفوس وتعميقه فيها ابتداء، أو من حيث تدعيم أصله وتعهده بما ينميه ويحفظ بقاءه استمراراً ودواما، وشرعت لذلك الوسائل التالية:

أ ـ وسائل حفظ الدين من جانب الوجود:

من وسائل غرس الدين في النفوس ابتداء في الشريعة الإسلامية الوسائل التالية:

١ ـ ترسيخ اليقين بأصول الإيمان وأركانه، وهي الإيمان بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره، يقول الله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ

---

(١) مقاصد الشريعة لابن عاشور.

مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ويقول تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦] .

٢ ـ إقامة هذا الإيمان علىٰ البرهان العقلي والحجة العلمية، ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلىٰ النظر والتدبر: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٥] .

وكان نعيه علىٰ أولئك الذين لا يتفكرون في الآيات المبثوثة في الكون ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥] كما شن حملة شعواء علىٰ تقاليد الآباء وأخذ المعتقدات من غير نظر ولا برهان ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠] .

٣ ـ القيام بأصول العبادات وأركان الإسلام من صلاة وزكاة وصوم وحج، بعد النطق بالشهادتين فهذه العبادات من أهم أسرارها وحكمها أنها تصل العبد بربه وتوثق صلته به مما يرسخ أصل الإيمان في نفسه ويجدده، يقول الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**وما تقرب إلىٰ عبدي بشيء أحب إلىٰ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلىٰ بالنوافل حتى أحبه**»(١).

ويقول ﷺ: «**بني الإسلام علىٰ خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا**»(٢).

٤ ـ إيجاب الدعوة إلىٰ الله وحمايتها وتوفير أسباب الأمن لحملتها ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) صحيح الجامع برقم (١٧٨٢).

(٢) البخاري (٣/ ٢٠٤).

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ [آل عِمرَان: ١٠٤] .

وقال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النّحل: ١٢٥] .

ب ـ وسائل المحافظة على الدين من جانب البقاء:

والمقصود بها الوسائل التي انتهجتها الشريعة في المحافظة علىٰ الدين بعد حصوله، لصيانته وإزالة العوائق من طريقه، وتزكيته في النفوس.

ومن هذه الوسائل:

١ ـ كفالة حرية العقيدة والتدين وحمايتها فالإسلام لا يكره أحدا علىٰ اعتناقه، ويسمح بتعايش مختلف الأديان داخل دياره وفي رحاب دولته، ويترك الحرية لأهل الأديان في عقائدهم وممارستهم التعبدية وتصرفاتهم المدنية كما قال ﷺ: «**لهم ما لنا وعليهم ما علينا**» بل إن من أهداف الجهاد الإسلامي تأمين حرية الاعتقاد والتدين، قال تعالىٰ: ...... ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحَجّ: ٤٠] .

٢ ـ تشريع الجهاد تمكينا للدين ودرءً للعدوان وحماية للاعتقاد، قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البَقَرَة: ١٩٠] .

٣ ـ الالتزام بتعاليم الدين وتطبيقها بعد القناعة بها وبذلك تظل للدين حيويته في النفوس وأثره في الوجدان، ومن هنا قرن الإيمان والعمل الصالح في كثير من نصوص القرآن، إذ كثيرا ما يرد في القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠] .

٤ ـ تشريع عقوبة الردة وذلك حتى يكون الإنسان جادًا في إعتناقه للإسلام، وحتى لا يقدم علىٰ الإسلام إلا بعد قناعة تامة، فالإسلام لا يكره أحدا علىٰ اعتناقه.

بل إن الله لا يقبل من الدين إلا ما كان نابعا عن قناعة من صاحبه، فإذا

دخله الشخص فمن المفروض أن يكون علىٰ قناعة بما اتخذ من قرار، فإذا ارتد بعد ذلك فمعنى ذلك أنه أحدث بلبلة فكرية وسياسية تضطرب بها أوضاع المجتمع، ويفقد استقراره الفكري والنفسي المنشود.

كما قال تعالىٰ مبينا دعوة المشركين إلىٰ هذه السياسة: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٧٢﴾ [آل عمران: ٧٢].

ونظرا لذلك شرعت عقوبة الردة. حماية لجدية الاعتقاد، وحرمة الدين.

٥ ـ إقامة سياج من العبادات التي تقرب الإنسان من ربه وتحثه علىٰ الاتصال به والحفاظ علىٰ دينه منها الصلاة والصيام والزكاة والحج، وبكل هذه التشريعات يتأصل الدين، ويرسخ في نفس الإنسان وفي المجتمع، مما يحقق الأنس والسكينة والخير للفرد والمجتمع.

وسوف نتعرض بشيء من التفصيل للصلاة والصيام والزكاة ونبين ما فيهم من إعجاز تشريعي:

المطلب الأول: الإعجاز التشريعي في فرضية الصلاة وفيه ثلاثة أفرع:

التأصيل الشرعي للموضوع:

فريضة الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، لها من الفوائد البدنية والنفسية والأسرار والحكم الطبية ما يحير ويعجز.

وسوف نتحدث عن جانب الإعجاز التشريعي في الصلاة، لكي نبرز الصورة الحقيقية لشريعتنا الغراء، ومدى صلاحيتها لكل زمان ومكان وفي جميع الأحوال لكل الحياة علىٰ وجه الأرض وبالخصوص حياة الإنسان.

وسوف نقتصر علىٰ ذكر بعض الفوائد في الصلاة كعلاج الصلاة لكثير من الأمراض التي تعاني منها البشرية في هذه الزمان كأمراض آلام الظهر وعلاقة الصلاة في الصغر، وأمراض دوالي الساقين، والأمراض النفسية والعصبية، وتقوية المناعة في جسم الإنسان لمقاومة الكثير من الأمراض الجرثومية وغيرها.

الفرع الأول: علاقة الصلاة في الصغر وعلاج آلام أسفل الظهر:

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر**»[١] .

يقول أهل الاختصاص في العظام ما يلي: " إذا بدأ الإنسان في تليين أسفل ظهره في سن مبكرة، واستمر في هذا التمرين، وحافظ عليه أثناء الكبر،فإن فرصته في الإصابة بالآلام الشديدة والإنزلاقات الغضروفية في أسفل الظهر ستتقلص بشكل كبير "[٢].

البحث الميداني:

أُجريَ بحث ميداني على " ١٨٨ " شخص من البالغين وقد تم سؤالهم إذا كانوا يشكون من آلام أسفل الظهر أو عرق النسا، وعن شدة الألم إن وجد، ثم سئلوا عن صلاتهم متى انتظموا فيها ولم يقطعوها؟.

لقد أثبتت النتائج بشكل قاطع وملحوظ صحة علاقة الصلاة في الصغر في التقليل من آلام أسفل الظهر في الكبر، حيث إن: نسبة ٢٦٪ ممن بدءوا الصلاة بعد سن الثالثة عشرة يعانون من آلام شديدة أسفل الظهر، وأن نسبة ٢,٦٪ فقط من الذين التزموا الصلاة قبل سن العاشرة واستمروا فيها قد عانوا من تلك الآلام، بينما نسبة الذين لا يصلون ويعانون من تلك الآلام قد بلغت ٤٥٪ من الحالات، فهذا فرق شاسع بين نسبة الذين التزموا الصلاة بعد سن العاشرة وبين من التزموها قبل سن العاشرة واستمروا فيها، فما بالك بالذين لا يصلون؟ فالبون شاسع.

(١) أخرجه أبو داود ١/١٨٧، برقم: (٤٩٥)

(٢) مجلة الإعجاز العلمي العدد (السادس عشر)رجب ١٤٢٤هـ، ص ٤٦.

وها هو جدول ليوضح تلك الفروق كما يلي:

الحالة	لا يوجد ألم	ألم بسيط	ألم شديد	عرق النسا
التزموا بالصلاة قبل سن العاشرة واستمروا فيها.	٨٢٪	١٥٪	٢,٦٪	لا يوجد
بدؤا الصلاة بعد سن الثالثة عشرة	٣٦٪	١٦٪	٢٦٪	٢٢٪
لا يصلون	٢٠٪	١٠٪	٤٥٪	٢٥٪

قُبِلَتْ هذه الدراسة ونوقشت في المؤتمر القطري العالمي الثاني للأطفال في الدوحة في شهر إبريل عام " ٢٠٠٠م "، وفي المؤتمر الدولي السادس لجراحة الظهر والذي عقد في أنقرة من ٤ ـ ٧ سبتمبر عام "٢٠٠٢م"، وذلك بإشراف نخبة من أطباء الظهر العالميين، كما نشرت في مجلة "الظهر" الأوروبية[١].

ملخص البحث العلمي:

إذا حافظ الإنسان علىٰ ميزة مرونة الأربطة والغضاريف الموجودة في الأطفال ـ أسفل ظهورهم ـ فهذا سيقلل من نسبة الإصابة بآلام أسفل الظهر والانزلاقات عند الكبر .

من دون العبادات يأمر الإسلام أطفال المسلمين بالصلاة خاصةً في سن مبكرة هي السابعة وعلىٰ أقصى تقدير العاشرة، وإن في ذلك لدلالة علىٰ أن التشريع يتواكب مع أحدث تقنيات العلم الحديث وخاصة الطبية في هذا المجال، ولا عجب من ذلك! فهو دين رب العالمين، الدين الذي يتوافق مع فطرة الإنسان المنسجمة مع حركة الكون من حوله، فهو دين الشعور والفطرة والعلم، وفي الركوع بالذات تتعرض الأربطة والغضاريف في أسفل الظهر لعملية تليين علىٰ الأقل (١٧) مرة يومياً، وذلك أثناء تأدية الصلوات الخمس، ولهذا فإن أطفال المسلمين ـ لا شعورياً ـ يحافظون علىٰ ليونة هذه الأنسجة،

---

(١) مجلة الإعجاز العلمي العدد (١٦) ص ٤٩.

منذ عمر مبكرة، وهذا يمنع تسيبها في الكبر وبالتالي يمنع تمزقها، ويبقى الغضروف آمناً بين الفقرات، وهكذا تتقلص مشكلة صعبة تعاني منها فئة الكبار من الناس.

يتجلى وجه الإعجاز في أمرين:

الأمر الأول: التشريع الإسلامي بالأمر للأطفال بالصلاة والإصرار عليهم بالمحافظة عليها قبل سن العاشرة، حيث التركيز علىٰ هذا السن له دلالة علمية، وصحة جسمانية، وشرعة ربانية، تميزَ بها الإسلام عن سائر الأديان.

الأمر الثاني: أن هذا الأمر الدقيق والبالغ الفائدة والأهمية جاء علىٰ لسان رجل أمي، نشأ في بيئة أمية، لم تصل إلىٰ ما وصل إليه العلم اليوم في القرن العشرين، فقد نزل هذا التشريع قبل ألف وأربعمائة عام، مما يدل علىٰ أن هذا النبي الأمي ﷺ لا ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى.

الفرع الثاني: علاقة الصلاة بالوقاية من أمراض دوالي الساقين:

يعتبر هذا البحث هو أول بحث طبي يربط بين الصلاة كتشريع إسلامي وبين الوقاية من مرض دوالي الساقين، من خلال دراسة أجراها الباحث علىٰ عشرين حالة مصابة بدوالي الساقين وعشر حالات غير مصابة، كما قام بقياس الضغط الوريدي علىٰ ظاهر القدم في خمسة عشر حالة غير مصابة.

★★ مرض دوالي الساقين:

هو خلل شائع في أوردة الساقين، يتمثل في ظهور أوردة غليظة ومتعرجة وممتلئة بالدماء المتغيرة اللون، علىٰ طول الطرفين السفليين، وهي تصيب ما يقرب من ١٠ ـ ٢٠٪ من البشر.

لقد قرر العلماء أن أهم عنصرين رئيسيين ضالعين في تدمير الأوردة السطحية وإبراز دوالي الساقين هما:

١ ـ تركيز أعلى قيمة للضغط علىٰ جدران الأوردة السطحية للطرفين السفليين عن طريق الوقوف بلا رحمة ولفترات طويلة.

٢ ـ أن الوريد السطحي المؤهل للإصابة بالدوالي إنما يكون واقعاً من

البداية تحت تأثير مرض عام في الأنسجة الرابطة، يؤدي بدوره إلىٰ إضعاف جدرانه إلىٰ مستوى أقل من نظيره الطبيعي.

وبتكاتف هذين العنصرين معاً في شخص ما تكون النتيجة الحتمية هي إصابته بدوالي الساقين.

علاقة الصلاة بالدوالي:

بالملاحظة الدقيقة للحركات المختلفة للصلاة وجدت أنها تتميز بقدر كبير من الانسجام والمرونة، وأعجب أمر: أنه بالقياس العلمي الدقيق للضغط الواقع علىٰ جدار الوريد الصافن عند مفصل الكعب، كان الانخفاض الهائل لهذا الضغط أثناء إقامة الصلاة مثير للدهشة وملفتٌ للنظر، فعند المقارنة ما بين متوسط الضغط الواقع علىٰ ظاهر القدم حال الوقوف، ونظيره حال الركوع، وجد الأول وقد بلغ ما قيمته " ٩٣,٠٧سم/ماء"، فيما كان الثاني "٤٩,١٣سم/ماء" فقط فالنسبة لا تزيد إلا يسيراً عن الضغط الواقع علىٰ جدران تلك الأوردة الضعيفة، أما متوسط الضغط عند السجود الأول بلغ فقط " ٣سم/ماء " ـ وغني عن البيان أن انخفاضاً لهذا المستوى ليس إلا راحة تامة للوريد من ضغطه طوال فترة الوقوف ـ أما عند السجود الثاني فكانت القيمة "١,٣٣سم/ماء". وهذا الانخفاض للضغط بين السجدتين ربما يكون نتيجة لعملية سحب الدماء من الطاقم السطحي للأوردة إلىٰ الطاقم الأعمق، لأنه بين كل سجدتين يستقر المرء جالساً في اطمئنان وهدوء.

تنشيط الصلاة للمضخة الوريدية الجانبية :

حين تنقبض عضلات مؤخر الساق "السمانة" تندفع الدماء بقوة داخل الأوردة العميقة من أسفل إلىٰ أعلى، بينما تقف الصمامات المخترقة الحازمة بالمرصاد لتحول بين هذه الدماء وبين أي تسرب إلىٰ الأوردة السطحية، وهذا يعرف بمضخة "السمانة"، ثم تنبسط عضلات مؤخر الساق فإذا بتحول الضغط فجأة من أعلى صورة إلىٰ ضغط سالب "يمتص" الدماء في سلاسة من الأوردة السطحية إلىٰ العميقة، بينما تسمح الصمامات بمروره في

حراستها من الخارج إلىٰ الداخل.

فإذا رجعنا إلىٰ الصلاة نجد أننا أمام حركات بالغة المرونة لمعاونة تلك المضخة لا لتؤدي وظيفتها فحسب بل لتضيف إليها من العوامل المقوية لتعزيز عملها علىٰ أكمل صورة، فهي تؤدي لهبوط الضغط عقب كل ركعة إلىٰ "٣سم/ ماء" فقط بل إلىٰ ما هو قريب من درجة الصفر "١,٣٣سم/ ماء" وهي رحمة عميقة بأولئك المصابين بالدوالي الذين يقضون في أعمالهم وقوفاً بغير انقطاع حوالي "٥ ـ ١٣ساعة" متواصلة في اليوم الواحد.

نموذج السجود كحركة من حركات الصلاة وماذا يحدث أثناءها:

إنها أخطر حركة في الصلاة بأسرها من جهة خدمة ارتجاع الدماء إلىٰ القلب، وتحت تعليمات دقيقة ومحددة أمر النبي ﷺ أن تؤدى هذه الحركة علىٰ المنوال التالي:

ـ كقاعدة لا استثناء لها، ينبغي أن يؤدى السجود ـ مثل غيره من حركات الصلاة ـ علىٰ أكمل حالات التؤدة والتأني والاطمئنان.

ـ يتم هذا السجود في فترة زمنية قريبة من تلك التي يقطعها المصلي حال الركوع.

ـ ينبغي أن يطمئن الوجه تماماً في ملاصقته للأرض .

ـ يبقى الجذع معلقاً ومستقراً في ثبات علىٰ أعظم(الوجه والكفين والركبتين وأطراف أصابع القدمين المتجهتين إلىٰ القبلة).

ـ وهناك نهي صريح عن استراحة الجذع فوق الكوعين أو الزندين ـ انبساط الكلب ـ بل علىٰ العكس ينبغي أن يبقى الكوعان علىٰ أقصى بعدٍ ممكن من الجذع.

ـ علىٰ المصلي أن يتجنب قطعياً انحناء الظهر عند السجود، بل علىٰ الظهر أن يبقى مشدوداً بلا عوج، وأما الفخذان فيستقران في الوضع العمودي علىٰ الركبتين في حالة شبه استرخاء كامل، أما عن الساقين فكلاهما يرتكن علىٰ

أطراف القدم التابعة له، فيما يبقى من جهته الأخرى مثبتاً علىٰ مفصل الركبة لذات الطرف السفلى.

وها هو وصف سجود النبي ﷺ: كان ﷺ: « **يسجد حتى تطمئن مفاصله، ويجافي يديه عن جنبيه**»[١].

وكان ﷺ: «**يعتمد علىٰ كفيه، ويبسطهما ويضم أصابعهما، ويوجهها قبل القبلة**»[٢]« **وكان يجعلهما حذو منكبيه**»[٣] «**وكان يمكن أنفه وجبهته من الأرض**»[٤]« **وركبتيه وأطراف قدميه**»[٥].

«**ويستقبل بصدور قدميه وبأطراف أصابعهما القبلة**»[٦].

«**ويرص عقبيه**»[٧].

«**وينصب قدميه**»[٨] «**وكان يفتح أصابعهما**»[٩].

فهذه سبعة أعضاء كان ﷺ يسجد عليها: الكفان والركبتان والقدمان والجبهة والأنف، وكان لا يفترش ذراعيه، بل كان يرفعهما عن الأرض ويباعدهما عن جنبيه حتى يبدو بياض إبطيه من ورائه، وكان يبالغ في ذلك، وكان يأمر بذلك فقد روى البراء ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا سجدت فضع كفيك وارفع مرفقيك**»[١٠].

وعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**اعتدلوا في السجود ولا يبسط أحدكم**

---

(١) أخرجه أبو داود ١/ ٢٨٨، برقم (٨٥٧).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٣٠٠).

(٣) أخرجه مسلم ١/ ٣٠٠.

(٤) أخرجه البيهقي ٢/ ١٠٢، برقم: (٢٤٧٨).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٢/ ١٨٠، برقم (٢٩٧٤).

(٦) أخرجه النسائي ٢/ ٢٢٢، برقم: (١١٣٠).

(٧) أخرجه البيهقي (٢/ ١١٦)، برقم: (٢٥٥٢).

(٨) أخرجه البيهقي (٢/ ١١٦).

(٩) أخرجه البيهقي (٢/ ١١٦)، برقم(٢٥٥١).

(١٠) أخرجه مسلم (١/ ٣٥٦)، برقم (٤٩٤).

ذراعيه انبساط الكلب»[1].

التغييرات الوريدية العضلية حال السجود:

- يتم شد الظهر وتجنب أي انحناء فيه.

- يحدث تمدد العنق الارتجاع الوريدي للدماء كما سبق.

- انثناء البطن في وضع السجود يتم بتضافر العضلة البطنية الأمامية في جدار البطن مع جاراتها المائلات معها.

- ثنيُ مفصل الفخذ بالعضلة الممتدة في الإلية لأعلىٰ الفخذ .

- انثناء مفصل الركبة، بينما تعتمد الساق علىٰ أطراف الأصابع المنتصبة باتجاه القبلة يعطي حالة من الاسترخاء التام لمجموعات العضلات الواقعة في منطقة الفخذ.

- وكذا في هذا الوضع المتميز للساق ترتاح عضلات السمانة ـ خلف الساق ـ وتتراخى تماماً، بينما يساعد الوضع المنحدر من الخلف إلىٰ الأمام إلىٰ تدفق الدماء بمساعدة العون القيم الذي تسديه الجاذبية الأرضية.

- أما مفصل الكعب فيلزم وضع الانثناء الظهري له، وذلك لثبات القدم علىٰ أطراف الأصابع المستقرة علىٰ الأرض.

ارتجاع الدماء الوريدية تحت تأثير الجاذبية الأرضية:

إن أعجب شيء في وضع السجود هو أنه يجعل الدورة الدموية بكاملها تعمل في ذات الاتجاه الذي تعمل به الجاذبية الأرضية، فإن الدماء التي طالما قاست من التسلق المرير من أخمص القدم إلىٰ عضلة القلب، وقد تدافقت منسكبة في سلاسة ويسر من أعلى إلىٰ أسفل.

وأخيراً فإن وضع الأقدام منتصبة علىٰ أطراف الأصابع أثناء السجود يؤدي إلىٰ انقباض المضخة الوريدية داخل أوعية القدم، مما يزيد في كفاءة ارتجاع الدماء الوريدية.

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٣٨٣، برقم (٧٨٨)، ومسلم (١/ ٣٥٥)، برقم (٤٩٣).

فوائد طبية في السجود:

إن حركة السجود تؤدي إلىٰ منافع جمة في تيسير مهمة الارتجاع الدموي صوب القلب علىٰ ما يلي:

أولاً: توجيه الدورة الوريدية بالجسم عموماً في اتجاه عمل الجاذبية الأرضية.

ثانياً: تنشيط المضخة الوريدية في البطن إلىٰ أقصى درجة ممكنة.

ثالثاً: سحب الدماء بمضخة الساق إلىٰ الطاقم العميق من أوردة الطرف السفلي.

رابعاً: أقصى استخدام لقوة السحب السالب من عضلة القلب جنباً إلىٰ جنب مع سحب الجاذبية الأرضية.

الخلاصة:

الصلاة تعد عاملاً مؤثراً في الوقاية من دوالي الساقين عن طريق ثلاثة أسباب:

الأول: أوضاعها المتميزة المؤدية إلىٰ أقل ضغط واقع علىٰ الجدران الضعيفة لأوردة الساقين السطحية.

الثاني: تنشيطها لعمل المضخة الوريدية الجانبية، ومن ثم زيادة خفض الضغط علىٰ الأوردة المذكورة.

ثالثاً: تقوية الجدران الضعيفة برفع كفاءة البناء الغذائي بها ضمن دفعها لكفاءة التمثيل الغذائي بالجسم عموماً[1].

وهذا يدل دلالة واضحة أن تشريع الصلاة ـ وخاصة ركن السجود منها ـ

---

(١) معجزة الصلاة في الوقاية من مرض دوالي الساقين ص٩٥، د. توفيق علوان. ط١، دار الوفاء، المنصورة (١٩٨٨م) عن كتاب الاستشفاء بالصلاة " دراسة حول الفوائد الصحية للصلاة علىٰ ضوء العلم الحديث " تأليف د.زهير رابح قدامي، إشراف د. عبد الله بن عبد العزيز المصلح " أمين هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة " كتاب صادر عن: المجلس الأعلى العالمي للمساجد، هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة(١٨)، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م).

يؤثر تأثيراً فعلياً في التخفيف من أمراض دوالي الساقين، وذلك بإعطاء الساقين الراحة التامة من الضغط اليومي عليها، فهذا التشريع الإلهي يبرز لنا معجزة الصلاة في علاجها لكثير من هذه الأمراض والأوبئة في هذه الأزمان، فسبحان الخالق المشرع الرحيم، الذي شرع لنا هذه الصلاة لتعرج قلوبنا إليه فيها، وتنعم بالصحة التامة أجسادنا وضمائرنا، ولتظهر هذه المعجزة العظيمة لأولي الألباب لعلهم يتذكرون وينعمون بهذه الشريعة المعطاءة التي عجزت مناهج البشر أن تأتي بمثلها، ولن يقدروا إلىٰ ذلك سبيلا، ولا تزال شريعتنا تبرز معجزاتها جلية وواضحة بحيث لا يملك المنصفون إلا الإذعان لمنهجها والانصياع لأحكامها.

الفرع الثالث: علاقة الصلاة بتقوية المناعة في جسم الإنسان:

هذا مدخل طبي علمي لابد من إشارة إليه حتى نكون علىٰ بينة من أمرنا:

تعريف المناعة:

هي مجموعة الوسائل التي تسمح للجسم أن يواجه الكائنات الدقيقة التي تهاجم الجسم من المحيط الخارجي وغيرها، عبر طرق متعددة، وتنقسم المناعة إلىٰ:

١ ـ قسم موجود منذ الولادة: ويسمى "المناعة الموروثة" غير المتخصصة.

وهي التي يتمكن الإنسان السليم من خلالها حماية نفسه من الهجمات المحتملة للجراثيم التي تعيش معه في المحيط الخارجي، وهي وسائل حماية موجودة في جسمه منذ الولادة، وهذه المناعة تتكون من عدة عناصر:

الحواجز المادية مع إفرازاتها: كالجلد والأغشية المبطنة لتجويف الجسم وإفرازات الغدد الدهنية والعرقية تقتل الجراثيم والفطريات.

والإفرازات المخاطية في الجهاز التنفسي تعمل علىٰ تعطيل حركة الجراثيم المتجهة إلىٰ الجسم وذرات الغبار والأتربة.

وتقلصات الأمعاء تمنع توالد الجراثيم العالقة بالإفرازات المخاطية في الجهاز الهضمي.

والحموضة المنخفضة بالمعدة تقتل الجراثيم، وكذا دموع العين تقتل البكتيريا.

٢ ـ قسم يكتسب المناعة بعد التعرض للجراثيم: وهو موجه ضد كائنات جرثومية محددة، وهذه المناعة تسمى "المناعة المكتسبة أو النوعية" المتخصصة.

وهي خط الدفاع الثاني بعد الموروثة، فهي لا تواجه الجراثيم إلا بعد التعرف علىٰ تركيبها في الهجوم الأول، فتقوم بخزن المعلومات التي تمكنها من التعرف علىٰ الجسم الغريب ومن ثم تقضي عليه وفق ما جمعته من معلومات عنه مسبقاً.

وهي تعمل بطريقتين: إفراز مواد قاتلة عن طريق الخلايا اللمفاوية، أو قتل الجراثيم مباشرة.

٣ـ المناعة النفسية: لقد ثبت علمياً أن التوتر النفسي يدخل فعلاً اضطراباً علىٰ المناعة، ومن واقع التجربة تتعكر عدة أمراض مناعية بسبب الشدائد النفسية[١].

وأدت الأبحاث إلىٰ التعرف علىٰ العلاقة الدقيقة في بعض هذه الأمراض، وهي علاقة تجمع بين الجهاز العصبي والغدد وجهاز المناعة، وتتمثل استجابة جسم الإنسان إلىٰ التوتر في زيادة نسبة الهرمونات العصبية والغددية.

أما الاستجابة المناعية لدى الإنسان المتوتر تتمثل في:

١ ـ نقص قدرة الخلايا القتالية الطبيعية علىٰ قتل الخلايا والجراثيم الضارة.

٢ ـ انخفاض الاستجابة التنشيطية لدى الخلايا اللمفاوية إذا ما أثيرت بالاحتكاك مع الجراثيم المنبهة لها.

٣ ـ الإكثار من إفراز مادة(الكورتيزون) و(الأدرينالين) اللذين يؤثران علىٰ المناعة بشكل مباشر، بحيث يمنع(الكورتيزون) دخول الخلايا البيضاء نحو مكان الالتهاب الجرثومي وعرقلة الخلايا البالعة للجراثيم،

(١) كتاب الاستشفاء بالصلاة ص١٨٥.

ويرفع "الأدرينالين" من سرعة نبضات القلب فيؤدي التوتر الشديد إلىٰ تثبيط الجهاز المناعي في الجسم عن أداء وظائفه، مما يسهل ظهور الأمراض الجرثومية والسرطانية.

تأثير الصلاة على الجهاز المناعي لدى الإنسان:

الصلاة تحدث أثراً مهدئاً ومريحاً لنفس الإنسان، وانخفاض التوتر بأداء فريضة الصلاة هو عامل مساعد للوقاية من آثار التوتر السيئة علىٰ جهاز المناعة، ولا يعني ذلك أن المصلين لا يصابون بالتوتر ولكن نقول: إن الصلاة وسيلة مساعدة للوقاية من أمراض التوتر، إذ هي تساعد المسلم علىٰ أن لا ينفعل، وإذا انفعل تساعده علىٰ أن يهدأ في أقرب وقت للصلاة التالية، فسرعان ما يزول التوتر لقرب مواعيد الصلاة من بعضها، وأن قوة المسلم تكمن في التحكم في انفعالاته، كما جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[1].

إن التوازن والهدوء النفسي الذي تحدثه سلسلة متعاقبة من فروض الصلاة تجعل الجهاز العصبي لدى الإنسان يعمل في راحة واعتدال، وبالتالي فإنه لا يتعرض لحالة نفسية منفرطة في القلق والتوتر.

وهذا يصون جسمه من مضرة الإفراز المتزايد للمواد المثبطة لعمل جهاز المناعة، فلا يسمح لعدد كبير من الأمراض المناعية من الانتشار والغزو لجسمه، مما يجعل حياة الإنسان هادئة ومريحة وبعيدة عن التوترات[2].



(١) البخاري ١٩/ ٧٢، برقم ٥٦٤٩، ومسلم ٤/ ٢٠١٤، برقم: ٢٦٠٩.

(٢) كتاب الاستشفاء بالصلاة ص/ ١٧٩ ـ ١٩٢.

المطلب الثاني

الإعجاز التشريعي في فرضية الزكاة

تمهيد:

تعتبر الزكاة التي هي الركن الثالث من أركان الإسلام الركن المالي الاجتماعي في الإسلام. وهي من نظم الإسلام المالية، وذلك على الرغم من أنها تعتبر العبادة الثانية في الإسلام الأمر الذي يدرجها في نطاق فقه العبادات كما أنها من الناحية الأخرى تدرج في نطاق الفقه المالي والاجتماعي.

وقد أصبح موضوع الزكاة والموارد المالية في الإسلام وطرق الاستثمار وعلاقتها بالأفراد والمجتمعات وحقوق العامة والخاصة هي موضوعات الساعة[(١)].

الأمر الذي يدفع الباحثين " في محاولة إبداء الرأي فيما جد من مسائل وأحداث متعلقة بالموضوع، لم يعرفها علماء المسلمين السابقين مما لا يسع الباحث الإسلامي المعاصر أن يغفله "[(٢)].

التعريف بالزكاة:

الزكاة لغة: النماء والطهارة.

شرعاً: حق مقدر بتقدير الشارع.

التأصيل الشرعي:

قد فرضت الزكاة على المسلمين في السنة الثانية من الهجرة. وفرضيتها ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع فقد وردت الزكاة في الكتاب في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البَقَرَة: ٤٣] .

---

(١) الدكتور يوسف القرضاوي: فقه الزكاة، دراسة مقارنة لأفكارها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ص ١٤.

(٢) نفس المصدر السابق ص١٥.

وكلمة الزكاة وردت في القرآن اثنين وثلاثين مرة في تسعة عشر سورة[1].أما في السنة فقد ثبتت فرضية الزكاة في أحاديث كثيرة منها ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ لما بعث "معاذ" إلىٰ اليمن، قال: «**ادعهم، إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وأني محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا بذلك فأعلمهم أن الله افترض خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد علىٰ فقرائهم**»[2].

وفي الإجماع اتفقت كلمة الأمة علىٰ أن الزكاة فرض عين علىٰ كل مسلم توفرت فيه الشروط المقررة فهي ركن من أركان الإسلام من جحدها اعتبر مرتداً[3].

ويتعين إنفاذ ما حدده القرآن والسنة بشأن وعائها ونصابها وسعرها ومستحقيها. فالقرآن والسنة " عهدا إلىٰ الدولة أو ولي الأمر مسئولية تحصيلها وصرفها في أوجهها المحددة[4].

خاصية الإلزام والوجوب:

يشترط لوجوب الزكاة أن يكون المزكي مسلما وحراً ومالكاً تاماً لنصاب من المال وعلىٰ أن يكون هذا المال خاليا من حوائجه الأصلية. وأن يحول علىٰ هذا المال الحول.

ولو هلكت بعد وصولة فإنها تلزمه ولا تسقط عنه[5].

واتفق فقهاء المسلمين علىٰ وجوب الزكاة في الأصناف التالية:

ـ صنفان من المعادن هما الذهب والفضة اللتين ليستا بحلي.

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(٢) عبد الخالق النواوي: النظام المالي في الإسلام، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولي، ١٩٧١، ص ٢٧.

(٣) نفس المصدر السابق ص٢٨.

(٤) الدكتور الفنجري: الإسلام والضمان الاجتماعي، دار ثقيف للنشر، الرياض الطبعة الثانية، ١٩٨٢، ص٥١.

(٥) عبد الخالق النوادي : نفس المصدر السابق ط ص .٤٣٥٤

- ثلاثة أصناف من الحيوان وهي: الإبل، والبقر، والغنم.
- صنفان من الحبوب هي: الحنطة، الشعير.
- صنفان من الثمر هما: التمر، الزبيب.

وجه الإعجاز الأول:

درجة الإلزام في تشريع الزكاة: ركن من أركان الإسلام.

الزكاة ركن من أركان الإسلام، وهذا جعلها في وعاء واحد مع الصلاة والصوم والحج التي هي بقية أركان الإسلام. ولا شك أن جعل الزكاة ركناً، وكذلك ربطها علىٰ النحو السابق يحدد درجة أهميتها وأنها علىٰ مستوى ما تربط به. يدخل أيضاً في تحديد درجة الأهمية أن القرآن الكريم يربط بين الزكاة والصلاة. ويدخل أيضاً درجة الإلزام الواقعة علىٰ الدولة في الزكاة إلىٰ حد أنها تحارب مانعيها.

تحديد الهدف من الزكاة يعطى معنى لدرجة الإلزام وبالتالي درجة الأهمية. الهدف من الزكاة هو تحقيق التكافل المادي بين المسلمين. وهو تكافل يعمل علىٰ مساحة واسعة تحددها مصارف الزكاة بحيث يمكن القول إن هذا التكافل يشمل كل أنواع الاحتياج.

يمكن القول إنه لا يوجد مجتمع آخر في العالم قديمه وحديثه قبل الإسلام أو بعده عرف نظاماً تجعل التكافل المادي بين أبنائه علىٰ هذه الدرجة من الإلزام التي يجعلها الإسلام.

بناء علىٰ ذلك يستنتج المعيار التالي للإعجاز في الزكاة وهو:

المعيار الأول: الزكاة معجزة من حيث درجة الإلزام والأهمية بما يجعلها أكفأ تشريع للتكافل الاجتماعي، أو المعيار الأول: جعل التكافل الاجتماعي ركناً من أركان الدين.

وجه الإعجاز الثاني:

الزكاة معجزة من حيث إنها تجعل التكافل الاجتماعي عبادة مالية الزكاة

عبادة مالية. نحاول أن نتعرف علىٰ ما إذا كان ذلك يتضمن وجه إعجاز. وكون الزكاة عبادة مالية فإن هذا له ارتباطه بأن الزكاة ركن من أركان الإسلام. الزكاة عبادة مالية تعنى الآتي:

١ ـ النية شرط من شروط الزكاة. هذه النية تقيم صلة بين مؤدى الزكاة والله ﷻ. إن المزكى يؤدى الزكاة بنية أن يعبد الله تعظيماً له وامتثالاً لأوامره. إنه يؤدى الزكاة بنية أنه يشكر الله ﷻ علىٰ نعمه التي أنعم بها عليه. إنه يؤدى الزكاة بنية أن يعبد الله بمساعدة عباد الله الذين أمر الله بإعانتهم، إنه يؤدى الزكاة بنية أن يطهر ويزكى المال الذي أنعم الله به عليه. النية في الزكاة واستصحابها في جميع أعمال الزكاة تجعل مؤدى الزكاة مع الله، والمعية الإلهية هي أرقى ما يتمنى الإنسان الحصول عليه، المعية الإلهية هي الحافظة للإنسان ولما له ولمجتمعه.

٢ ـ يؤدى المسلم الزكاة بنية أنه يعبد بها الله ﷻ. النية شرط من شروط الزكاة . علينا أن نستحضر عن الزكاة أنها تحويلات مالية من الأغنياء إلىٰ فئات تحتاج إلىٰ المساعدة. فرض الإسلام النية عند القيام بهذه التحويلات يستلزم أن يكون مؤدى الزكاة علىٰ وعى عميق واقتناع كامل بما يفعله وهو أنه يقوم بتحويل جزء من ثروته إلىٰ محتاجين للمساعدة. إن النية تجعل الإنسان يستحضر كل الحدث بأهدافه وبوسائله وبنتائجه. النية تقيم علاقة غير مرئية بين مؤدى الزكاة والمحتاجين إليها والمستفيدين منها. النية تجعل مؤدي الزكاة يستحضر أشكال المحتاجين وصورهم في بؤسهم وفي همومهم وفي ضعفهم، وتجعله يستحضر هؤلاء المحتاجين وهم في محيطهم الاجتماعي من حيث الذين تجب لهم نفقتهم وإعالتهم، ومن حيث مسئولية المستفيدين من الزكاة عن أبناء وبنات صغار وضعاف وعن غيرهم يسألون الله لهم أن يمكنوا من أول حق من حقوق الإنسان وهو حق الحياة. النية تجعل مؤدى الزكاة والمستفيد منها ينصهران ويمتزجان معا من حيث المسئولية والحياة المشتركة.

٣ ـ الزكاة عبادة مالية تلزم لها نية. المسلم يعبد الله بالزكاة كما يعبده بالصلاة. وكما يعبده بالصوم وكما يعبده بالحج. كون الزكاة عبادة فإن هذا يمزجها بكل العبادات في الإسلام. إن التعامل مع الزكاة بهذا الفهم يحقق وحدة العبادات في الإسلام.

هذه المعاني التي ترتبط بكون الزكاة عبادة مالية تمكن من استنباط أن من أوجه الإعجاز في الزكاة أنها عبادة مالية وهذا الوجه ألإعجازي يتأسس عليه المعيار ألإعجازي التالي:

المعيار الثاني: جعل التكافل الاجتماعي من العبادات التي أمر الله بها.

وجه الإعجاز الثالث:

طبيعة التشريع في وعاء الزكاة:

الزكاة لها جانبان، الجانب الأول الأموال التي تفرض عليها الزكاة وهو ما نعبر عنه بوعاء الزكاة، أما الجانب الثاني فهو مصارف الزكاة. تبين أن طبيعة التشريع في الوعاء جاءت علىٰ نحو إجمالي، بينما في المصارف جاءت علىٰ نحو مفصل. نحاول أن نحلل الأمر فيما يتعلق بوعاء الزكاة لنكتشف وجه الإعجاز في مجئ التشريع علىٰ هذا النحو الإجمالي.

طبيعة الحياة الاقتصادية أنها متطورة. وهذا التطور يجئ في الأنشطة الاقتصادية وفي أنواع الثروات وفي أشكال الدخول. ليتضح هذا الأمر نقترح مقارنة الحياة الاقتصادية بعناصرها الثلاث في الخمسين عاماً الماضية. تكشف هذه المقارنة عن تغييرات جوهرية عميقة جرت في حياتنا الاقتصادية.

إذ كانت المقارنة خلال الخمسين عاماً الماضية تكشف عن حجم التطور وبالتالي التغير فإن المقارنة بين ما كان عليه الواقع الاقتصادي في عصر الرسول ﷺ (عصر التشريع) وما عليه الواقع الاقتصادي في عصرنا ـ هذه المقارنة تكشف عن درجة أعمق في تطور الاقتصاد وتغيره.

بناء علىٰ هذا الفهم للواقع الاقتصادي فإنه لو حددت بالتفصيل الأموال التي تجب فيها الزكاة (وعاء الزكاة) فإنها كانت ستحدد حسب الأموال

الموجودة في عصر النبوة، بينما هذه الأموال لا تمثل إلا نسبة محدودة جداً في الحياة الاقتصادية المعاصرة من حيث الأنشطة والثروات والدخول. ولكن تشريع الزكاة من حيث الوعاء جاء علىٰ نحو إجمالي بحيث أن هذا الإجمال يسع مفردات أو وحدات جديدة. ومن المعروف أن الأموال التي تجب فيها هي التي يتحقق فيها الشروط الآتي: أنها أموال نامية، فحيثما تحقق هذا الشرط وجبت الزكاة بشروطها.

مجئ تشريع الزكاة من حيث الوعاء علىٰ هذا النحو الذي يستوعب التطور في الحياة الاقتصادية وبالتالي فإن هذا التشريع لا يحتاج إلىٰ تعديل ـ الأمر علىٰ هذا النحو وجه من وجوه الإعجاز التشريعي في الزكاة.

بناء علىٰ هذا الوجه الإعجازي يستنتج معيار من معايير إعجاز الزكاة وهو:

المعيار الثالث: استيعاب التطور والتغير في الحياة الاقتصادية من حيث الدخول والثروات والأنشطة الاقتصادية.

وجه الإعجاز الرابع:

المعيارية في وعاء الزكاة في عصر النبوة.

الأموال التي فرضت عليها الزكاة في عصر النبوة خمسة هي: الذهب والفضة، والزروع والثمار، وعروض التجارة، والثروة الحيوانية، والمعادن.

التحليل الاقتصادي لهذه الأموال الخمسة يكشف عن أنها تصنف في مجموعتين:

ـ ثروة سائلة.

ـ دخل من ثروة تحولت إلىٰ أصل رأسمالي منتج.

هذا التصنيف يسع الأموال الخمسة وذلك وفق التحليل التالي:

ـ زكاة الذهب والفضة هي ثروة سائلة.

ـ زكاة الزروع والثمار هي دخل من ثروة تحولت إلىٰ أصل رأسمالي منتج (الأرض).

- زكاة عروض التجارة علىٰ الأصول المتداولة وليست علىٰ الأصول الثابتة والأصول المتداولة ثروة سائلة.

- زكاة الثروة الحيوانية علىٰ السائمة وليست علىٰ العاملة والسائمة ثروة سائلة.

- زكاة المعادن ثروة سائلة تحولت من باطن الأرض إلىٰ ظاهرها.

يثبت التحليل الاقتصادي أن التصنيف الاقتصادي لوعاء الزكاة في عصر النبوة يستوعب كل ما يستجد من ثروات ودخول. ويتضح ذلك من الأمثلة الآتية:

- المصانع ثروة تحولت إلىٰ أصل رأسمالي منتج.

- العقارات التي تؤجر ثروة تحولت إلىٰ أصل رأسمالي منتج.

- شركات المواصلات والاتصالات ثروة تحولت إلىٰ أصل رأسمالي منتج.

- الأسهم والودائع التي تعطى أرباحاً ثروة تحولت إلىٰ أصل رأسمالي منتج.

إثبات أن كل ما يستجد من دخول وثروات يمكن تصنيفه حسب تصنيف أموال الزكاة في عصر النبوة فإن ذلك يعنى أنه يمكن قياس كل ما يستجد من دخول وثروات علىٰ وعاء الزكاة في عصر النبوة.

الأمر علىٰ هذا النحو يكشف عن وجه من وجوه الإعجاز التشريعي في الزكاة. وهو الزكاة معجزة من حيث المعيارية للأموال التي فرضت عليها في عصر النبوة . وهذا الوجه الإعجاز يؤسس عليه المعيار التالي:

المعيار الرابع: معيار وعاء الزكاة في عصر النبوة.

وجه الإعجاز الخامس:

جعل تشريع الزكاة يتضمن تلقائياً قيام مؤسسة الزكاة وتطورها المؤسسية في الزكاة موضوع يتسع المبحث فيه وتتعدد عناصره. العناصر التي يناقشها

هذا البحث عن هذا الموضوع هي التالية.

١ ـ من بين مصارف الزكاة مصرف العاملين عليها: فقه هذا المصرف يلزم بوجود مؤسسة للزكاة. ويستلزم هذا الفقه أيضاً العمل علىٰ رفع كفاءة العاملين علىٰ الزكاة في جميع التخصصات والتي منها الفقه والإدارة والمحاسبة والاقتصاد، وغير ذلك مما يلزم لتشغيل مؤسسة الزكاة بكفاءة ومتابعة التطوير اللازم.

٢ ـ تخصيص مصرف من مصارف الزكاة للعاملين عليها يحمل وجه إعجاز وذلك لأن هذا المصرف يعنى أن تشريع الزكاة ضمن آلياته قيام المؤسسة اللازمة لتطبيق هذا التشريع. هذا الأمر يحمل إعجازاً من حيث النظر الموضوعي وهو وجود مؤسسة، ويحمل إعجازاً من حيث النظر التاريخي عند نزول التشريع، ذلك أن العالم في ذلك الوقت لم يكن مستوعباً لأهمية المؤسسة كما نراها الآن، ويحمل إعجازاً كذلك من حيث التأطير المؤسسي للعمل التكافلي حيث لم تكن الدنيا بأسرها تعرف ذلك ولم تعرف التأطير المؤسسي للعمل التكافلي إلا حديثاً.

٣ ـ دور الدولة في الزكاة يدخل في عناصر المؤسسية فيها. مسئولية الدولة في الزكاة تصل إلىٰ حد أنها تحارب من أجلها. والحرب التي وقعت في خلافة أبي بكر رضي الله تعالىٰ عنه ضد مانعي الزكاة هي أول حرب في التاريخ تشنها الدولة ضد الأغنياء لصالح الفقراء. مع أن مسئولية الدولة عن الزكاة تصل إلىٰ هذا الحد إلا أن إيرادات الزكاة لا تخلط بإيرادات الدولة. وطوال التاريخ الإسلامي كان هناك بيت مال الزكاة والذي لاغلط بمال الدولة. الجمع بين الأمرين السابقين وهما مسئولية الدولة عن الزكاة إلىٰ حد الحرب من أجلها ومنع خلط إيرادات الزكاة بإيرادات الدولة ـ الأمر علىٰ هذا النحو فيه إعجاز تشريعي.

المناقشة السابقة عن المؤسسية في الزكاة من حيث فرضيتها وتطورها وكفاءتها واستقلالها تعطى معياراً من معايير الإعجاز التشريعي في الزكاة وهو:

المعيار الخامس: الأمثلية المؤسسية وجوداً واستقلالاً وتطويراً.

وجه الإعجاز السادس:

الشمول في استيعاب الأموال والأشخاص لتحقيق العدل مع مراعاة طاقة الملتزم وتأمين ضرورياته.

الزكاة من حيث وعائها تمثل التزامًا يقع علىٰ أموال ويعطى إيراداً وتحليل هذا الجانب يعرف بالتحليل المالي للزكاة. من حيث هذا الجانب فإن فقه الزكاة يتضمن العناصر التالية:

١ ـ **عنصر الشمول في الوعاء:** الأموال والأشخاص: تفرض الزكاة علىٰ المال النامي وبهذا العنصر يستوعب وعاء الزكاة كل أنواع الأموال في المجتمع التي تتوافر فيها خاصية النماء، وهذا نوع من الشمول. عنصر آخر من عناصر الشمول في الزكاة يتعلق بمن تجب عليه، الزكاة عبادة ولهذا يشترط فيها النية وكان يتوقع بسبب أنها عبادة ألا تفرض إلا علىٰ المكلف ولكن الزكاة عبادة مالية، وبسبب العنصر المالي فإن الزكاة تفرض علىٰ كل الأشخاص حتى ولو كانوا غير مكلفين وذلك مع مراعاة الشروط التي تجب بها الزكاة.

٢ ـ **عنصر الطاقة الزكوية:** يقصد بهذا العنصر مقدرة المكلف بالزكاة علىٰ أدائها. وهذا المصطلح مستعار من علم المالية العامة حيث يتكلم فيه عن الطاقة الضريبية. يدخل في عنصر الطاقة الزكوية ما يتعلق بالمعدلات التي تفرض بها الزكاة. تفرض الزكاة علىٰ الثروة السائلة المكتنزة بمعدل ٢,٥%، ونفس المعدل علىٰ عروض التجارة. أما الزكاة علىٰ الأموال النامية حقيقة، أي المستثمرة، أي التي أصبحت أصولاً رأسمالية منتجة فتفرض بمعدل ٥% علىٰ إجمال الدخل أو العائد أو بمعدل ١٠% علىٰ صافي الدخل أو العائد. الزكاة بهذه المعدلات لا تمثل عبأً، بل إنها في حدود الطاقة.

٣ ـ **عنصر الحصيلة:** مع أن المعدلات التي تفرض بها الزكاة منخفضة وفي حدود الطاقة إلا أن حصيلة الزكاة حسب التقديرات التي عملت عنها تكون كبيرة. والسبب في ذلك هو عنصر الشمول في الزكاة من حيث الأموال ومن حيث الأشخاص.

٤ ـ **عنصر النصاب**: لا تفرض الزكاة إلا بعد امتلاك النصاب، وفكرة النصاب في حد ذاتها تعتبر من عناصر العدالة التي ترفع من الكفاءة المالية. فإذا أضيف إلىٰ مجرد وجود فكرة النصاب ما يتعلق بمقدار النصاب فإننا نجد عنصراً آخر من عناصر الكفاءة المالية. نصاب الذهب(وهو نصاب النقود) يقدر بحوالي ٨٥ جرام من الذهب، المبلغ يمثل النصاب لنوع واحد من الأموال التي يمكن أن يمتلكها الشخص، وقد تكون له ممتلكات من أنواع أخرى من الأموال ويكون لها نصابها. فإذا أضيف إلىٰ ذلك أن نصاب النقود هو النصاب في عروض التجارة وفي غيرها من الأموال المشابهة وأيضاً إذا أضيف أن هذا المبلغ يمكن أن يكون بداية حد توفير ما يلزم للإنسان، وبعبارة أخرى حد الاستغناء عن مساعدة الآخرين ـ إذا أضيف كل هذا إلىٰ ما يتعلق بالنصاب فإنه يثبت للزكاة عنصر تفوق من حيث العدالة وبالتالي من حيث الكفاءة المالية.

من المناقشة السابقة عن بعض العناصر التي ندخل في الكفاءة المالية فإنه يستنتج المعيار التالي:

المعيار السادس: الكفاءة المالية من حيث العدالة بين الملتزمين وتأمين ضرورياتهم.

وجه الإعجاز السابع:

الإعجاز في التدفق المستمر الإيرادات الزكاة (يومية الإيرادات).

بعض الأموال التي تفرض عليها الزكاة يعتبر فيها الحول، بينما أموال أخرى تجب الزكاة فيها بمجرد الحصول عليها نحاول البحث أن يتعرف علىٰ طبيعة الحولية وطبيعة فرض الزكاة بمجرد الحصول علىٰ الدخل وذلك بهدف محدد هو معرفة طبيعة تدفق إيرادات الزكاة.

١ ـ في الأموال التي يلزم لها الحول يحسب الحول بمجرد امتلاك النصاب، فإذا امتلك النصاب في أول المحرم تجب الزكاة بعد عام من هذا التاريخ، وإذا امتلكه في الثاني من المحرم تجب الزكاة بعد عام من هذا

التاريخ... وهكذا. لو أخذنا مجتمعاً به ملايين من المسلمين فإنه يمكن قبول أنه في كل يوم سوف يكتمل النصاب عند أشخاص وبالتالي سيكون هناك كل يوم زكاة.

٢ ـ في الأموال التي تجب فيها الزكاة بمجرد الحصول عليها مثل الزروع والثمار فإن المحاصيل الزراعية التي تفرض الزكاة عليها متنوعة زمانياً. يعنى ذلك أنه سوف يكون هناك تدفق إيرادات باستمرار.

٣ ـ في زكاة عروض التجارة نفس الشيء، وفي زكاة النشاط الصناعي نفس الشيء، وفي زكاة الثروة العقارية المستغلة نفس الشيء.

النتيجة التي نستنتجها مما سبق هي أن هناك تدفق مستمر لإيرادات الزكاة. بل يمكن القول إن هناك تدفق يومي لإيرادات الزكاة. الربط بين هذا الأمر وهو التدفق اليومي المستمر لإيرادات الزكاة وهدفها يكشف عن وجه إعجاز. إن هدف الزكاة يتحقق في المساعدة علىٰ الحياة وعلىٰ استمرارها للفئات الثمانية المذكورة في آية مصارف الزكاة وهي قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠] .

هدف المساعدة علىٰ الحياة وعلىٰ استمرارها يظهر في كل يوم ولا يحتمل التأجيل. لذلك جاء تشريع الزكاة علىٰ نحو يواجه هذه الحاجات اليومية.

نحاول أن نتعرف أكثر علىٰ هذا الوجه ألاعجازي بالإحالة إلىٰ النظم المالية التي وضعها الإنسان، إنها تخضع لما يعرف باسم الاعتماد السنوي للميزانية. في مصر علىٰ سبيل المثال يعمل بالميزانية في أول يوليو من كل عام. ولذلك فإنه قد يحتاج لنفقات في شهور أبريل ومايو ويونيو التي تمثل الشهور الأخيرة في العام المالي ولكن قد يقال لا توجد اعتمادات والبند قد نفد. ويكون المطلوب هو الانتظار لأول يوليو حيث يعمل بميزانية جديدة.

الحاجات الحياتية التي تغطى من الزكاة لا تحتمل أن يقال بشأنها أن البند قد نفد. هذا يشرح معنى الإعجاز في التدفق اليومي المستمر لإيرادات الزكاة.

هذا الوجه ألإعجازي في الزكاة يتأكد عندما نضيف الآتي:

الزكاة تجمع حتى ولو لم يوجد محتاج. هذا الأمر متفق عليه فقهاً.

بناء علىٰ المناقشة التي قدمت عن الوجه ألإعجازي الذي نتحدث عنه. نستنتج معيار من معايير الإعجاز في الزكاة.

المعيار السابع: التدفق اليومي للإيرادات ليواجه احتياجات التكافل الاجتماعي التي تستجد يومياً.

وجه الإعجاز الثامن:

توافر العينية والنقدية في الزكاة بحيث تستوعب وترشد كل التصرفات الممكنة من المستفيدين وتؤسس لكل السياسات المحتملة للمساعدات الاجتماعية تفرض الزكاة علىٰ أنواع من الأموال. تحصل الزكاة من بعضها عيناً ونحصل من البعض الآخر نقداً. الاقتصادات المعاصرة ذات طبيعة نقدية. التعامل مع الأفراد يتم نقداً، وكذا التعامل مع الدولة. في هذا الصدد يشار إلىٰ أن التعامل العيني كان له وجود في الماضي وقد عرف ذلك في صورة المقايضة، وأيضاً كانت للدولة إيراداتها العينية.

قد يعتقد أن العينية في الزكاة لا تتلاءم مع الاقتصاد المعاصر ذي الطبيعة النقدية. بصدد هذا الأمر فإن المبحث يعرض ما يلي:

١ ـ الزكاة فيها ما هو عيني وفيها ما هو نقدي ويجيز الفقه أن تؤدى الزكاة نقداً بدلاً من أدائها عيناً من الأموال التي تكون زكاتها عينية وذلك للحاجة أو المصلحة الراجحة.

وفي هذا المطلب عن الإعجاز التشريعي في وعاء الزكاة نرتبط بشيء جديد هو أن نحاول أن نتعرف علىٰ الدلالة الإعجازية التي تحملها العينية في الزكاة.

٢ ـ تعطى الزكاة لمصارف ثمانية منها الفقير والمسكين. تحليل سلوك الفقير (عند جمع الفقر والمسكنة معا) يجعل إعطاءه بعض المساعدات في صورة عينية أكثر ملائمة. المساعدة النقدية للفقير قد تيسر له أن ينفقها في غير احتياجاته الضرورية له ولأسرته، إنه قد ينفقها في شراء مكيفات مثل السجائر

أو ما هو أسوأ من ذلك. هذا سلوك متوقع في مثل هذه الحالات. المساعدة العينية في هذه الحالات أكثر أمناً للشخص المحتاج ولأسرته ولمجتمعه.

٣ ـ إعطاء مساعدات في صورة عينية له تطبيقاته في المجتمعات المعاصرة، سواء المجتمعات التي تصنف علىٰ أنها متقدمة أو المجتمعات التي تصنف علىٰ أنها نامية. هذا واقع قائم لا يمكن إنكاره. وليست مساعدات علىٰ مستوى الأفراد بل أيضاً مساعدات علىٰ مستوى جهاز الدولة ومساعدات بين الدول، وهذا الأمر الأخير معروف. يعنى ذلك أن المجتمعات المعاصرة التي اصطبغت بصبغة نقدية رأت في العينية في مجال المساعدات الاجتماعية كفاءة وملائمة لم تجدهما في النقدية.

٤ ـ المناقشة علىٰ هذا النحو تقودنا إلىٰ اكتشاف أحد أوجه الإعجاز التشريعي في وعاء الزكاة وهو وجه يتعلق بالعينية. العينية في بعض إيرادات الزكاة تؤدى وظيفة تعجز النقدية عن أن تؤديها. ومن هنا يكون تشريع الزكاة الذي يجمع بين العينية والنقدية معجزاً لأنه يستوعب كل الاحتياجات تحت أي تطور يمر به الإنسان وتمر به المجتمعات.

بناء علىٰ المناقشة السابقة فإنه يستنتج المعيار التالي من معايير الإعجاز في تشريع الزكاة من حيث الوعاء.

المعيار الثامن: توافر العينية والنقدية لاستيعاب كل تصرفات المستفيدين من التكافل وكذلك استيعاب كل سياسات القائمين عليه.

وجه الإعجاز التاسع:

الزكاة معجزة من حيث كفاءتها الاقتصادية تبين من تحليل فرض الزكاة علىٰ الثروات والدخول ما يلي:

١ ـ تفرض الزكاة علىٰ الثروات المكتنزة، الزكاة تفرض علىٰ عين هذه الثروة وتؤدى منها. يعنى ذلك أن هذه الثروة العاطلة تتآكل لأنها لم تكن في خدمة مالكها ولم تؤد وظيفة إيجابية لمجتمعها بحيث تسهم في تقدمه وسد احتياجاته.

٢ ـ الثروات التي تحولت إلىٰ أصول رأسمالية منتجة لا تفرض الزكاة علىٰ عينها وإنما تفرض علىٰ الدخل الذي يتولد منها. الأمر علىٰ هذا النحو فيه حفظ للثروات التي أصبحت أصولاً منتجه وبالتالي أصبحت في خدمة صاحبها وخدمة مجتمعها. هذا الأمر في أعلا درجات الكفاءة الاقتصادية لأنه يحافظ علىٰ الأصول المنتجة في المجتمع فلا يجبر صاحبها علىٰ بيعها ليؤدى الزكاة المفروضة عليها.

٣ ـ دخل الفرد يتوزع علىٰ الاستهلاك وعلىٰ الادخار، هذه هي الحالة العادية. التصرف الصحيح هو أن يتحول الادخار إلىٰ استثمارات، وهذا ما يرتبط به الاقتصاديون. تحويل الادخار إلىٰ استثمارات يؤمن الهدفين اللذين يقوم عليهما الاقتصاد وهما تقدم المجتمع واستقراره. فرض الزكاة علىٰ الثروة المكتنزة يعنى أنها تفرض علىٰ الادخارات (دخل تحول إلىٰ ثروة) التي لم توجه إلىٰ الاستثمار. الزكاة من هذا الجانب تحقق مطالب المجتمع علىٰ الادخار من حيث دفعها إلىٰ الاستثمار وما يتضمنه ذلك من كفاءة اقتصادية. ولا شك أن مصلحة الفرد صاحب الادخار تتحقق بطريقة مباشرة له وكذلك من حيث تحقيق مصلحة المجتمع.

هذه المناقشة تقود إلىٰ استنتاج معيار من معايير الإعجاز في الزكاة وهو:

المعيار التاسع: الكفاءة الاقتصادية من حيث التأثير الإيجابي في المتغيرات الاقتصادية المعنية وهي الادخار والاستثمار وحماية الأصول الرأسمالية المنتجة.

وجه الإعجاز العاشر:

الزكاة حددت التشريع المعياري للتكافل الاجتماعي.

تضمنت الصفحات السابقة تسعة أوجه للإعجاز التشريعي في وعاء الزكاة. عند تحليل هذه الأوجه الإعجازية التسعة فإنه يتبين أنها اشتملت علىٰ العناصر التالية:

١ ـ درجة الإلزام.

٢ ـ عبادة مالية.

٣ ـ استيعاب كل التطورات.

٤ ـ المعيارية للقياس عليها.

٥ ـ الأمثلية المؤسسية.

٦ ـ العدالة مع الأشخاص وفي الأموال.

٧ ـ تدفق الإيرادات الملائم للتكافل الاجتماعي.

٨ ـ الكفاءة المالية.

٩ ـ الكفاءة الاقتصادية.

الزكاة تعلمنا أن التشريع الذي يستهدف تحقيق التكافل الاجتماعي يجب أن تتوافر فيه العناصر السابقة. وهذه العناصر هي التي أسست عليها المعايير التسعة التي ذكرت. وهي تستوعب كل ما يمكن وجوده في تشريع يستهدف التكافل الاجتماعي.

المطلب الثالث: الإعجاز التشريعي في فرضية الصيام:

الفرع الأول: التأصيل الشرعي للصوم:

كتب الله تعالىٰ صيام شهر رمضان علىٰ أمة محمد ﷺ وجعله الركن الرابع من أركان الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] ، وأوضح الله تعالىٰ في كتابه أن هذا الحكم ليس من مما اختصت به هذه الأمة المحمدية، فهو حكم افترضه تعالىٰ علينا وعلىٰ الأمم من قبلنا، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البَقَرَة: ١٨٣] .

يقول ابن كثير: "يقول تعالىٰ مخاطباً للمؤمنين من هذه الآية وآمراً لهم بالصيام، وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله ﷻ لما

فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه علىٰ من كان قبلهم فلهم فيه أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨] (١).

ولم يقتصر الأمر علىٰ صيام الفرض، فقد جاءت النصوص العديدة لحث المؤمنين علىٰ صيام النوافل علىٰ مدار العام، وجاء التأكيد علىٰ هذا المعنى في مواعيد دورية كالاثنين والخميس من كل أسبوع، والأيام البيض من كل شهر، والستة الأيام من شوال كل عام، ويوم عرفة وعاشوراء، وما هذا إلا لبيان أهمية هذه العبادة. وقد اشتمل الصيام علىٰ العديد من الفوائد والحِكم سواءاً كانت بدنية أو روحية أو اجتماعية. وسنحاول في هذا المبحث أن نستعرض جملة من هذه الفوائد؛ لإظهار عظمة التشريع الإسلامي، وللتأكيد علىٰ أهمية هذه العبادة العظيمة.

ومن الأحاديث في ذلك ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«بني الإسلام علىٰ خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج وصوم رمضان»** (٢).

ومن الأحاديث التي ترغب في الصيام عموماً ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله ﷻ: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به. والصيام جُنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني صائم. والذي نفس محمد بيده لخُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه»** (٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٨٩.

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٢، برقم: ٨، وصحيح مسلم ١/ ٤٥، برقم: ١٦.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٦٧٣، برقم: ١٨٠٥، وصحيح مسلم ٢/ ٨٠٦، برقم: ١١٥١.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً»**[١]

الفرع الثاني: تعريف الصيام:

الصيام في اللغة: هو الإمساك والامتناع، قال القرطبي: "ومعناه في اللغة: الإمساك وترك التنقل من حال إلىٰ حال"[٢].

والصيام في الشرع: الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس، وتمامه وكماله باجتناب المحظورات وعدم الوقوع في المحرمات[٣].

وقد جاء في فضل الصيام ـ بنوعيه الفريضة والنافلة ـ الكثير من النصوص لا مجال هنا لذكرها.

الفرع الثالث: يسر الصيام الإسلامي وسهولته:

تشير الدراسات العلمية المحققة في وظائف أعضاء الجسم أثناء مراحل التجويع، إلىٰ يسر الصيام الإسلامي وسهولته، تحقيقاً لقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] وفي تفسير الآية قال الرازي: "إن الله تعالىٰ أوجب الصوم علىٰ سبيل السهولة واليسر، وما أوجبه إلا في مدة قليلة من السنة، ثم ما أوجب هذا القليل علىٰ المريض ولا علىٰ المسافر"[٤].

كما يتجلى يسر الصيام الإسلامي في إمداد الجسم بجميع احتياجاته الغذائية، وعدم حرمانه من كل ما هو لازم ومفيد له، فالإنسان في هذا الصيام، يمتنع عن الطعام والشراب فترة زمنية محدودة، من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس، وله حرية المطعم والمشرب من جميع الأغذية والأشربة المباحة ليلاً،

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٠٤٤، برقم: ٢٦٨٥، وصحيح مسلم ٢/ ٨٠٨، برقم: ١١٥٣.

(٢) تفسير القرطبي ٢/ ٢٦٩، فتح القدير للشوكاني ١/ ٢٧٧.

(٣) تفسير القرطبي ٢/ ٢٦٩.

(٤) تفسير الرازي ٣/ ١٠٥.

ويعتبر الصيام الإسلامي بهذا تغييراً لمواعيد تناول الطعام والشراب فحسب، فلم يفرض الله سبحانه الانقطاع الكلي عن الطعام لمدد طويلة، أو حتى لمدة يوم وليلة، تيسيراً وتخفيفاً علىٰ أمة خاتم الأنبياء ﷺ وقد تجلى هذا اليسر بعد تقدم وسائل المعرفة والتقنية في هذا العصر. فقد قسمت المراجع الطبية التجويع إلىٰ ثلاث مراحل: مرحلة مبكرة، ومتوسطة، وطويلة الأجل.

وتقع المرحلة المبكرة بعد نهاية فترة امتصاص آخر وجبة (أي بعد حوالي٥ ساعات من الأكل) وحتى نهاية فترة ما بعد الامتصاص والتي تتراوح مدتها حوالي ١٢ ساعة، وقد تمتد إلىٰ ٤٠ ساعة عند بعض العلماء، في هذه الفترة يقع الصيام الإسلامي كما يقع في فترة امتصاص الغذاء، وهذه الفترة من الانقطاع عن الطعام آمنة تماماً بالمقاييس العلمية، فالجلوكوز هو الوقود الوحيد للمخ، والدهون لا تتأكسد بالقدر الذي يولد أجساماً كيتونية بالدم أثناء هذه الفترة، كما لا يستهلك البروتين في إنتاج الطاقة بالقدر الذي يحدث خللاً في التوازن النتروجيني في الجسم. مما حدا ببعض العلماء أن يسقط فترة ما بعد الامتصاص من مراحل التجويع أصلاً، وهذه الحقيقة تجعل الصيام الإسلامي متفرداً في يسره وسهولته عكس مراحل التجويع الأخرى[(١)].

ومن خلال عرض الحقائق السابقة، ندرك أن مدة الصيام الإسلامي والتي تتراوح من ١٢ ـ ١٦ ساعة في المتوسط، يقع جزء منها في فترة الامتصاص، ويقع معظمها في فترة ما بعد الامتصاص، ويتوفر فيها تنشيط جميع آليات الامتصاص والاستقلاب بتوازن، فتنشط آلية تحلل الجليكوجين، وأكسدة الدهون، وتحللها وتحلل البروتين، وتكوين الجلوكوز الجديد منه، ولا يحدث للجسم البشري أي خلل في أي وظيفة من وظائفه، فلا تتأكسد الدهون بالقدر الذي يولد أجساماً كيتونية تضر بالجسم، ولا يحدث توازن نيتروجيني سلبي لتوازن استقلاب البروتين، ويعتمد المخ البشري، وخلايا الدم الحمراء، والجهاز

---

(١) من أوجه الإعجاز العلمي في الصيام، للدكتور عبد الجواد الصاوي، نقلاً عن:

http//:www.nooran.org/0/1/104.htm

العصبي، علىٰ الجلوكوز وحده للحصول منه علىٰ الطاقة بينما التجويع أو الصيام الطبي ـ القصير والطويل منه ـ لا يقف عند تنشيط هذه الآليات، بل يشتد حتى يحدث خللاً في بعض وظائف الجسم. يعتبر الصيام الإسلامي تمثيلاً غذائياً فريداً، إذ يشتمل علىٰ مرحلتي البناء والهدم، فبعد وجبتي الإفطار والسحور، يبدأ البناء للمركبات الهامة في الخلايا، وتجديد المواد المختزنة، والتي استهلكت في إنتاج الطاقة، وبعد فترة امتصاص وجبة السحور، يبدأ الهدم، فيتحلل المخزون الغذائي من الجليكوجين والدهون، ليمد الجسم بالطاقة اللازمة، أثناء الحركة والنشاط في نهار الصيام؛ لذلك كان تأكيد النبي ﷺ وحثه علىٰ ضرورة تناول وجبة السحور، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تسحروا فإن في السحور بركة**»[(١)].

وذلك لإمداد الجسم بوجبة بناء تستمر لمدة ٤ ساعات، محسوبة من زمن الانقطاع عن الطعام، وبهذا أيضاً يمكن تقليص فترة ما بعد الامتصاص إلىٰ أقل زمن ممكن، كما أن النبي ﷺ حث علىٰ تعجيل الفطر حيث قال ﷺ: «**لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر**»[(٢)].

وتأخير السحور فقد روى عن زيد بن ثابت ﷺ قال: "تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلىٰ الصلاة، قيل: كم كان بينهما؟ قال خمسون آية"[(٣)].

وهذا من شأنه تقليص فترة الصيام أيضاً إلىٰ أقل حد ممكن، حتى لا يتجاوز فترة ما بعد الامتصاص ما أمكن، وبالتالي فإن الصيام الإسلامي لا يسبب شدة، ولا يشكل ضغطاً نفسياً ضاراً علىٰ الجسم البشري، بحال من الأحوال. وبناء علىٰ هذه الحقائق يمكننا أن نؤكد أن الذي يتوقف أثناء الصيام، هو عمليات الهضم والامتصاص، وليست عمليات التغذية، فخلايا الجسم تعمل بصورة طبيعية، وتحصل علىٰ جميع احتياجاتها اللازمة لها، من

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٦٧٨، برقم: ١٨٢٣، وصحيح مسلم ٢/ ٧٧٠، برقم: ١٠٩٥.
(٢) صحيح البخاري ٢/ ٦٩٢، وصحيح مسلم ٢/ ٧٧١، برقم: ١٠٩٨.
(٣) صحيح البخاري ٢/ ٦٧٨، برقم: ١٨٢١، وصحيح مسلم ٢/ ٧٧١، برقم: ١٠٩٧.

هذا المخزون بعد تحلله، والذي يعتبر هضماً داخل الخلية، فيتحول الجليكوجين إلىٰ سكر الجلوكوز، والدسم والبروتينات إلىٰ أحماض دهنية وأحماض أمينية، بفعل شبكة معقدة من الإنزيمات، والتفاعلات الكيمائية الحيوية الدقيقة، والتي يقف الإنسان أمامها مشدوهاً معترفاً بجلال الله وعلمه، وعظيم قدرته وإحكام صنعه[١].

الفرع الرابع: الصيام حاجة فطرية وظاهرة حيوية:

يعتبر العلماء الصوم ظاهرة حيوية فطرية لا تستمر الحياة السوية والصحة الكاملة بدونها. وإن أي مخلوق لابد وأن يصاب بالأمراض التي يعاف فيها الطعام إذا لم يصم من تلقاء نفسه، وهنا تتجلى المعجزة الإلهية بتشريع هذه العبادة، فالصيام يساعد العضوية علىٰ التكيف مع أقل ما يمكن من الغذاء مع مزاولة حياة طبيعية، كما أن العلوم الطبية العصرية أثبتت أن الصوم وقاية وشفاء لكثير من أخطر أمراض العصر، فمع قلة كمية الطعام الوارد إلىٰ الأمعاء يقل ضغط البطن علىٰ الصدر؛ فينتظم التنفس ويعمل بصورة أكثر راحةً وانسجاماً، إذ تتمدد الرئتان دون عوائق، ويقل العبء الملقى علىٰ القلب فتقل ضرباته؛ لعدم الحاجة إلىٰ بذل ذلك الجهد الكبير لدفع الدم إلىٰ الجهاز الهضمي للعمل علىٰ هضم تلك الكميات الهائلة من الطعام. وقبل كل شيء فإن الجهاز الهضمي يحصل علىٰ الراحة اللازمة لتجديد أنسجته التالفة، وحيويته التامة، كما أن قلة نواتج التمثيل الغذائي وفضلاته تسمح بفترة راحة لجهاز الإفراغ ـ الكلى ـ فتجدد بها نشاطها وتجبر ضعفها، وبذا يكون الصوم فرصة ذهبية للعضوية لاستعادة توازنها الحيوي وتجديد نفسها بنفسها. وقد أكد البروفيسور نيكولايف بيلوي من موسكو في كتابه "الجوع من أجل الصحة ١٩٧٦م": أن علىٰ كل إنسان ـ وخاصة سكان المدن الكبرى ـ أن يمارس الصوم بالامتناع عن الطعام لمدة ٣ أو ٤ أسابيع كل سنة كي يتمتع

---

(١) من أوجه الإعجاز العلمي في الصيام، للدكتور عبد الجواد الصاوي، نقلاً عن

http//:www.nooran.org/0/1/104.htm

بالصحة الكاملة طيلة حياته[1].

أما (ماك فادون) ـ من علماء الصحة الأمريكيين ـ فيقول: إن كل إنسان يحتاج إلىٰ الصوم وإن لم يكن مريضاً؛ لأن سموم الأغذية تجتمع في الجسم فتجعله كالمريض فتثقله ويقل نشاطه، فإذا صام خف وزنه وتحللت هذه السموم من جسمه وتذهب عنه حتى يصفو صفاءًا تاماً، ويستطيع أن يسترد وزنه ويجدد خلاياه في مدة لا تزيد عن ٢٠ يوماً بعد الإفطار، لكنه يحس بنشاط وقوة لا عهد له بهما من قبل. وقد كان (ماك فادون) يعالج مرضاه بالصوم وخاصة المصابين بأمراض المعدة وكان يقول: فالصوم لها مثل العصا السحرية، يسارع في شفائها، وتليها أمراض الدم والعروق فالروماتيزم. . . .

أما (الكسيس كاريل) الحائز علىٰ جائزة نوبل في الطب فيقول في كتابه (الإنسان ذلك المجهول): إن كثرة وجبات الطعام ووفرتها تعطل وظيفة أدت دوراً عظيماً في بقاء الأجناس الحيوانية وهي وظيفة التكيف علىٰ قلة الطعام، ولذلك كان الناس يصومون علىٰ مر العصور، وإن الأديان كافة لا تفتأ تدعو الناس إلىٰ وجوب الصيام والحرمان من الطعام لفترات محدودة، إذ يحدث في أول الأمر شعور بالجوع ويحدث أحياناً تهيج عصبي ثم يعقب ذلك شعور بالضعف، بيد أنه يحدث إلىٰ جانب ذلك ظواهر خفية أهم بكثير، فإن سكر الكبد يتحرك ويتحرك معه أيضاً الدهن المخزون تحت الجلد، وتضحّي جميع الأعضاء بمادتها الخاصة من أجل الإبقاء علىٰ كمال الوسط الداخلي وسلامة القلب، وإن الصوم لينظف ويبدل أنسجتنا. والصوم الذي يقول به (كاريل) يطابق تماماً الصوم الإسلامي من حيث الإمساك فهو يغير من نظام الوجبات الغذائية ويقلل كميتها[2].

وقد سئل أحد المعمرين وهو (ميشيل أنجلو) عن سر صحته الجيدة وتمتعه بنشاط غير عادي بعد أن تجاوز الستين من عمره فقال: "إن السبب

---

(١) الفوائد الصيام الصحية، للدكتور محمد نزار الدقر، نقلاً عن موقع: www.55a.net

(٢) المرجع السابق.

في احتفاظي بالصحة والقوة والنشاط إلىٰ اليوم هو أني كنت أمارس الصوم من حين لآخر". ويرى الدكتور محمد سعيد السيوطي أن الصيام الحق يمنع تراكم المواد السمّية الضارة كحمض البول والبولة وفوسفات الأمونياك والمغنيزا في الدم وما تؤدي إليه من تراكمات مؤذية في المفاصل والكلى ـ الحصى البولية ـ، ويقي من داء الملوك ـ النقرس ـ، وينقل الدكتور محمد سعيد أيضاً أبحاث الغرب في أن الصيام ليوم واحد يطهر الجسم من فضلات عشرة أيام، وهكذا فإن شهر الصيام يطهر الجسم من فضلات وسموم عشرة أشهر علىٰ الأقل. ومن هنا نرى الحكمة من أن النبي ﷺ أمر بصيام ستة أيام من شوال؛ وذلك حتى تكتمل عملية التنظيف، وأردفه وزاد عليه أياماً معدودات من كل شهر لكمال الحيطة[1].

ويكتب الدكتور إبراهيم الراوي عن أثر الصيام علىٰ القدرات الفكرية عند الإنسان فيقول: "يؤثر الصيام في تنشيط الخلايا الدماغية التي تضاعف حيويتها لتوقف نشاط الجهاز الهضمي فيندفع الدم بغزارة إلىٰ أنسجة المخ لتغذية تلافيفه، وتزويد الحُجَر الدماغية بالغذاء الأمثل لعملها.

نعم، إن المخ البشري يحتوي علىٰ ١٥ ألف مليون خلية ألهمتها القدرة الإلهية قابليات خارقة علىٰ التفكير والتعمق في المسائل المعقدة وحلها، وتزداد هذه القابليات مع زيادة ورود الدم إليها؛ وهكذا نرى أصحاب العقول المفكرة يصومون كل فترة لتجديد نشاط أدمغتهم"[2].

ويتفق الباحثون علىٰ أهمية الصوم الحيوية من ناحية أن تخزين المواد الضرورية في البدن من فيتامينات وحوامض أمينية يجب ألا يستمر زمناً طويلاً، فهي مواد تفقد حيويتها مع طول مدة التخزين؛ لذا يجب إخراجها من (المخزن) ومن ثم استخدامها قبل أن تفسد. وهكذا فإن الجسم بحاجة من فترة لأخرى إلىٰ فرصة لإخراج مخزونه من المواد الحيوية قبل تفككها

---

(١) الفوائد الصيام الصحية، للدكتور محمد نزار الدقر، نقلاً عن موقع: www.55a.net

(٢) المرجع السابق.

وتلفها. وهذه الفرصة لا تتاح إلا في الصوم، وبالصوم وحده يتمكن الجسم من تحريك مخزونه الحيوي واستهلاكه قبل فوات أوانه، ومن ثم يقوم بتجديده بعد الإفطار. وقد بيّن (ألن سوري Alain Saury) قيمة الصوم في تجديد حيوية الجسم ونشاطه ولو كان في حالة المرض، وأورد حالات عدد من المسنين، تجاوزت أعمارهم السبعين، استطاعوا بفضل الصوم استرجاع نشاطهم وحيويتهم الجسمانية والنفسانية حتى أن عدداً منهم استطاع العودة إلىٰ مزاولة عمله الصناعي أو الزراعي كما كان يفعل في السابق نسبياً. ولقد قام عدد من الباحثين الغربيين، ومنذ أواخر القرن الماضي، بدراسة آثار الصوم علىٰ البدن منهم هالبروك Holbrook الذي قال: ليس الصوم بلعبة سحرية عابرة، بل هو اليقين والضمان الوحيد من أجل صحة جيدة. وفي أوائل هذا القرن قام الدكتور دووي Dewey بأبحاث موضوعية عن الصوم لخصها في كتابه (الصوم الذي يشفي). كما قامت مناظرات عديدة تناقش هذا الموضوع لعل أهمها مناظرة Ecosse التي جمعت مشاهير الأطباء البريطانيين والمهتمين بتقويم الصحة وتدبير الطعام، كان علىٰ رأسهم طبيب الملك ويلكوكس Wilcox وقد أجمع الحاضرون علىٰ أهمية تأثير (الصوم الصحي) علىٰ عضوية الإنسان[١].

الفرع الخامس:لمحة غريزية عن الصيام:

الصيام هو حرمان البدن من المواد الغذائية ليوم أو أكثر. وقد دلت التجارب علىٰ أن حرمان الماء أشد تأثيراً من حرمان الغذاء، فالإنسان يعيش قرابة شهر إذا أعطي الماء فقط، ويحصل الجسم علىٰ الطاقة أثناء الصيام من مدخراته السكرية أولاً والتي تكون علىٰ شكل جلكوجين مدخرة في الكبد والعضلات، وهذه تصرف خلال الأولى من الصيام، وبعد ذلك يلجأ البدن إلىٰ مدخراته الشحمية، إلا أنه لا يستهلك الداخل منها في تركيب الخلايا الأساسية مطلقاً مهما طال أمد الصيام، ثم يعمد الجسم بعد ذلك إلىٰ تجميع

---

(١) المرجع السابق.

المواد الناجمة عن هذه العملية ويعيد استعمالها لاستخراج الطاقة ولصيانة الأعضاء والأنسجة الحيوية أثناء الصوم.

وفي الصيام المديد، وبعد أن يستهلك البدن مدخراته من الجلوكوجين والشحوم، عند ذلك يلجأ إلىٰ أكسدة المواد البروتينية ويحولها إلىٰ سكر لتأمين ما يلزمه من الطاقة، وهذا يعني تخريبه للنسج البروتينية المكونة للحم العضلات وما يلحق من جراء ذلك من أذى بيّن يلحق الأعضاء المعنية (ويدعو العلماء عملية إذابة المدخرات الدهنية ومن ثم بروتينات الجسم بعملية الانحلال الذاتي Autolyze ويستخدم فيها البدن العديد من الخمائر).

وإن الحرمان الشديد يؤدي إلىٰ ظهور اضطرابات غذائية عصبية في الدماغ المتوسط مما يؤثر علىٰ الغدد الصماء وعلىٰ السلوك والانفعال النفسي.

ومن هنا نرى أهمية كون الصيام الإسلامي مؤقتاً من الفجر إلىٰ الغروب دون تحريم لنوع ما من الأغذية مع طلب الاعتدال وعدم الإسراف في الطعام في فترة الإفطار. وقد سجل درينيك Dreanik ومساعدوه ١٩٦٤م عدداً من المضاعفات الخطيرة من جراء استمرار الصيام لأكثر من ٣١ ـ ٤٠ يوماً.

وتتضح هنا المعجزة النبوية بالنهي عن الوصال في الصوم، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: "نهى رسول الله ﷺ عن الوصال، قالوا: إنك تواصل، قال: **«إني لست مثلكم إني أُطعم وأُسقى»**[(١)].

قال النووي: "اتفق أصحابنا علىٰ النهي عن الوصال، وهو صوم يومين فصاعداً من غير أكل وشرب بينهما"[(٢)]، وعن ابن عمرو أن النبي ﷺ قال: **«لا صام من صام الدهر»**[(٣)].

وقد غضب رسول الله ﷺ عندما بلغه أن بعض المسلمين قرروا اعتزال

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٦٩٣، برقم: ١٨٦١، وصحيح مسلم ٢/ ٧٧٤، برقم: ١١٠٢.

(٢) شرح النووي علىٰ مسلم ٧/ ٢١١.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٦٩٨، برقم: ١٨٧٨، وصحيح مسلم ٢/ ٨١٢، برقم: ١١٥٩، بلفظ: «لا صام من صام الأبد».

النساء وصوم الدهر فقال: «أما والله إني أخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١).

الفرع السادس:الصيام والأبحاث العلمية الحديثة:

مع هذه النهضة العلمية الحديثة في مجال الطب ظهرت العديد من الأبحاث العلمية التي تؤكد علىٰ أهمية الصيام ومدى حاجة الجسم له، وكشفت عن العديد من الفوائد الصحية للصيام سواءاً كان ذلك في الجانب الوقائي أو الجانب العلاجي، وسنحاول أن نعطي لمحة موجزة عن أهم ما توصل إليه العلم الحديث في ذلك:

١ـ الصيام ومرضى السكري:

مما أثبتته الأبحاث الطبية الحديثة أن الصيام لا يشكل خطراً علىٰ معظم مرضي السكري، إن لم يكن يفيد الكثيرين منهم، ففي بحث أجراه الدكتور رياض سليماني وزملاؤه في كلية الطب بمستشفى الملك خالد الجامعي عام ١٩٩٠م حول تأثير صيام رمضان علىٰ التحكم في مرض السكري عند ٤٧ من مرضى النوع الثاني، وعند مجموعة من الأشخاص الذين لا يعانون من هذا المرض، وتم تحديد وزن الجسم، والبروتين السكري، وخضاب الدم السكري، قبل رمضان وفور انتهائه، عند كل من المجموعتين. وتم قياس البروتين السكري (Glycosylated Protein) عند ٩ من مرضى السكري، وقد لوحظ أنه لم يطرأ أي تغير علىٰ الوزن عند هؤلاء المرضى إذ كان قبل رمضان (٧٥,٢ + ١٢,٨) مقابل (٧٥,١ + ١٢,٤)كلجم بعده، كما لم يطرأ تغير علىٰ خضاب الدم السكري (Glycosylated Hemoglobin) إذ كان قبل رمضان (١٠,٩ + ٣,١) في مقابل (١٠,٥ + ٢,٨) مجم/ ١٠٠مل بعده، ولم يطرأ تغير علىٰ البروتين السكري (Glycosylated Protein) حيث كان (١,١٩ + ٠,٣٥) مقابل (١٠١٧ + ٠,٣٩) ملجم/ ١٠٠ بعد انتهاء صيام رمضان.

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ١٩٤٩، برقم: ٤٧٧٦، وصحيح مسلم ٢/ ١٠٢٠، برقم: ١٤٠١.

أما في المجموعة التي لا يعاني أفرادها من مرض السكري؛ فقد لوحظ انخفاض هام في وزنهم خلال الصيام (٧٤,٢ + ١٠,٤) كجم مقابل (٧٢,٥ + ٢،١٠) كجم، بيد أنه لم يسجل أي تغيير يذكر في خضاب الدم السكري (Glycosylated Hemoglobin)، واستنتج الباحثون من ذلك أن صيام شهر رمضان لا يسبب أي فقدان هام في وزن الجسم، وليس له أي أثر يذكر علىٰ التحكم في مرض السكري لدى مرضى النوع الثاني[(١)].

كما قام الدكتور ألفونشو(Olufonsho) وزملاؤه بكلية الطب مستشفى الملك خالد الجامعي بالرياض عام ١٩٩٠م بتوزيع استبيان علىٰ ٢٠٣ من مرضى السكري (٨٩ من الذكور وَ١١٤ من الإناث) وذلك لتقويم مفاهيمهم ومواقفهم وممارساتهم خلال شهر رمضان. وقد قام أكثر هؤلاء (٨٩%) بصيام رمضان، وكان أقل نسبة للصيام (٧٢%) عند من هم دون سن الخامسة والعشرين، اعترف ١٢% فقط بأنهم يتناولون قدراً أكبر من الطعام في رمضان، بينما ذكر عدد أكبر منهم (٢٧%) أنهم يستهلكون قدراً أكبر من الحلويات، وذكر أكثر من الثلث (٣٧%) أن نشاطهم الجسمي يقل في رمضان، كما أن ضعف هذا النشاط كان أكثر شيوعاً لدى أولئك الذين لم يصوموا رمضان (٦١%) منه لدى الذين صاموه (٣٥%)، وأعرب عدد كبير (٥٩%) أنهم شعروا بتحسن صحتهم خلال شهر رمضان، ولم يتردد علىٰ المستشفيات في حالات طارئة سوى (٥، ٦%) منهم، في حين لم تتجاوز نسبة من دخلوا المستشفى بسبب مرض السكري (٥%) أما بالنسبة للأشخاص الذين لم يصوموا، فقد كانت هذه النتائج أقل إيجابية، إذ أعرب (١٠%) منهم فقط عن تحسن الصحة، فيما ارتفعت المراجعات الطارئة للمستشفى (١٥%)، وبلغ حالات دخول المستشفى (١٥%).

وكان هناك اعتقاد سائد لدى (٧٥% من المرضى) بأن صيام شهر رمضان يؤدي إلىٰ تحسن الصحة، وكان هذا الشعور قوياً لدى المرضى الذين صاموا

---

(١) الصيام والشفاء للدكتور عبد الجواد الصاوي، نقلاً عن موقع: http//: nooran.org

الشهر (٨٠%) مقابل المرض الذين أفطروه (٢٦%). وقد أظهرت الدراسة أن معظم مرضى السكري يفضلون صيام شهر رمضان، وأنهم يعتقدون أن لذلك أثراً إيجابياً علىٰ مرضهم[١].

وقد أثبت باربر (Barber SG) وزملاؤه سنة ١٩٧٩م في برمنجهام أن هناك تغيراً قليلاً في تحكم مرض السكري عند المسلمين الصائمين، وأن عدد المرضى المراجعين لعيادات السكر قد تناقص، ولا توجد زيادة في معدل احتجاز مرضى السكري المرتفع وغير المتحكم فيه داخل المستشفى خلال شهر رمضان. وقد قام خوقير وزملاؤه سنة ١٩٨٧م بدراسة شملت ٥٢ مريضاً من مرضى السكري، ٢٠ منهم يعتمدون علىٰ الأنسولين في العلاج، و٣٢ منهم لا يعتمدون علىٰ الأنسولين، وقد وجد أن ١٥ مريضاً من الذين لا يعتمدون علىٰ الأنسولين قل وزنهم وانخفضت مستويات السكر (Glucose Levels) لديهم بعد الصيام عنه قبل أن يصوموا، كما قلت جرعة الأنسولين بنسبة ١٠% عن المعتاد عند المجموعة التي تعتمد علىٰ الأنسولين في العلاج، وقل وزن سبعة منهم، بينما ارتفع معدل السكر عند باقي المجموعة، لذلك نصح الباحثون بعناية خاصة لهؤلاء المرضى إذا أرادوا أن يصوموا كل أيام شهر رمضان، ولا حرج عليهم بعد ذلك[٢].

أما مرضى السكري الذين ينصحون بعدم الصيام فقد حددتهم دراسة التقويم الشامل الذي أجراه الدكتور سليماني وزملاؤه عن مرض السكري وصيام رمضان سنة ١٩٨٨م وهم كالتالي:

١ ـ المرضى المعرضون لزيادة الأجسام الكيتونية في دمائهم.

٢ ـ المرضى الذين يعانون من تأرجح كبير وسرعة تغير في مستوى الجلوكوز لديهم.

٣ ـ الحوامل.

---

(١) الصيام والشفاء للدكتور عبد الجواد الصاوي، نقلاً عن موقع: http//: nooran.org

(٢) المرجع السابق.

٤ ـ الأطفال المصابون بمرض السكري.

٥ ـ مرضى السكري الذين يعانون من مضاعفات مرضية خطيرة مثل الفشل الكلوي أو الذبحة الصدرية.

٦ ـ مرضى السكري الذين يعانون من أمراض خطيرة مثل التسمم الدموي الشديد (Sever sepsis)، أو فشل القلب الاحتقاني(Congestive Heart Failure).

ويسمح بالصيام لباقي المرضى، وكذلك المرضى الذين يتقبلون النصائح الطبية، ويشجع الصيام للمرضى البدينين من النوع الثاني الذين لا يعتمدون علىٰ الأنسولين ماعدا الحوامل منهن والمرضعات اللاتي لديهن السكر ثابت مع زيادة في الوزن فوق ٢٠% من الوزن المثالي.

والخلاصة: أن معظم الأبحاث تشير إلىٰ أن صيام شهر رمضان لمرضى السكر آمن من الناحية الصحية طالما كان هناك وعي وضبط غذائي ودوائي[١].

٢ـ قرحة المعدة:

يعدل الصيام الإسلامي ارتفاع حموضية المعدة، وبالتالي يساعد في التئام قرحة المعدة مع العلاج المناسب. وقد أجرى الباحثون (معظم وعلىٰ وحسين ١٩٦٣م) دراسة كان الهدف منها التعرف علىٰ تأثير صيام شهر رمضان علىٰ حموضية المعدة (زيادة الحموضة وقلتها)، وقد وجد الباحثون أن الحموضية في المعدة اعتدلت (Isochlorhydria) عند كل من المرضى الذين يعانون من قلة الحموضية (Hypochlorhydria) أو زيادتها (Hyperchlorhydria)، مما يؤكد أن صيام شهر رمضان يخفف ويمنع حدوث الحموضة الزائدة، والتي تكون سبباً رئيسياً في حدوث قرحة المعدة[٢].

---

(١) الصيام والشفاء للدكتور عبد الجواد الصاوي، نقلاً عن موقع: http//: nooran.org

(٢) المرجع السابق.

- **أمراض الأوعية الدموية الطرفية:**

عالج الصيام عدداً من الأمراض الناتجة عن السمنة: كمرض تصلب الشرايين، وضغط الدم، وبعض أمراض القلب. كما يساعد في علاج بعض أمراض الدورة الدموية الطرفية، فهناك أمراض عديدة تصيب الأوعية الدموية الطرفية، والتي تبدو أن لها علاقة بنشاط الجهاز العصبي الودي (السمبثاوي) الزائد في نهايات الشرايين الدموية (Arterioles)، ويعتبر مرض الرينود (Raynoud's Disease) أحد هذه الأمراض، حيث تنقبض فيه عضلات جدر الشرايين الدقيقة انقباضاً ذاتياً شديداً، مسببة آلاماً مبرحة، وتهجم هذه الآلام عند التعرض للبرد، أو الضغط العصبي، ولو استمر المرض لعدة سنوات فقد يؤدي إلىٰ فقدان الأطراف، ولعلاج هذا المرض يمنع التعرض للبرد ما أمكن، ويتحاشى التدخين، ويعطى المريض بعض الأدوية كموسعات للأوعية الدموية، كما يستأصل العصب السمبثاوي الموضعي المغذي للأطراف، ويتحاشى التعرض للضغوط العصبية والنفسية. وهناك مرض آخر (Buerger's Disease) من نفس هذا النوع، يؤثر علىٰ الشرايين والأوردة الطرفية، والتدخين ينشط هذا المرض ويزيده سوءاً، وعند منع التدخين يتحسن المريض تحسناً ملحوظاً، وقد يحتاج بعض المرضى إلىٰ استئصال العصب الودي (السمبثاوي) المغذي للأطراف، وأحياناً يحتاج هذا المريض إلىٰ بتر أطرافه لو استمر في التدخين. وقد ذكر الدكتور صباح الباقر في دراسة له سنة ١٩٩١م أن الصيام الإسلامي يؤدي دوراً هاماً في علاج أمراض الأوعية الدموية الدقيقة، ولخص هذا الدور في النقطتين التاليتين:

١ - تحريم التدخين أثناء ساعات الصيام يقدم خدمة جليلة في علاج المرض.

٢ - لا يشكل الصيام أي مشقة أو ضغط علىٰ الجسم بل علىٰ العكس، فإنه يعتبر عاملاً مهدئاً، حيث تزداد العوامل المنشطة للإيمان في الصلاة والذكر وقراءة القرآن.

وخلص الدكتور الباقر إلىٰ أن تثبيط الجهاز العصبي الودي (السمبثاوي) أثناء الصيام يلغي العامل الثاني المسبب للمرض، وبالتالي تظهر فائدة الصيام الإسلامي في الشفاء من مثل هذه الأمراض[1].

٤ـ الصيام ومرضى الجهاز البولي:

كان وما زال الأطباء يعتقدون أن الصيام يؤثر علىٰ مرض المسالك البولية، وخصوصاً الذين يعانون من تكون الحصيات، أو الذين يعانون من فشل كلوي، فينصحون مرضاهم بالفطر، وتناول كميات كبيرة من السوائل. وقد ثبت خلاف ذلك، إذ ربما كان الصيام سبباً في عدم تكون بعض الحصيات، وإذابة بعض الأملاح، ولم يؤثر الصيام مطلقاً حتى علىٰ من يعانون من أخطر أمراض الجهاز البولي، وهو مرض الفشل الكلوي مع الغسيل المتكرر. وقد أجرى الدكتور فاهم عبد الرحيم وزملاؤه بكلية طب الأزهر ١٩٨٦م بحثاً عن تأثير صيام شهر رمضان علىٰ عمل وظائف الكليتين عند الأشخاص العاديين، وعند المرضى المصابين ببعض أمراض الجهاز البولي، أو بمرض تكون الحصى الكلوي (RenaI caIcuIi)، وشملت الدراسة عشرة من مرضى الجهاز البولي، وخمسة عشر مريضاً بالحصى، بالإضافة إلىٰ عشرة أشخاص عاديين للمقارنة، وتم خلال كل من فترتي الصيام والإفطار أخذ عينات من البول وتحليلها لمعرفة نسبة الكالسيوم، والصوديوم، والبوتاسيوم، واليوريا، والكرياتينين، والحامض البولي. وكانت نتيجة تأثير الصيام علىٰ هذه العناصر علىٰ النحو التالي:

حدث نقص هام في حجم البول، وزيادة في كثافته النوعية، لدى كل المجموعات التي شملتها الدراسة، وحدثت تغيرات طفيفة جداً في مكونات المصل من الكالسيوم، والصوديوم، والبوتاسيوم، والحامض البولي، والكرياتينين، واليوريا لدى الجميع، وحدثت زيادة طفيفة في الكالسيوم في البول لدى الجميع، وعليه فقد كان التغير الحاصل في عناصر المصل لدى

---

(١) الصيام والشفاء للدكتور عبد الجواد الصاوي، نقلاً عن موقع: http//: nooran.org

كل المجموعات التي شملتها الدراسة طفيفاً عديم الأهمية، بيد أن التغيرات التي طرأت علىٰ مكونات البول خلال الصيام قد تمنع تكون الحصى، نظراً لنقص الكالسيوم في البول، وزيادة الصوديوم والبوتاسيوم، التي كانت نسبتها أكبر لدى من يعانون من الحصى، ولدى المصابين بأمراض الجهاز البولي. وقد استنتج الباحثون من ذلك أن الصيام لم يؤثر سلبياً علىٰ مجموعات المرضى الذين شملتهم هذه الدراسة، والذين يعانون إما من تكون الحصى في الكلية، أومن أمراض الجهاز البولي، فضلاً عن التأثير المحتمل للصيام في منع تكون حصيات الكلى، وهذا عكس ما هو شائع عند الأطباء وغيرهم، إذ أن زيادة الكثافة النوعية للبول ترجع إلىٰ زيادة إفراز البولة التي تكون ٨٠% من المواد المذابة في البول، والبولينا مادة غروية تنتشر فتساعد علىٰ عدم ترسب أملاح البول التي تكون حصيات المسالك البولية.كما أجرى قادر وزملاؤه سنة ١٩٨٨م دراسة علىٰ المرضى الذين يعيشون علىٰ غسيل كلوي مزمن، ويصومون شهر رمضان، وأثبتوا أنه لا يوجد تغير يذكر في نسبة اليوريا، والكرياتينين، والصوديوم، والبيكربونات، والفوسفور والكالسيوم، ولكن وجد ارتفاع ملحوظ في نسبة البوتاسيوم في الدم، وعزا الباحثون ذلك إلىٰ تناول المشروبات الغنية بالبوتاسيوم بعد الإفطار(١).

٥. الصيام وتجلط الدم:

كان يعتقد أن الفقدان النسبي لسوائل الجسم، وانخفاض عدد ضربات القلب، وزيادة الإجهاد أثناء الصوم، يؤثر تأثيراً سلبياً علىٰ التحكم في منع تجلط الدم، وهو من أخطر الأمراض، وقد ثبت أن الصيام الإسلامي لا يؤثر علىٰ ذلك في المرضى الذين يتناولون الجرعات المحددة من العلاج. فقد أجرى الدكتور جلال ساعور أستاذ الأمراض الباطنية بمستشفى الملك فيصل التخصصي (١٩٩٠م) بحثاً عن تأثير الصيام علىٰ مرضى القلب الذين يتناولون علاجاً مضاداً لتجلط الدم، وقد كتب الدكتور ملخصاً لبحثه فقال:

---

(١) الصيام والشفاء للدكتور عبد الجواد الصاوي، نقلاً عن موقع: http//: nooran.org

"تقبل الغالبية العظمى من المسلمين علىٰ صيام شهر رمضان كل سنة، ويترتب علىٰ الصيام حدوث تغيرات رئيسية في النشاط الجسمي وأنماط النوم، فضلاً عن تغير أوقات تناول الطعام والشراب، ونوعه، وكميته، وعليه فمن الممكن أن يؤثر الصيام تأثيراً سلبياً علىٰ التحكم في منع التجلط من خلال الفقدان النسبي لسوائل الجسم، وانخفاض النتاج القلبي، وزيادة الإجهاد، ولزوجة الدم، فضلاً عن التغيرات التي تطرأ علىٰ امتصاص الأدوية واستقبالها، وفي الفترة الواقعة بين ١٩٨١م إلىٰ ١٩٨٥م تم فحص ما مجموعه ٢٨٩ مريضاً في عيادة منع تخثر الدم بمستشفى الملك فيصل التخصصي، تلقى ٢٤٧ مريضاً منهم العلاج المضاد لتجلط الدم، نظراً لحالة القلب لديهم، و٤٢ نظراً للتجلط الشديد في الأوردة، مع الانسداد الرئوي أو بدونه. وفي فترة العلاج (٤ سنوات) صام عدد ١٠٦ من هؤلاء المرضى ما مجموعه ٣٠٩ شهراً رمضانياً[١].

ولم يصم عدد ١٨٣ منهم ما مجموعه ٥٩٤ شهراً. ولوحظ أن حدوث مضاعفات الانسداد ألتجلطي والنزيف متماثلة في المجموعتين، وكان متوسط الجرعة من (الوارفارين) اللازمة لإحداث أفضل تأثير لمنع التجلط في المجموعتين خلال شهر رمضان متماثلا: ٦,٥ + ٢,١ ملجم مقابل ٧,٦ + ٢,٢ ملجم، ومنذ عام ١٩٨٦م، أخذنا ننصح مرضانا الذين يتناولون علاجاً ضد التجلط عن طريق الفم، بأنه لا ضرر من صومهم شهر رمضان، وقام خلال هذه الفترة (٢٧٧) مريضاً يحملون صمامات بديلة بصيام ما مجموعه ١٠٥٤ شهراً، ولم تظهر علىٰ أي منهم في هذه الفترة مضاعفات الانسداد التجلطي"[٢].

٦ـ الصيام والإخصاب:

يحسن الصيام خصوبة المرأة والرجل علىٰ السواء، فقد أجرى الدكتور

---

(١) عدد أشهر الصيام المحسوبة هنا هي مجموع الشهور التي صامها جميع هؤلاء الصائمين (١٠٦) خلال فترة الاختبار (٤ سنوات) فمنهم من صام ٤ أشهر ومنهم من صام ثلاثة أو اثنين، وهكذا..، وبالمقابل المفطرين أيضا، فهي مجموع الشهور التي أفطروها جميعا خلال فترة الاختبار.

(٢) المرجع السابق.

سمير عباس والدكتور عبد الله باسلامة بكلية الطب جامعة الملك عبد العزيز ١٩٨٦م دراسة علىٰ واحد وعشرين شخصًا، ثمانية منهم أصحاء، وعشرة يعانون من نقص المنويات (oligospermia)، وثلاثة ليست لديهم منويات، وأخذت منهم عينات من الدم، والمني، في خلال شهر شعبان، ورمضان، وشوال، لتحليل المني، والهرمونات التالية: (التيستوستيرون Testosterone)، و(البرولاكتين Prolactin)، و(الهرمون الملوتن L. H)، و(الهرمون المنبه للجريب H.S.F)، وذلك لمعرفة تأثير صيام شهر رمضان علىٰ خصوبة الرجل، وقد أظهرت نتائج البحث أن هناك تغيرات حيوية بين الأشخاص الطبيعيين، حيث يتحسن أداء هرمون الذكورة (Testosterone)، لكن لم يحصل في مستواه أي ارتفاع حيوي خلال الأشهر الثلاثة من البحث، كما أن حجم المني، والعدد الكلي للمنويات، ازداد ازدياداً ملحوظاً أثناء شهر الصيام، ولاحظ الباحثان من إحصائيات المستشفى الجامعي أن عدد حالات الحمل تصل إلىٰ معدل كبير في شهر شوال، كما وجد أن هناك تحسناً في نسبة المنويات الحية، وانخفاضاً في نسبة المنويات الميتة أثناء شهر الصيام، كما أن الهرمون المنبه للجريب (H.S.F) يزداد ازدياداً ملحوظاً خلال شهر رمضان مقارنة بمستواه قبل وبعد الصيام في الأشخاص الطبيعيين، ويقل عن شهر شوال في الأشخاص الذين يعانون من نقص المنويات أو انعدامها، وهذا الهرمون له علاقة بتصنيع المركبات الاستيرويدية في نسيج الخصية، كما يمكن أن يعزى التغير في مستوى التيستوستيرون إلىٰ التغير في مستوى هذا الهرمون؛ لأن الهرمون الملوتن (H.L) ازداد زيادة ملحوظة أثناء الصيام، ونقص بعده في الأشخاص الطبيعيين، كما أنه لم تسجل له أي تغيرات هامة عند الأشخاص المرضى بنقص المنويات، وحدث نقص هام عند المرضى بانعدام المنويات، وهذا الهرمون له علاقة بتكون المنويات الحية في الخصية، كما سجلت زيادة في البرولاكتين أثناء وبعد رمضان عند الأشخاص الطبيعيين، ونقص بعد الصيام عند المرضى بقلة المنويات، وارتفاع عال عند المرضى بانعدام المنويات،

بالمقارنة مع المجموعات الأخرى، وهذا الهرمون له تأثير مثبط على تكون الإندروجين الناتج من الخصية. وخلص الباحثان إلى أن للصيام أثراً مفيداً في تكون المنويات، إما عن طريق محور التأثير الهرموني Hypothalamus - pituitary testicular، أو عن طريق التأثير المباشر على الخصيتين[١].

٧ـ الصيام وجهاز المناعة:

أجرى الدكتور رياض البيبي والدكتور أحمد القاضي في الولايات المتحدة الأمريكية تجارب مخبرية على متطوعين أثناء صيام شهر رمضان، وأجريت لهم تحليلات الدم قبل بداية الصيام، وأثناء الشهر، وبعد انتهاء الصيام، وشملت الفحوص التحليلات الكيميائية للدم، بما في ذلك تحديد نسبة البروتينات الشحمية (Lipoproteins)، إضافة إلى فحوص متخصصة لتقويم كفاءة جهاز المناعة في الجسم، وقد شملت الفحوصات تحديد عدد الخلايا الليمفاوية في الدم (Lymphocytes)، ونسبة أنواعها المختلفة بعضها إلى بعض، ومدى حسن أداء كل منها، هذا إضافة إلى قياس نسبة الأجسام المضادة في الدم (Antibodies)، وقد أظهرت هذه التجارب أثراً إيجابياً واضحاً للصيام على جهاز المناعة في الجسم، حيث تحسن المؤشر الوظيفي للخلايا اللمفاوية عشرة أضعاف، وبالرغم من أن العدد الكلي للخلايا اللمفاوية لم يتغير إلا أن نسبة النوع المسئول عن مقاومة الأمراض خلايا (ت) ازداد كثيراً بالنسبة إلى الأنواع الأخرى، هذا بالإضافة إلى ارتفاع محدود في أحد فصائل البروتين في الدم (IGE)، وهو أحد أعضاء مجموعة البروتينات المكونة للأجسام المضادة في الدم، وكانت التغيرات التي طرأت على البروتين ألدهني على شكل زيادة في النوع منخفض الكثافة (LDL)، دون أي زيادة في النوع عالي الكثافة (HDL)، وهذا نمط له تأثير منشط على الردود المناعية[٢].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الصيام والشفاء للدكتور عبد الجواد الصاوي، نقلاً عن موقع: http//: nooran.org

٨ـ الصيام وهرمونات الغدة الدرقية:

أجرى الدكتور رياض سليماني عام ١٩٨٨م دراسة تناولت أثر صيام شهر رمضان علىٰ عمل الغدة الدرقية، وجرى في الدراسة تحديد مستوى كل من ثيروكسين البلازما (Plasma Thyroxin: T4)، والثيروكسين الحر، والثيرونين ثلاثي اليود (Triiodo Thyroxin: T3)، والهرمون المنشط للغدة الدرقية (TSH)، عند ٢٨ من الذكور الأصحاء قبل رمضان وبعده، كما تمت دراسة آثار الامتناع عن تناول الطعام علىٰ المدى القصير من بزوغ الفجر إلىٰ غروب الشمس، ولم تسجل أية اختلافات هامة في اختبارات عمل الغدة الدرقية بين هذه المستويات في الصباح والمساء (بعد فترة صيام لمدة ١٤ ساعة). ولم تظهر بالإضافة إلىٰ ذلك أية اختلافات هامة في نتائج اختبارات الغدة الدرقية، التي أجريت قبل رمضان وفي نهايته، واستنتج الباحث أن صيام شهر رمضان من قبل رجال يتمتعون بصحة جيدة لم يغير النسب القياسية لعمل الغدة الدرقية[١].

٩ـ الصيام وهرمونات المرأة:

أجرى الدكتور حسن نصرت والدكتور منصور سليمان، بجامعة الملك عبد العزيز ١٩٨٧م بحثاً حول تأثير صيام رمضان علىٰ مستوى البرجستيرون والبرولاكتين في مصل الدم لنساء صحيحات تتراوح أعمارهن بين ٢٢ ـ ٢٥ عاماً، لتحديد مدى تأثير صيام رمضان علىٰ فسيولوجيا الخصوبة عند المرأة، وقد أظهرت النتائج أن ٨٠٪ قد نقص عندهن مستوى البرولاكتين في المصل، ولم يتغير مستوى البرجستيرون، وقد نصح الباحثان المرضعات بالإفطار، وهذا البحث يؤكد أهمية الصوم لعلاج العقم عند المرأة المتسبب من زيادة هرمون البرولاكتين، فحينما ينقص بالصيام تتهيأ المرأة لحالتها الطبيعية في الخصوبة. كما يعالج الصيام كثيراً من الأمراض التي تنشأ من تراكم السموم والفضلات الضارة في الجسم، ولا يسبب الصيام أي خطر

---

(١) المرجع السابق.

علىٰ المرضعات أو الحوامل، ولا يغير من التركيب الكيميائي، أو التبدلات الاستقلابية في الجسم عند المرضعات، وخلال الشهور الأولى والمتوسطة من الحمل[١].

١٠ـ الصيام والسمنة:

يؤدى الإفراط في تناول الطعام والشراب إلىٰ زيادة الوزن، وما يتتج عن ذلك من مضاعفات مرضية، مثل ارتفاع ضغط الدم وتصلب الشرايين، والتهابات الحويصلة المرارية بالخ، وينصح الأطباء كل من يرغب في إنقاص وزنه أن يتبع نظاماً معيناً، خلاصته: الإقلال من النشويات والسكريات، والأملاح والدهون، مع الإكثار من الخضروات والبروتينات، وممارسة أبسط أنواع الرياضة ألا وهي المشي، وعلىٰ ذلك يكون الصيام من أهم العوامل التي تساعد علىٰ إنقاص الوزن، بشرط عدم الإسراف في وجبتي الإفطار والسحور وما بينهما[٢].

وإنه من المعتقد أن السمنة كما قد تنتج عن خلل في تمثيل الغذاء، فقد تتسبب عن ضغوط بيئية أو نفسية أو اجتماعية، وقد تتضافر هذه العوامل جميعاً في حدوثها، وقد يؤدي الاضطراب النفسي إلىٰ خلل في التمثيل الغذائي، وكل هذه العوامل التي يمكن أن تنجم عنها السمنة، يمكن الوقاية منها بالصوم من خلال الاستقرار النفسي والعقلي الذي يتحقق بالصوم نتيجة الجو الإيماني الذي يحيط بالصائم، وكثرة العبادة والذكر، وقراءة القرآن، والبعد عن الانفعال والتوتر، وضبط النوازع والرغبات، وتوجيه الطاقات النفسية والجسمية توجيهاً إيجابياً نافعاً[٣].

---

(١) الصيام والشفاء للدكتور عبد الجواد الصاوي، نقلاً عن موقع: http//: nooran.org

(٢) الصيام بين الفقه والطب، للدكتور محمد السقا عيد، نقلاً عن: www.55a.net

(٣) من أوجه الإعجاز العلمي في الصيام، للدكتور عبد الجواد الصاوي، نقلاً عن موقع:

http//:www.nooran.org/01/1/04htm

١١ـ الصيام والثورة الجنسية:

يخفف الصيام ويهدئ ثورة الغريزة الجنسية، وخصوصاً عند الشباب، وبذلك يقي الجسم من الاضطرابات النفسية والجسمية، والانحرافات السلوكية، وذلك تحقيقاً للإعجاز في حديث النبي ﷺ **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»**[(١)].

فإذا التزم الشاب الصيام وأكثر منه وذلك لقوله النبي ﷺ **«فعليه بالصوم» أي فليكثر من الصوم، وقد وجد أن الإكثار من الصوم مع الاعتدال في الطعام والشراب، وبذل الجهد المعتاد يقترب من الصيام المتواصل، ويجني الشاب فائدته في تثبيط غرائزه المتأججة بيسر، وهنا يتجلى بوضوح الإعجاز في قول النبي** ﷺ **«فإنه له وجاء»** من وجهين:

الأول: الإشارة إلىٰ أن الخصيتين هما مكان إنتاج عوامل الإثارة الجنسية، حيث إن معنى الوجاء أن ترض أنثيا الفحل (خصيتاه) رضاً شديداً، يذهب شهوة الجماع، ويتنزل في قطعه منزلة الخصي[(٢)].

وقد ثبت أن في الخصيتين خلايا متخصصة في إنتاج هرمون التيستوستيرون (Testosterone) وهو الهرمون المحرك والمثير للرغبة الجنسية، وأن قطع الخصيتين (الخصي) يذهب هذه الرغبة، ويخمدها تماماً.

الثاني: أن الإكثار من الصوم مثبط للرغبة الجنسية وكابح لها، وقد ثبت هبوط مستوى هرمون الذكورة (التيستوستيرون) بشكل كبير أثناء الصيام المتواصل، بل وبعد إعادة التغذية بثلاثة أيام، ثم ارتفع ارتفاعاً كبيراً بعد ذلك، وهذا يؤكد أن الصيام له القدرة علىٰ كبح الرغبة الجنسية مع تحسينها بعد ذلك، وهذا يؤكد فائدة الصوم في زيادة الخصوبة عند الرجل بعد الإفطار[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه في الحاشية رقم: ١٣.

(٢) لسان العرب ١/ ١٩٠.

(٣) من أوجه الإعجاز العلمي في الصيام، للدكتور عبد الجواد الصاوي، نقلاً عن موقع:

http//:www.nooran.org/01/1/04htm

١٢ـ الصيام والأمراض الجلدية:

يقول الأستاذ الدكتور محمد الظواهري ـ أستاذ الأمراض الجلدية ـ إن كرم رمضان يشمل مرضى الأمراض الجلدية، إذ يتحسن بعض هذه الأمراض بالصوم، ويتأتى هذا من أن هناك علاقة متينة بين الغذاء وإصابة الإنسان بالأمراض الجلدية، إذ أن الامتناع عن الطعام والشراب مدة ما تقلل من الماء في الجسم والدم وهذا بدوره يدعو إلىٰ قلته في الجلد، وحينئذ تزداد مقاومة الجلد للأمراض المعدية والمكيروبية، ومقاومة الجلد في علاج الأمراض المعدية هي العامل الأول الذي يعتمد عليه في سرعة الشفاء، وقلة الماء في الجلد أيضاً تقلل من حدة الأمراض الجلدية الالتهابية والحادة والمنتشرة بمساحات كبيرة في الجسم. كما أن قلة الطعام تؤدي إلىٰ نقص الكمية التي تصل إلىٰ الأمعاء، هذا بدوره يريحها من تكاثر الميكروبات الكامنة بها، وما أكثرها، عندئذ يقل نشاط تلك الميكروبات المعدية ويقل إفرازها للسموم وبالتالي يقل امتصاص تلك السموم من الأمعاء، وهذه السموم تسبب العديد من الأمراض الجلدية، والأمعاء ما هي إلا بؤرة خطرة من البؤر العفنة التي تشع سمومها عند كثير من الناس، وتؤذى الجسم والجلد وتسبب لهما أمراضاً لا حصر لها.. شهر رمضان هو هدنة للراحة من تلك السموم وأضرارها، ويعالج الصيام أيضاً أمراض البشرة الدهنية وأمراض زيادة الحساسية، وقد جاء في كتاب «الصوم والنفس» للدكتور فائق الجوهري، ما نصه: "إن الصوم من وجهة النظر الصحيحة وسيلة لتطهير الجسم مما يحتمل أن يكون به من زيادات في السموم الضارة، أو غذاء لا لزوم له، ونحن نجده في الموسوعات الطبية، تحت باب العلاج بالغذاء"[(١)].

بجاني كل ما مضى فهو دعوة للتآلف والمحبة والمودة والعطف علىٰ الفقراء.من فطر فيه صائما كان له من الأجر مثل أجره دوت أن ينقص ذلك من أجره شيئا.

---

(١) الصيام بين الفقه والطب، للدكتور محمد السقا عيد.

وجه الإعجاز:

رأينا مما سبق الفوائد العظيمة للصيام، والتي أصبحت محل اتفاق بين الأطباء والمختصين في شؤون الصحة، وعلمنا السر في تحديد شهر كامل للصيام بدون انقطاع ـ علىٰ جهة الوجوب ـ، وإتباعه بست من الشهر الذي يليه؛ حتى يتخلص الجسم من كل السموم والفضلات المخزونة فيه، وكيف أن «**الصيام جُنة**»، ووقاية من الأمراض، بل فيه زيادة ورفع لمستوى المناعة في الجسم، وأن هذا الصيام محدود بوقت وهو من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس، من وصال حتى تتحقق الفائدة من دون إلحاق أي ضرر علىٰ الجسم، كل هذه المعاني تشهد بأن هذا التشريع هو تشريع محكم معجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو تشريع إلهي راعى المصلحة ودفع المفسدة، إنه بحق من عند الله تعالىٰ ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾ [النساء: ١٦٦].



المبحث الثاني

الإعجاز التشريعي في الحفاظ على النفس

وفيه ثلاثة مطالب:

من ضروريات الحياة الإنسانية: عصمة النفس وصون حق الحياة.

وقد شرع الإسلام عدة وسائل للمحافظة على النفس:

أ ـ من جهة الوجود: شرع الزواج من أجل التناسل والتكاثر وإيجاد النفوس لتعمر العالم وتشكل بذرة الحياة الإنسانية في الجيل الخالف، وقد نوه الإسلام بالعلاقة المقدسة بين الزوجين واعتبرها آية من آيات الله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرُّوم: ٢١] .

ب ـ أما من جهة الاستمرار والدوام: فقد شرع عدة وسائل لحفظ النفس.

١ ـ أوجب على الإنسان أن يمد نفسه بوسائل الإبقاء على حياته من تناول للطعام والشراب وتوفير اللباس والمسكن، فيحرم على المسلم أن يمتنع عن هذه الضروريات إلى الحد الذي يهدد بقاء حياته.

كما اعتبر الحصول على هذه الضروريات هو الحد الأدنى الذي يلزم المجتمع ممثلا في الدولة بتوفيره للأفراد العاجزين عن توفيره لأنفسهم.

٢ ـ أوجب على الدولة إقامة الأجهزة الكفيلة بتوفير الأمن العام للأفراد، من قضاء وشرطة وغيرها، مما يحقق الأمن للمجتمع.

٣ ـ تشريع الرخص بسبب الأعذار الموجبة للمشقة التي تلحق النفس فينشأ منها ضرر عليها، ومن ذلك: رخص الفطر في رمضان بسبب المرض والسفر، وقصر الصلاة في السفر.

٤ ـ حرم الإسلام قتل النفس سواء قتل الإنسان نفسه أم قتله غيره قال الله

تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النِّساء: ٢٩] .

وشنع علىٰ هذه الجريمة فاعتبر قتل نفس واحدة بمثابة قتل الناس جميعا، قال تعالىٰ: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٣٢] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حرامًا»**[١].

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله[٢].

٥ ـ أوجب القصاص في القتل العمد، والدية والكفارة في القتل خطأ قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة: ١٧٨] .

٦ ـ إعلان الجهاد حفظا للنفوس وحماية للمستضعفين: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النِّساء: ٧٥] .

٧ ـ أوجب علىٰ المسلم إنقاذ من يتعرض للقتل ظلمًا أو يتعرض لخطر إن استطاع أن ينقذه.

٨ ـ كما شرع للإنسان أن يدفع عن نفسه إذا هاجمه من يريد الاعتداء عليه دون تحمل أية مسؤولية إذا مات المهاجم، و ثبت أنه كان يريد الاعتداء عليه.

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٤٣٧).

(٢) رواه البخاري والحاكم وقال صحيح علىٰ شرطهما.

٩. حرم علىٰ الإنسان أي طعام أو شراب فيه ضرر لحياته قد يودي بنفسه.

فالتعدي علىٰ النفس الإنسانية في التشريع الإسلامي من أخطر الجرائم؛ لأنَّ الإسلام أعلى من شأن الإنسان؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسرَاء: ٧٠] .

ومن ثم فقد شدد في العقوبة علىٰ من يعتدي علىٰ حياة غيره بغير حق.

ولا شك أنَّ رحمة الله عظيمة بفرضه القِصاص؛ لأنَّ من يهم بقتل غيره وهو يعلم أنَّ في ذلك هلاكَه سوف يتردَّد، أو لا يُقْدم علىٰ هذه الجريمة الشنعاء؛ خوفًا علىٰ حياته.

وكذلك من يريد الاعتداء علىٰ الآخرين أو النَّيْل منهم، حينما يعلم عُقُوبة القصاص، فلا شك أنه سوف يُفكر قبل اقتراف الجريمة؛ لأنَّ القصاص عقاب رادع، وقد بيَّن القرآن الكريم أن القصاص أيضًا مما شرعه الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وأنزله في التَّوراة؛ فقال الله سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المَائدة: ٤٥] .

التعدي علىٰ النفس الإنسانية في التشريع الإسلامي من أخطر الجرائم؛ لأن الإسلام أعلى من شأن الإنسان؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسرَاء: ٧٠] .

ومن ثَمَّ فقد شدد في العقوبة علىٰ من يعتدي علىٰ حياة غيره بغير حق.

فالعقوبات في الشريعة الإسلامية تعمل علىٰ منع الجريمة بأربعة طرق هي:

١ ـ التهذيب النفسي وتربية الضمير، فقد هذب الإسلام النفس الإنسانية بالعبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج لبيت الله الحرام، مما يجعل العبد المسلم أليف مؤتلف يرى نفسه من ومع وإلىٰ الجماعة التي يعيش في وسطها وكنفها وبالتالي فهو يعمل لصالحها وعلىٰ حمايتها حتى من نفسه.

٢ ـ تكوين رأي عام فاضل عماده وأساسه الأخلاق الفاضلة الكريمة لذلك دعت الشريعة الإسلامية إلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويسود

بذلك خلق الحياء في المجتمع الإسلامي والحياء إحساس قوي بالقيود النفسية التي تجعل الجماعة وما يرضيها مكانا في النفس الإنسانية مما يجعل الشخص يحس بسلطان الرأي العام علىٰ نفسه، ولذلك حث الإسلام علىٰ الحياء ودعا إليه النبي ﷺ وأكثر من الدعوة إليه.

٣ ـ العقوبات الزاجرة والمانعة الرادعة فالعقوبة رادعة للمجرم زاجرة لغيرة، فالغاية من العقوبة في الشريعة الإسلامية أمران حماية الفضيلة وحماية المجتمع من أن تتحكم فيه الرزيلة والثاني المنفعة العامة ومصلحة الناس، فالفضيلة والمصلحة وإن كانا يبدو بينهما خلاف إلا أنه ظاهري بل هما متلازمان فلا فضيلة بدون مصلحة ولا مصلحة بدون فضيلة، بل أن كثير من علماء الأخلاق يعتبرون مقياس الفضيلة أو الخير هو المصلحة الحقيقية بدون هوى.

٤ ـ العقوبة شفاء لغيظ المجني عليه وليست للانتقام فشفاء غيظ المجني عليه وعلاجه له أثره في تهدئة نفس المجني عليه فلا يفكر في الانتقام ولا يسرف في الاعتداء وبالتالي تنتشر الجريمة وتفشي في المجتمع، بالإضافة إلىٰ الحفاظ علىٰ الكليات الخمس السابق بيانها، ويعتبر ما سلف خير مانع للجريمة.

فالشريعة الإسلامية تتميز عن القوانين الوضعية بالكمال والسمو والمرونة والدوام والثبات والاستقرار، ويرجع ذلك إلىٰ أنها منزلة من عن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ الذي يتصف بالكمال والسمو والقدرة والدوام.

المطلب الأول: الجانب الجنائي المتمثل في الحدود وفيه فرعان:

الفرع الأول:الإعجاز التشريعي في القصاص:

١ ـ القصاص في القرآن الكريم:

ورد النص علىٰ القصاص في القرآن الكريم في أربع آيات هي:

ـ في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ (١٧٨) وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾ [البقرة: ١٧٨/١٧٩].

ـ وفي قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المَائدة: ٣٢] .

ـ وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المَائدة: ٤٥] .

ـ وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٩٢].

ـ وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسرَاء: ٣٣] .

٢ ـ القصاص في السنة النبوية الشريفة:

وردت أحاديث في السنة النبوية الشريفة دعت إلىٰ الأخذ بالقصاص وحثت عليه أي في السنة القولية، وهناك من السنة الفعلية ما أخذ بذلك بالفعل، ومن الأحاديث النبوية ما يلي:

ـ قال رسول الله ﷺ: **«لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدي ثلاث، الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»**[1].

(١) رواه البخاري في كتاب الديات (٦٨٧٨)، ورواه مسلم في كتاب القسامة (١٦٧٦).

ـ وعن سمرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن قتل عبده قتلناه ومَن جدع عبده جدعناه»**[1].

ـ وعن أنس بن مالك ﷺ أن جارية وجد رأسها قد رض بين حجريين فسألوها: مَن صنع بك هذا؟ فلان حتى ذكروا يهودياً فأومأت برأسها فأخذ اليهودي فأقر فأمر رسول الله ﷺ أن يرض رأسه بين حجريين[2].

ـ وعن أنس ﷺ: أن الرُّبَيع بنت النضر عمته كسّرت ثنية جارية، فطلبوا إليها العفو فأبوا، فعرضوا الإرث فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ، فأبوا إلا القصاص فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر: يا رسول الله أتكسر ثنية الربيع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها. فقال رسول الله ﷺ: **«يا أنس كتاب الله القصاص»**، فرضي القوم فعفوا، فقال رسول الله ﷺ: **«إن من عباد الله مَن لو أقسم علىٰ الله لأبره»**[3].

ـ وقد روي عن الرسول ﷺ قال: **«من أصيب بدم أو خبل فهو بالخيار بين احدي ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يأخذ العقل، وإما أن يعفو، فأن أراد برابعة فخذوا علىٰ يديه»**[4].

لقد اعتبرت الشريعة الإسلامية التعدي علىٰ النفس من أخطر الجرائم، لأن الإسلام أعلى من شأن الإنسان وعلىٰ قدر ما أعلى الإسلام من قدر الإنسان فإنه قد أشتد في العقوبة علىٰ من يعتدي علىٰ حياة غيره بغير حق، بل إن الإسلام اعتبر قتل النفس الواحدة بمثابة قتل الناس جميعًا، وأن إحياء النفس الواحدة بمثابة إحياء النفس الواحدة بمثابة إحياء الناس جميعاً، وقد جعل الله عقاب القاتل كعقاب الكافر.

وبهذا الحكم العادل جعل الشرع القصاص علاجاً يمنع العدوان، ومن

---

(١) رواه أحمد والأربعة وحسنه الترمذي وهو من رواية والنسائي بزيادة (مَن خصي عبده خصيناه) وصحح الحاكم هذه الزيادة.

(٢) ـ متفق عليه وعلىٰ لفظه.

(٣) ـ متفق عليه واللفظ للبخاري.

(٤) أبو داود(٤/١٦٩)

عدالة الإسلام في تشريعه أن جعل عقوبة القاتل أن يقتل لأن ذلك من الجزاء العادل الذي يستحقه بغير إبطال ولا هوادة، وحتى هؤلاء الذين يقتلون أنفسهم انتحاراً لهم عذاب شديد يوم القيامة لأنهم قنطوا من رحمة الله ولا يقنط من رحمة الله إلا الكافرون.

ولا شك أن رحمة الله عظيمة بفرضه القصاص الذي جعل فيه حياة الناس وأمنهم ومنع العدوان بينهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البَقَرَة: ١٧٩] .

- **القصاص لغة**: المساواة علىٰ الإطلاق ومعناه أيضا التتبع ومنه قصص السابقين بمعني أخبارهم[(١)].

وقيل القص القطع، يقال قصصت ما بينهما، ومنه أخذ القصاص، لأنه يجرحه مثل جرحه، أو يقتله به، ويقال: أقص الحاكم فلانا من فلان، وأباده به فأمتثل منه أي اقتص منه"[(٢)].

- **القصاص شرعا**: أن يعاقب المجرم بمثل فعله فيقتل كما قتل ويجرح كما جرح وهو عقوبة مقدرة ثبت أصلها بالكتاب، وثبت تفصيلها بالسنة، وهو المساواة بين الجريمة والعقوبة"[(٣)].

من أوجه الإعجاز التشريعي في فرض القصاص:

القصاص هو جزاء وفاق للجريمة المتعمدة يقوم به ولي الأمر أو من ينيب عنه، وليس المجني عليه أو وليه، فالقتل اعتداء علىٰ النفس الإنسانية، ومن العدالة أن يقتص ولي الأمر (أو من ينيب عنه) من القاتل المتعمد بمثل فعله، ولا يجوز ترك ذلك لولي الدم وإلا عمت الفوضى كما لا يجوز تعطيل القصاص بدعوى الرحمة بالجاني، لأن القاتل إذا كان قد حرم أحدا من الحياة

---

(١) محمد أبو زهرة، الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي، الجزء الثاني، العقوبة، المرجع السابق، ص: ٢٥٢.

(٢) عبد الرحمن الجزيري، كتاب الفقه علىٰ المذاهب الأربعة، تحقيق وتعليق وتخريج ودراسة أحمد فريد المزيدي ومحمد فؤاد رشاد، الجزء الخامس، الحدود، كتاب القصاص المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ، ص:٢٣١.

(٣) الإمام محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص: ٢٥٢.

فمن العدل المطلق أن يحرم منها، وذلك انتقامًا للمقتول، وشفاء لغيظ قلب وليه، وبالتالي يتم الحفاظ علىٰ حياة المجتمع كله.. ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩] .

من هنا تتضح الحكمة من فرض القصاص حتى لا تسود الفوضى في المجتمعات الإنسانية وتنتشر فيها اضطرابات القتل والقتل المضاد (أي الأخذ بالثأر) في دوامات مهددة لسلامة المجتمع وأمنه، تضيع فيها أرواح الأبرياء بالعشرات إن لم يكن بالمئات، ولا تنتهي إلا بالقضاء العادل بين الناس وذلك بتطبيق القصاص.

ومن أوجه الإعجاز التشريعي في الآية الكريمة التي نحن بصددها ما يلي:

(١) أن فائدة تطبيق القصاص تشمل المجتمع كله وليست مقصورة علىٰ أولياء الدم، ومن هنا جاء الخطاب إلىٰ الجماعة بتعبير (ولكم).

(٢) أن القصاص يضمن المساواة بين الجريمة والعقوبة، مما يجعله مانعا قويا لاطراد الجريمة في المجتمع، ويجعل منه سدًا منيعًا أمام إهدار الدماء الذي يهدد حياة الجماعة بالفناء في عمليات من الثأر المتبادل.

(٣) أن إيراد لفظة (حياة) بغير (أل) التعريفية هو من قبيل التأكيد علىٰ أن الحياة الآمنة من الجريمة هي الحياة الحقيقية، فمن عرف أنه إذا قتل عامدا فإنه سوف يقتل فإنه بالقطع سوف يحافظ علىٰ حياة غيره صونًا لحياته هو، وسوف يتردد ألف مرة إذا سولت له نفسه الإقدام علىٰ جريمة قتل.

(٤) أن الخطاب في الآية الكريمة موجه إلىٰ أولي الألباب أي: أولي العقول والنهي، وذلك للتأكيد علىٰ أن الحكمة من هذا التشريع الإلهي لا يدركها إلا عقلاء الناس من أصحاب البصيرة الذين يعلمون أن أمن الجماعة هو أمن لكل فرد فيها، ومن هنا كانت التضحية بفرد مجرم فيه سلامة الجميع، وهذا جانب واحد من حكمة تشريع القصاص.

(٥) أن قيام ولي الأمر (أو من ينيب عنه) بتنفيذ القصاص فيه حفظ لأمن

وسلامة المجتمع، وصون لدماء الأبرياء من أفراده، لأنه إن لم يقم بذلك ولي الأمر بدأت دوامة الثأر والثأر المضاد التي قد لا تتوقف لعدد من الأجيال المتتابعة التي يعين شياطين الإنس والجن على إشعال الفتن فيها.

وهذا النوع من القصاص يؤكد اهتمام الإسلام بالنفس الإنسانية، وتحريمه إيذائها بالقتل أو بالتشويه، لأن الإنسان في الإسلام مخلوق مكرم، ولأن الحق في الحياة الآمنة هو حق ثابت لكل فرد في المجتمع الإنساني، وعلى كل معتد أن يلقي جزاءه من نفس العمل. فإذا علم الفرد في المجتمع أنه إذا أقدم عامدا متعمدا على قطع يد فرد آخر في المجتمع فإن يده سوف تقطع كان في ذلك رادعا كافيا لمنعه من ارتكاب تلك الجريمة.

كذلك يشرع القصاص في كل من اللطمة والضربة والسبة، وفي غير ذلك من الأضرار التي قد يتعرض لها الفرد قي المجتمع وذلك بشرط المكافأة والمساواة في تطبيق القصاص على ألا يتسبب ذلك في ضرر أكبر. ويشترط في قصاص السب ألا يكون بشيء محرم. والقصاص لا يكون إلا في العدوان المقصود المتعمد، ولا يتحقق ذلك إلا ممن كان كامل الأهلية، حر الإرادة، على ألا يكون الفعل بحق، أي أن يكون للفاعل حق فيما أقدم عليه مما قررته الشريعة الإسلامية، كأن يكون القتل دفاعًا عن النفس أو المال أو العرض.

وفي القصاص لا يقتل القاتل إلا بعد أخذ رأي أهل القتيل فيه، فإن طلبوا قتله أمر ولي الأمر بقتله، ويكون القتل كفارة له، وإن عفوا عنه أمر ولي الأمر بالعفو عنه بعد أن يدفع الدية (التعويض المادي)، وعليه الكفارة، وهي عتق رقبة مؤمنة، فإن لم يجد فعليه صوم شهرين متتابعين.

ويثبت الحق في القصاص باعتراف القاتل، أو بشهادة رجلين يعرف عنهما الصلاح والتقوى. وقد فصل الأخ الكريم الدكتور السيد مصطفى أحمد أبو الخير الخبير في القانون الدولي قضية القصاص في مقاله المعنون: رائعة التشريع الجنائي الإسلامي في القصاص والذي تطرق فيه إلى تفصيلات هذا الحكم الشرعي وبيان جوانب من فضله وعدله.

وفي ظل الحضارة المادية المعاصرة، التي يقيس فيها أغلب الناس بمعاييرهم البشرية القاصرة، حاول بعض المتعالمين التطاول على حد القصاص، معتبرين أن قتل النفس الإنسانية لا يليق أن يمارسه المجتمع في عصر التنوير الذي يدعونه، وهو في الحقيقة عصر الظلام، لأن الإنسان أذا عاش بأحكامه هو، متجاهلا أحكام خالقه، فإنه لا يمكنه أبدًا أن يرى النور أو أن يحقق العدالة الاجتماعية.

وانطلاقا من هذه الفلسفة المادية المحضة بدأت بعض الدول الأوروبية في إلغاء عقوبة الإعدام، فألغت بلجيكا العقوبة عمليا في سنة (١٨٦٣م) وتبعتها هولندا سنة (١٨٧٠م)، ثم إيطاليا (١٨٩٠م)، والنمسا (١٩١٨م)، ثم كل من ألمانيا والدنمارك (١٩٣٠م)، وتابعتها في ذلك بقية الدول الغربية بالتدريج. ففي سنة (١٩٦٤م) أصدرت بريطانيا قانونا بإلغاء الإعدام.وفي مقال بعنوان ماذا جري في البلاد التي ألغت عقوبة الإعدام؟ لخص الدكتور حافظ يوسف ما نشرته مجلة ريدرز دايجست (readers digest) في سنة (١٩٩٥م) تحت عنوان الجريمة في أمريكا هل تسير إلى الأسوأ؟ جاء فيه: أنه بعد عشر سنوات من دراسة الجريمة في أمريكا توصل إلى ما يلي:

(١) أن ثلث من أدينوا بجريمة القتل في الولايات المتحدة الأمريكية كانوا من معتادي الإجرام الذين أفرج عنهم تحت نظام التعهد أو نظام الوضع تحت الرقابة.

(٢) أن الذين أفرج عنهم سنة (١٩٩٢م) ممن أدينوا بجريمة قتل قضوا في المتوسط (٥، ٩) سنة فقط من متوسط أحكام بلغت (٤، ١٢) سنة.

(٣) في مدينة نيويورك تم الإفراج المبكر عن مجرم اعتاد اغتصاب النساء بدعوي حسن سلوكه في داخل السجن.

(٤) تضاعفت فرص تعرض الفرد ليكون ضحية لجريمة عنف عدة مرات خلال السنوات الثلاثين الأخيرة.

(٥) رغم الارتفاع الرهيب لمعدل الجريمة في الولايات المتحدة الأمريكية

حاليا فإن هذا المعدل يزداد سوءا باستمرار. ففي ديسمبر (١٩٩٦م) سجلت هيئة العدالة للجميع (وهي هيئة أمريكية) علىٰ شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) تقريرا مفصلا جاء فيه:

- إنه خلال ثلاثين عاما (من ١٩٦٦ - ١٩٩٥م) وقعت خمسمائة وسبعون ألف (٧٥٠٠٠٠) جريمة قتل في الولايات المتحدة الأمريكية (بمتوسط حوالي عشرين ألف جريمة سنويا) لم ينفذ حكم الإعدام فيها إلا في ثلاثمائة مجرم فقط بنسبة (٠,٥٣ - ٠٠%).

- إنه في الفترة بين عامي (١٩٧٣م)، (١٩٩٥م) تم إصدار الحكم بإعدام (٥٧٠٠) قاتل ولكن لم ينفذ الإعدام إلا في (٢٣٠) فقط من هؤلاء القتلة.

كذلك أظهر استقصاء قام به معهد جالوب (gallop) في الولايات المتحدة الأمريكية سنة (١٩٩١ م) أن (٧٦%) من الجمهور الأمريكي يحبذون تطبيق عقوبة الإعدام علىٰ مستحقيها، في حين يعارضها (١٨%) فقط، بينما كانت هذه النسب سنة (١٩٦٦ م) علىٰ عكس ذلك، فقد كان المحبذون لتطبيق عقوبة الإعدام (٤٢%) والمعارضون لذلك (٤٧%).

من هذا الاستعراض يتضح لنا وجه من أوجه الإعجاز التشريعي في كتاب الله وذلك بفرض القصاص.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: إن الغضب للدم فطرة وطبيعة، فالإسلام يلبيها بتقرير شريعة القصاص. فالعدل الجازم هو الذي يكسر شره النفوس، ويفثأ حنق الصدور، ويردع الجاني كذلك عن التمادي، ولكن الإسلام في الوقت ذاته يحبب في العفو، ويفتح له الطريق، ويرسم له الحدود، فتكون الدعوة إليه بعد تقرير القصاص دعوة إلىٰ التسامي في حدود التطوع، لا فرضا يكبت فطرة الإنسان ويحملها ما لا تطيق.

بعد هذا العرض الموجز للقصاص يتضح وجه الإعجاز التشريعي في فرض القصاص الذي يحقق للمجتمعات الإنسانية فرصة الحياة الآمنة وهي الحياة الحقة لأن الحياة بلا أمن هي عين الشقاء.

الفرع الثاني: الإعجاز التشريعي إيجاب الدية على عاقلة القاتل.

الدية: هي المال المؤدّى إلىٰ مجنيٍّ عليه، أو وليّه، أو وارثه بسبب جنايةٍ. وتسمّى الدّية عقلاً أيضاً، وذلك لوجهين: أحدهما أنّها تعقل الدّماء أن تراق، والثّاني أنّ الدّية كانت إذا وجبت وأخذت من الإبل تجمع فتعقل، ثمّ تساق إلىٰ وليّ الدّم.

ـ **تعريف العاقلة**: عاقلة القاتل هم عصباته (الذكور من أقاربه)، فلا يدخل في العاقلة الإخوة لأم ولا الزوج ولا سائر ذوي الأرحام.

ويدخل في العصبة سائر العصبات مهما بعدوا؛ لأنهم عصبة يرثون المال إذا لم يكن وارث أقرب منهم، ولا يشترط أن يكونوا وارثين في الحال، بل متى كانوا يرثون لولا الحجب، تجب عليهم الدية.

ـ **مقدارها**:.

حسب الأزهر: جملة الدية ٤٢٥٠جراماً من الذهب تُدفع عيناً لولي القتيل، أو قيمتها بالنقد السائد حسب سعر الذهب يوم ثبوت هذا الحق.

من أحكام الدية الواجبة علىٰ العاقلة:

ـ تجب الدية علىٰ العاقلة عند القتل الخطأ، أما العمد فيتحملها الجاني وحده.

ـ تقسم الدية علىٰ العاقلة مع مراعاة الأقرب فالأقرب.

ـ أقصى زمن مسموح به لجمع الدية ثلاث سنوات.

ـ إذا كان الجاني صغيراً أو مجنونا فالدية الواجبة تحملها العاقلة ولو تعمَّد الفعل؛ لأنَّ عمد الصغير والمجنون خطأ لا عمد.

ـ لا تكلف العاقلة ما يشق عليها؛ لأنه لزمها من غير جناية، بل علىٰ سبيل المواساة.

ـ مقدار ما يحمله كل فرد: قال مالك وأحمد: يترك الأمر للحاكم يفرض علىٰ كل واحد ما يسهل عليه ولا يؤذيه.

ـ ليس علىٰ الفقير ولا المرأة ولا الصبي ولا المجنون دية؛ لأن تحميل الفقير إجحاف به، ولأن المرأة والصبي والمجنون ليسوا من أهل النصرة، ولكن هؤلاء إذا كانوا جناة يُعقل عنهم.

سبب تحميل العاقلة الدية:

هذا استثناء من القاعدة الشرعية التي وردت في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ، فظروف الجناة والمجني عليهم هي التي سوغت هذا الاستثناء وجعلت الأخذ به لازماً لتحقيق العدالة والمساواة، ولضمان الحصول علىٰ الحقوق، ويمكن تبرير هذا الاستثناء بالمبررات الآتية:

١ ـ لو أخذنا بالقاعدة العامة فتحمَّلَ كل مخطئ وزر عمله، لكانت النتيجة أن تنفذ العقوبة علىٰ الأغنياء وهم قلة، ولامتنع تنفيذها علىٰ الفقراء وهم الكثرة، ويتبع هذا أن يحصل المجني عليه أو وليه علىٰ الدية كاملة إن كان الجاني غنياً، وعلىٰ بعضها أن كان متوسط الحال. أما إذا كان الجاني فقيراً وهو كذلك في أغلب الأحوال فلا يحصل المجني عليه من الدية علىٰ شيء، وهكذا تنعدم العدالة والمساواة بين الجناة كما تنعدم بين المجني عليهم.

٢ ـ إن الدية ـ وإن كانت عقوبة ـ إلا أنها حق مالي للمجني عليه أو وليه، وقد روعي في تقديرها أن تكون تعويضاً عادلاً عن الجريمة، فلو أخذ بالقاعدة العامة وتحمَّل المتهم وحده الدية، لما أمكن أن يصل معظم المجني عليهم إلىٰ الدية التي يحكم بها؛ لأن مقدار الدية أكبر عادة من ثروة الفرد. إذ الدية الكاملة مائة من الإبل، ولاشك أن ثروة الفرد الواحد في أغلب الأحوال أقل بكثير من مقدار الدية الواحدة، فلو طبَّقنا القاعدة العامة وتحمَّلَ الجاني وحده وزر عمله لكان ذلك مانعاً من حصول المجني عليهم علىٰ حقوقهم، فكان ترك القاعدة إلىٰ هذا الاستثناء هو الضمان الوحيد الذي يضمن وصول الحقوق المقررة إلىٰ أربابها.

ملاحظة: المجني عليهم في جرائم القتل العمد لا يتعرضون لمثل هذه الحالة؛ لأن العقوبة الأصلية هي القصاص، ولا تستبدل بها الدية إلا إذا عفا

المجني عليه ـ أو وليه ـ عن القصاص، ولن يعفو أحدهم عن القصاص إلا إذا كان ضامناً الحصول علىٰ الدية، فإذا عفا أحدهما عن القصاص وقبل الدية ولم يكن مال الجاني كافياً لسداد الدية فذلك هو اختيار المجني عليه أو وليه، وليس لأحدهما أن يتضرر من هذا الوضع الذي وضع فيه نفسه.

٣ ـ إن العاقلة تحمل الدية في جرائم الخطأ، وأساس جرائم الخطأ هو الإهمال وعدم الاحتياط، وهذان سببهما سوء التوجيه وسوء التربية غالباً، والمسئول عن تربية الفرد وتوجيهه هم المتصلون به بصلة الدم. فوجب لهذا أن تتحمل أولاً عاقلة الجاني نتيجة خطئه، وأن تتحمل الجماعة أخيراً هذا الخطأ كما عجزت العاقلة عن حمله.

ويمكننا أن نقول أيضاً: إن الإهمال وعدم الاحتياط هو نتيجة الشعور بالعزة والقوة، وإن هذا الشعور يتولد من الاتصال بالجماعة، فالمُشاهَد أن من لا عشيرة قوية له يكون أكثر احتياطاً ويقظة ممن له عشيرة، وأن المنتمين للأقليات يكونون أكثر حرصاً من المنتمين للأكثريات. فوجب لهذا أن تتحمل العاقلة والجماعة نتيجة الخطأ ما دام أنهما هما المصدر الأول للإهمال وعدم الاحتياط.

٤ ـ إن نظام الأسرة ونظام الجماعة يقوم كلاهما بطبيعته علىٰ التناصر والتعاون، ومن واجب الفرد في كل أسرة أن يناصر باقي أفراد الأسرة ويتعاون معهم. وكذلك واجب الفرد في كل جماعة. وتحميل العاقلة أولاً والجماعة ثانياً نتيجة خطأ الجاني يحقق التعاون والتناصر تحقيقاً تاماً، بل أنه يجدده ويؤكده في كل وقت. فكلما وقعت جريمة من جرائم الخطأ اتصل الجاني بعاقلته واتصلت العاقلة بعضها ببعض وتعاونوا علىٰ جمع الدية وإخراجها من أموالهم. ولما كانت جرائم الخطأ تقع كثيراً فمعنى ذلك أن الاتصال والتعاون والتناصر بين الأفراد ثم الجماعة كل أولئك يظل متجدداً مستمراً.

٥ ـ إن الحكم بالدية علىٰ الجاني وعلىٰ عاقلته فيه تخفيف عن الجناة ورحمة بهم وليس فيه غبن وظلم لغيرهم؛ لأن الجاني الذي تحمل عنه

العاقلة اليوم دية جريمته ملزم بأن يتحمل غداً بنصيب من الدية المقررة لجريمة غيره من أفراد العاقلة، وما دام كل إنسان معرضاً للخطأ فسيأتي اليوم الذي يكون فيه ما حمله فرد بعينه عن غيره مساوياً لما تحمله هذا الغير عنه.

٦ ـ إن القاعدة الأساسية في الشريعة هي حياطة الدماء وصيانتها وعدم إهدارها، والدية مقررة بدلاً من الدم وصيانة له عن الإهدار، فلو تحمل كل جانٍ وحده الدية التي تجب بجريمته وكان عاجزاً عن أدائها، لأهدر بذلك دم المجني عليه، فكان الخروج عن القاعدة العامة إلىٰ الاستثناء واجباً حتى لا تذهب الدماء هدراً دون مقابل.وسبحان مَن هذه شريعته! من ذلك نخلص إلىٰ أن (القصاص حياة) جملة مفيدة معانيها نافذة لا تنفد ولا تموت لأنها حية وكلها حياة عمرها عمر الإسلام والإنسان، وآية بكل ما تحمل هذه الكلمة من مفهوم ومضمون، وهي أيضا حكمة تشريعية تحمل بين طياتها إعجازا تشريعيا لم تصل إليه حتى الآن السياسات الجنائية والعقابية في كافة النظم القانونية الوضعية الموجودة في العالم، رغم أن ظاهرها التناقض، فقد يودي القصاص بحياة الإنسان فتصل العقوبة إلىٰ الإعدام، أي الموت، ولكن مع ذلك فإن الموت هنا حياة للمجتمع[1].

المطلب الثاني: الجانب الوقائي:

القرآن الكريم والسنة النبوية قد احتويا علىٰ منهج متكامل للطب الوقائي يتكون من صحة الجسم، وصحة العقل، وصحة السلوك الخلقي، والصحة النفسية، وصحة المجتمع، ونظافة البيئة.

تعريف الطب الوقائي الحديث:

عرف العلماء الطب الوقائي بأنه العلم المتعلق بالوقاية من الأمراض الجرثومية والعضوية والنفسية للفرد والمجتمع.

ولقد اهتم الإسلام بصحة الإنسان وعافيته أيما اهتمام فجعل امتلاك الصحة كامتلاك الدنيا كلها، فقال النبي ﷺ: «**من أصبح معافى في جسده آمنا**

---

(١) التشريع الجنائي في الإسلام، للشهيد: عبد القادر عودة.

في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا»[1].

كما وجه النبي ﷺ الاهتمام بالصحة والمحافظة عليها، ففي الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: **«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»**.

وزكى ﷺ الصحة وطالب أتباعه بالدعاء والتضرع لله أن يمنحهم اليقين والعافية: **«سلوا الله اليقين والمعافاة فما أوتي أحد بعد اليقين خيراً من العافية»**[2].

ولقد حوت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية منهجا متكاملا للطب الوقائي، يتكون من صحة الجسم وصحة العقل وصحة السلوك الخلقي والصحة النفسية، ويتعلق هذا المنهج بصحة الفرد لحمايته من الأمراض المعدية والعضوية، وصحة المجتمع ونظافة البيئة.

وقد حصر العلماء مسببات الإمراض في ثلاثة أقسام:

مسببات من الكائنات الدقيقة، ومسببات من مركبات عضوية، ومسببات من اضطرابات نفسية. وسنتناول حكمة التشريع في كل من الطهارة ممثلة في الوضوء والغسل وسنن الفطرة، ونظافة البيئة وأثرها في وقاية المجتمع من الأوبئة والأمراض السارية.

أولا: الطهارة وحكمة التشريع:

الكائنات الدقيقة مسبب رئيسي للأمراض: تعتبر الكائنات الدقيقة أُمة من المخلوقات الحية التي لا تراها أعيننا، وتوجد في كل مكان، في الهواء والماء والتربة وعلى أجسامنا وفي أفواهنا وأمعائنا، بل وأحيانا في الطعام الذي نأكله، وبعضها مفيد وبعضها ضار. وتتكون من عائلات وأجناس وأنواع متباينة وعديدة.

---

(١) ابن ماجة والترمذي.

(٢) الترمذي.

وللوقاية من هذه الكائنات التي يمكن أن تصيب الإنسان بأضرار بالغة، لا بد من مراعاة ثلاثة أمور:

أولها: التخلص من مخازن هذه الكائنات أو تنظيفها بقدر الإمكان، والتي تتوزع بين الإنسان والحيوان والبيئة ممثلة في التربة والماء.

ثانيها: قطع الطرق الموصلة لهذه الكائنات إلىٰ جسم الإنسان.

ثالثها: تقوية جهاز المناعة والدفاع لدى الإنسان.

كما تعتبر بعض الحيوانات والطيور والحشرات مخزنا حيوانيا لكثير من الكائنات الدقيقة التي تسبب أمراضا للإنسان، وأوضح مثال لهذه المخازن:

- الخنازير والكلاب والحيوانات ذات الأنياب آكلات اللحوم، والحيوانات المفترسة.
- الطيور الجارحة ذات المخالب مثل الصقور والحدأة.
- الطيور والحيوانات التي يؤكل لحمها وتتغذى علىٰ القاذورات.
- الحشرات والقوارض، مثل البعوض والقراد والقمل والبراغيث والفئران.

فهذه المخازن تنقل للإنسان كثيرا من الأمراض، مثل: الجمرة الخبيثة والسل والطاعون وحمى التيفود، والأمراض الفيروسية والطفيلية الخطيرة.

كما تعتبر التربة مخزنا هائلا لعدد كبير من الكائنات الدقيقة إذا لوثت.

ومثل التربة الماء، فهو عادة لا يحمل جراثيم مرضية إلا إذا تلوث ببول وبراز الإنسان أو الحيوان. وفي هذا المطلب نقدم بعض النصوص الشرعية التي تتوخى وقاية الإنسان من الأمراض بأنواعها. ومنها يتضح سبق علمي واضح للشريعة الإسلامية ونصوصها وتأكيد لنزول القرآن من لدن حكيم عليم.

قاعدة النظافة:

يولي الأطباء في العالم كله اليوم اهتماما كبيرا لقاعدة عظيمة، لما لها من آثار مهمة في حماية الإنسان من أخطار الكائنات الدقيقة، ألا وهي قاعدة النظافة. فما هو أثرها الوقائي؟.

لقد حرصت نصوص الشريعة أن تستأصل الكائنات الدقيقة من مخازنها لدى الإنسان، أو تنظف هذه المخازن منها بقدر الإمكان، فحالت بينها وبين إلحاق الضرر به من خلال نظم ووسائل يمارسها المسلم طاعة لربه، ويطبقها في سهولةٍ ويسرٍ وحب. فأرست قاعدة النظافة الشخصية لأفراد المجتمع وسمتها "الطهارة" وجعلتها شطر الدين.

ورسخت عمليًا وسائل تحقيق هذه القاعدة بتشريع الوضوء والغسل، والتزام تطبيق سنن الفطرة من السواك، والمضمضة، والاستنشاق، والختان، وتقليم الأظافر، وحلق العانة، وغسل عقد الأصابع، ونظافة السبيلين، واجتناب النجاسات، والحفاظ علىٰ نظافة الثياب والمظهر العام، فهذه الأحكام الدقيقة المترابطة والتي لا مثيل لها في أي تشريع آخر، تهدف إلىٰ تنظيف بؤر ومخازن الكائنات الدقيقة في الإنسان، من علىٰ الجلد ومن الأنف والحلق وقناة الهضم، لذلك حمت هذه التشريعات المسلم من شرور الأمراض السارية والعضوية.

لقد سمت النصوص الشرعية النظافة بالطهارة، وجعلتها جزءاً هامًا من الدين بل هي شطره كما قال، عليه الصلاة والسلام: "الطهور شطر الإيمان" يقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨] .

والطهارة لغة: النظافة. وشرعا: رفع حدث أو إزالة نجس وهي أعم من كلمة النظافة.

ولم تقتصر الطهارة في الإسلام علىٰ البدن فحسب بل شملت طهارة الملبس والمكان، وهي من شروط صحة الصلاة، وهي بذلك جزء من عبادة المسلم لربه.

لقد جعل الله وسيلة الطهارة الأولى هي الماء، فقال تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١] .

لقد ثبت أن الماء هو الوحيد الطاهر المطهر لغيره، لمميزات فيه كثيرة،

أهمها: أنه وسط غير ملائم لنمو الكائنات الدقيقة متى كان نقيا، لعدم احتوائه علىٰ العناصر الغذائية اللازمة لنموها، ولأن درجة حرارة الماء غير مناسبة لهذا النمو، كما أن درجة الضغط الأسموزي للماء أقل منه عند هذه الكائنات؛ مما يؤدي إلىٰ موتها وهلاكها لذا فالماء في ذاته طهور. وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨] .

١) ـ الوضوء وأثره الوقائي:

السؤال ما هي سبل تحقيق الطهارة والتي أولتها الشريعة اهتماما بالغا؟.

تتحقق النظافة أو الطهارة بما فرضه الله سبحانه وتعالىٰ، وبما سنه نبيه، ﷺ من الوضوء والغسل ونظافة الثياب وأماكن الصلاة وسنن الفطرة.

لقد فرض الله سبحانه الوضوء علىٰ المسلم، وسن النبي ﷺ فيه سننا: يغسل المسلم فيه الأجزاء المكشوفة من جلده (الوجه واليدين والفم والأنف والذراعين ومسح الرأس والأذنين وغسل القدمين) خمس مرات في اليوم والليلة، وفي كل مرة يتوضأ فيها يغسل العضو ثلاث مرات. قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦].

تقول المراجع الطبية الحديثة: إن الجلد يعتبر مخزنا لنسبة عالية من البكتيريا والفطريات، وتوجد معظم هذه الكائنات الدقيقة بكثرة علىٰ الوجه وعلىٰ البشرة وعلىٰ جذور الشعر وفي الغدد الدهنية، ويتراوح عددها من عشرة آلاف إلىٰ مائة ألف جرثومة علىٰ كل واحد سنتيمتر مربع من الجلد. وفي المناطق المكشوفة من الجلد يتراوح العدد من مليون إلىٰ خمسة ملايين جرثومة / سم^{٢}. وترتفع هذه النسبة في الأماكن المخبوءة الرطبة مثل المنطقة الإربية وتحت الإبطين إلىٰ عشرة ملايين جرثومة/ سم^{٢}. ونسبة الكائنات الدقيقة علىٰ الشعر كنسبتها علىٰ الجلد.

فالغسل منظف لجميع جلد الإنسان، والوضوء ينظف الأجزاء المكشوفة منه، وهي الأكثر تلوثا بالجراثيم، لذا كان استعمال الماء أمرا هاما، لأن هذه

الجراثيم في تكاثر مستمر، والوضوء والغسل خير مزيل لها.

ولو استعرضنا مناطق الجسم التي يشملها الوضوء لتبين لنا أحد وجوه الحكمة العظيمة منه: فالفم والأنف هما المدخلان الرئيسان لأعضاء الجسم الداخلية، فنظافتهما من الجراثيم تعني حماية الأجهزة الداخلية من المرض والعطب.

أ ـ المضمضة والوقاية من الأمراض:

توجد في الفم تجمعات كبيرة من الكائنات الدقيقة وبأنواع مختلفة تزيد علىٰ ثلاثمائة مستعمرة، ويحتوي اللعاب علىٰ حوالي ١٠٠مليون جرثومة/ مم، وقد توجد بعض الفطريات والطفيليات الأولية في عدد من الأشخاص، وتشكل أنواع الميكروبات السبحية من ٣٠ ـ ٦٠% من البكتيريا المتطفلة، وهي التي تسبب إلتهاب اللوزتين والحلق. وتتغذى هذه الكائنات الدقيقة علىٰ بقايا الطعام في الفم وبين الأسنان، وينتج من نموها وتكاثرها أحماض وإفرازات كثيرة تؤثر علىٰ الفم ورائحته، وعلىٰ لون الأسنان وأدائها، وللقضاء علىٰ هذه الأعداد الهائلة من الجراثيم ومنع آثارها الضارة حرصت الشريعة الإسلامية علىٰ أمرين: الأول: المضمضة وهي تكرار غسل الفم بالماء عدة مرات في اليوم. والثاني: الحث علىٰ استعمال السواك.

السواك وأثره الوقائي:

كم نشعر بعظمة أمر النبي ﷺ لنا بالتسوك «**تسوكوا فإن السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب، وما جاءني جبريل إلا أوصاني بالسواك حتى لقد خشيت أن يفرض علىٰ وعلىٰ أمتي، ولولا أني أخاف أن أشق علىٰ أمتي لفرضته لهم، وإني لأستاك حتى خشيت أن أحفي مقادم فمي**»[1]. نعم فالسواك مطهرة للفم حقا، فقد ثبت تكون غلالة رقيقة من اللعاب تلتصق بالأسنان تسمى لويحة جرثومية (Bacterial plaque) يسبح فيها عدد هائل من الجراثيم تصل إلىٰ حوالي ١٠٠بليون جرثومة في كل جرام منها، وهذه اللويحة أو الطبقة تتكون سريعاً، حتى بعد تلميع الأسنان، في أقل من ساعة، ويزداد سمكها

(١) الترغيب والترهيب برقم (١٤٤).

ويحدث فيها ترسبات رخوة كلما تركت من غير إزالة. وقد ثبت أن هذه الطبقة الجرثومية هي المسئولة عن أمراض اللثة ونخر الأسنان، وهذا يوضح لنا أهمية حث النبي ﷺ أمته علىٰ دوام استعمال السواك عند كل صلاة أو وضوء، في قوله عليه الصلاة والسلام: «**لولا أن أشق علىٰ أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة**»[١].

وكان رسول الله ﷺ كما ثبت في الصحيحين، إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك، لأن ركود اللعاب أثناء النوم أحد العوامل المهيأة لتكاثر الجراثيم وازدياد ترسباتها في هذه اللويحة. كما أن هذه اللويحة ليس لها علاقة بالأكل وفضلات الطعام، فهي دائمة التكوين. لذا نفهم الحكمة من ترغيب النبي ﷺ وحضه علىٰ السواك وملازمته له حتى أثناء الصيام.

روى البخاري بسنده عن عامر بن ربيعة ﷺ، قال: "رأيت النبي يستاك وهو صائم ما لا أحصي ولا أعد".

وللسواك فوائد طبية كثيرة للفم والأسنان؛ حيث يحتوي علىٰ مواد مضادة للجراثيم، وقد ثبت بالبحث أنه يقضي علىٰ خمسة أنواع علىٰ الأقل من الجراثيم المعدية والموجودة بالفم، أهمها البكتريا السبحية والتي تسبب بعض أنواعها الحمى الروماتزمية.

كما وجد في السواك بعود الأراك مادة تجرف الفضلات وتزيح القلح وتساعد علىٰ تلميع الأسنان، كما يتوافر فيه بكثرة حمض العفص (Tannic acid) وهو قاتل للجراثيم ومطهر قوي، ويشفي جروح اللثة والتهاباتها.

وقد أجريت دراسة علىٰ مستعملي السواك، ثبت خلالها أن السواك يزيل اللويحة الجرثومية وهي بكر، قبل عتوها وتأثيرها علىٰ الأنسجة، وتكرار السواك يومياً قبل الصلاة يؤدي إلىٰ درجة عالية من نظافة الفم ويشفي التهابات اللثة.

---

(١) رواه الشيخان.

نظافة الأنف من الجراثيم الممرضة:

أما استنشاق واستنثار الماء في الأنف، فله فوائد طبية كثيرة، أهمها أنه يزيل الكائنات الدقيقة التي تعلق في جوف الأنف وتستقر به. ولقد أثبتت الدراسات والبحوث التي أجريت بغرض معرفة تأثير الوضوء علىٰ صحة الأنف، أن أنوف من لا يصلون تعيش بها مستعمرات جرثومية عديدة وبكميات كبيرة، وأن أنوف المتوضئين ليس بها أية مستعمرات من الجراثيم، وفي عدد قليل منهم وجد قدر ضئيل من الجراثيم ما لبثت أن اختفت بعد تعليمهم الاستنشاق الصحيح. وبهذا ندرك عظم وصية النبي ﷺ بالمبالغة في الاستنشاق وتكراره ثلاثا.

وقد وجد الباحثون أن نسبة التخلص من الجراثيم الموجودة بالأنف تزداد بعدد مرات الاستنشاق، وأنه بعد المرة الثالثة يصبح الأنف خاليا تماماً منها.

الوضوء وجراثيم الجلد المكشوف:

إن اليدين والذراعين والوجه وشعر الرأس والقدمين وأسفل الساقين، هي أجزاء مكشوفة من البدن، فغسلها بالماء ينقيها من الكائنات الدقيقة ويزيلها عنها، ويختبئ عدد كبير من هذه الكائنات في الأخاديد بين الأصابع وعلىٰ عقدها.

لذلك أمر النبي ﷺ بتخليل أصابع اليدين والقدمين وغسل عقدها، وذلك تعقبًا لما يمكن أن تحويه هذه المخابئ من الجراثيم والفطريات الضارة. كما أوصى النبي ﷺ بنظافة اليدين خاصة، وحض علىٰ غسلهما عدة مرات في اليوم: قبل الطعام وبعده، وبعد الاستيقاظ من النوم، وبعد الخلاء، وبعد كل تلوث، وذلك لما لليدين من خطورة في نقل الأمراض وانتشار الأوبئة عن طريق مس الطعام أو الشراب أو المصافحة.

ومن أجل ذلك كان الوضوء المستمر والغسل، خير مزيل لهذه الكائنات ومجفف لهذا المخزن الخطير.

٢) ـ الغسل وأثره الوقائي:

لقد شرع الإسلام علىٰ المسلم غسل جميع بدنه بالماء علىٰ وجه الإلزام

في مواطن معينة، كغسل الجنابة والحيض والنفاس وندب إليه، في أكثر من سبعة عشر موطنا أخرى؛ كغسل الجمعة والإحرام بل قد حدد فترة زمنية يُكرَهُ تجاوزها بغير غسل فقال ﷺ: «**حق الله علىٰ كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً يغسل فيه رأسه وجسده**»[1].

إن غسل جميع البدن بالماء وجوباً أو استحباباً يحقق غاية الكمال من نظافة الجسم كله، وتنقيته من الضرر والخبث، ويزيل العدد الهائل من الكائنات الدقيقة التي تعيش علىٰ جلد الإنسان. وقد أثبتت عدة دراسات قام بها علماء متخصصون أن الاستحمام يزيل عن جلد الإنسان٩٠% من هذه الكائنات في المرة الواحدة[2].

٣) ـ سنن الفطرة وأثرها الوقائي:

إن سنن الفطرة التي أوصى بها النبي ﷺ لتمثل أساس نظافة الفرد. روى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**عشر من الفطرة: قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم (عقل الأصابع) ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء الاستنجاء**». قال الراوي ونسيت العاشرة، إلا أن تكون المضمضة.

لقد كشفت البحوث الطبية الأهمية الصحية البالغة لتطبيق هذه الخصال وما يترتب علىٰ إهمالها من أضرار، فترك الأظفار مجلبة للمرض، حيث تتجمع تحتها ملايين الجراثيم المختلفة، وبيض بعض الديدان، وبعض الطفيليات الأولية التي يمكن أن تسبب أضرارا بالغة، خصوصا للأطفال.

وترك شعر العانة هو المسئول عن مرض "قمل العانة" المنتشر في أوربا، والذي يؤدي إلىٰ تقرحات والتهابات في هذه المنطقة، وقد حمى الله بلاد المسلمين من هذا الوباء.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أوجه الارتباط بين القيم الإسلامية والإصابة بالسرطان ص٧١٠، د . أحمد القاضي وآخر، نشرة الطب الإسلامي ـ أبحاث المؤتمر عن الطب الإسلامي، الكويت: ١٤٠٢.

وأما الختان، فقد أثبتت الأبحاث أن غير المختونين يصابون بمعدل مرتفع بأمراض المسالك البولية بسبب الجراثيم التي تتكاثر بسرعة في هذه المنطقة، كما ازدادت نسبة الصديد والبكتريا لديهم في البول.

كما أثبتت بعض الدراسات العلاقة بين سرطان عنق الرحم وبين عدم اختتان النساء، وشيوع سرطان الحشفة وعدم اختتان الرجال.

وغسل البراجم (عقل الأصابع، أي مفاصلها) يزيل المستعمرات الجرثومية التي تتخذ من ثنيات الجلد في هذه الأماكن كهوف وأخاديد لها، ونتف الإبط ينظف هذا المكان المختبئ من الجلد والتي تتجمع فيه الأوساخ، وتنمو عليها الجراثيم، وخصوصاً الفطرية منها، كما أن بعض الجراثيم تهوى العيش على مادة الشعر نفسها.

لقد أكد الإسلام على الطهارة، وجعلها شرطاً لصحة الصلاة، وأولى خطوات هذه الطهارة نظافة السبيلين، والذي منهما تخرج نفايات الجسد، والتي تحتوي على قدر هائل من الكائنات الدقيقة والسموم الضارة، ويعتبر القولون مخزنا هاما لهذه الكائنات، إذ يحتوي الجرام الواحد من البراز على نسبة ٢٠% من وزنه بكتيريا، وقد سماها الشارع نجاسات وأمر بغسل الدبر والقبل بالماء ليزيل أي أثر منها يمكن أن يعلق بالجسد أو بالثياب لقد بدأ الغرب في مطلع النصف الثاني من هذا القرن يطبق بعض هذه السنن لما وجد فيها من فوائد صحية، فتنادوا الآن بها، فقد ثبتت لديهم فائدة الاستنجاء الواقية من الأمراض.

حيث أثبتت إحدى الدراسات في كلية الطب جامعة مانشيستر أن البكتريا تنفذ من ثمان طبقات من ورق التواليت إلى اليد وتلوثها، أثناء عملية التخلص من بقايا البراز.. وقد ندرك حجم الخطر إذ علمنا أن الجرام الواحد من البراز في الشخص السليم يحتوى على مائة ألف مليون جرثرمة، وفي المريض بمرض التيفويد قد يحوي الجرام الواحد خمسة وأربعين مليونا من بكتريا التيفويد. أما في مريض الدوزنتاريا أو الكوليرا فمن المستحيل إحصاء أعداد

الجراثيم لكثرتها الهائلة.

ولنا أن ننظر في حديث النبي ﷺ الذي أخبر فيه عن رجل يعذب في قبره لأنه كان لا يتنزه من بوله ويترك قطرات منه تعلق بثيابه، عن ابن عباس قال: "مر النبي ﷺ بقبرين فقال: «**إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستنزه وفي رواية لا يستتر من البول. وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة**»[1].

فبتأملنا لهذا الحديث ندرك شدة الاهتمام بنظافة هذا المكان والتخلص من هذه النفايات الضارة. ولذلك أمر الشارع باجتناب الملابس والأماكن الملوثة بهذه النفايات أو النجاسات وعدم ملامستها حتى تطهر.

وقد ذَكرت بعض الأبحاث الطبية أن إهمال نظافة الشرج والأعضاء التناسلية قد يكون سببا في إصابتها بمرض السرطان.

وبهذه التدابير المحكمة في تحقيق نظافة الفرد المسلم تتم الوقاية من أخطار الكائنات الدقيقة والسموم الضارة والتي يمكن أن تكون سببا في مرضه أو هلاكه.

وجه الإعجاز:

إن علم الطب الوقائي الحديث لم يظهر للوجود إلا بعد اكتشاف عالم الكائنات الدقيقة بأنواعها، وخواصها المختلفة. وبعد التقدم العلمي والتقني الهائل في معرفة مسببات الأمراض، والذي لم يحدث إلا في هذا القرن، أما قبل ذلك فكان الناس فريقين مسلمين وغير مسلمين، فالمسلمون لديهم نظام دقيق في الطب الوقائي وهو جزء من دينهم يتعبدون الله به وينفذونه في بساطة ويسر..أما غير المسلمين فكتب التاريخ مسطر فيها كل شيء عنهم، فليرجع إليها من شاء.

الأوروبيون مثلا في القرون الوسطى كانوا لا يغتسلون إلا مرة أو مرتين

---

(١) رواه البخاري.

في العام، ويظل عليهم الثوب الواحد حتى يتساقط من البلى، وكانت شوارعهم مملوءة بالأتربة والقاذورات التي يتجمع عندها الخنازير: بينما كان المسلمون يعيشون عيشة نظيفة بحكم تعاليم دينهم. يقول المستر أ.بورد الأمريكي الذي أشهر إسلامه في العشرينات من هذا القرن: إن أوروبا مدينة للمسلمين بكثير من وسائل الراحة الشخصية في حياتها، فالنظافة من دين المسلمين وما كان لهم أن يقبلوا ما كان يرتديه الأوروبيون في ذلك الوقت من ثوب واحد يظل على أجسادهم حتى يتساقط إربًا بالية كريهة الرائحة.

وعندما بدأت المجتمعات الأوربية تتصل بالمجتمعات الإسلامية عن طريق الأندلس، ثم عن طريق الحروب الصليبية بهرهم حرص المسلمين الشديد على النظافة، وقد حدث في فرنسا مقاومة شديدة لمحاولة الإقتداء بما اتبعه مسلمو الأندلس من رصف الطرق العامة لوقايتها من الأوحال وتيسير نظافتها، وقد وصفت العالمة الألمانية (زبجريد هونكه) في كتابها المسمى "شمس الإسلام تشرق على الغرب"، انطباع الطرطوسي من زيارته لبلاد الإفرنج في تلك الآونة وكيف كان وهو المسلم الذي يتوضأ قبل الصلوات الخمس، يستنكر حال القذارة التي كان يحياها الشعب الأوربي وأبدى دهشته من أنهم لا يغتسلون إلا مرة أو مرتين كل عام وبالماء البارد أما ملابسهم فلا يغسلونها بعد أن يلبسوها كي لا تتمزق. ثم بينت الباحثة الألمانية تأثر المجتمعات الأوربية بعد ذلك شيئًا فشيئًا بالعادات الإسلامية الحميدة، بعد أن اتضحت فوائدها، ومنها إقامة الحمامات الخاصة والعامة.

ولقد كان البريطانيون يعتبرون أن الغسل مضر بالصحة حتى إنه قد يؤدي إلى الموت والهلاك. وقد كان من العيب والعار أن يبنى حمام داخل بيت الأمريكي، حتى إن أول حمام مجهز بمغطس بني في البيت الأبيض كان في عام ١٨٥١م.

ولقد أثار في حينه ضجة لأنه اعتبر عملا مشينا في ذلك الوقت. وفي فرنسا كان قصر فرساي الشهير على رحابته خاليا من حمام واحد.

لقد استعمرت بريطانيا جزر الساندويش، وأرغمت سكانها المسلمين بالقمع والإغراء علىٰ أن يتحولوا إلىٰ النصرانية، ولكن كانت النتيجة كما ذكرها الطبيب البريطاني برنارد شو في كتابه "حيرة الطبيب" أن انتشرت بينهم الأمراض والأوبئة الفتاكة، وعلل ذلك ببعدهم عن تعاليم الدين الإسلامي التي تقضى بالنظافة المطلقة في كل صغيرة وكبيرة، إلىٰ حد الأمر بقص الأظافر وتنظيف ما تحتها.

٤) ـ تحذير نصوص الشريعة من وسائل نقل الكائنات الممرضة:

قال رسول، الله ﷺ **«إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا ـ أراه ـ قال: أفنيتكم، ولا تشبهوا باليهود»**[(١)].

كما حث علىٰ نظافة الطرقات وأماكن التجمع:

لقد حث النبي ﷺ علىٰ إماطة الأذى من الطريق وعدم التخلي في طريق الناس وظلهم، فقال ﷺ **«عرضت علىٰ أعمال أمتي حسنها وسيئها فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق ووجدت في مساوئ أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن»**[(٢)].

وقال أيضاً، ﷺ: **«البصاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها»**[(٣)].

وأوصى ﷺ بإزالة كل أذى من طرق الناس فقال: "أمط الأذى عن الطريق فإنه لك صدقة»[(٤)].

وقال ﷺ: **«اتقوا اللعانين، قالوا وما اللعانان يا رسول الله؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس وفي ظلهم»**[(٥)].

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) صحيح الترغيب والترهيب.

(٣) البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود.

(٤) البخاري في الأدب المفرد.

(٥) سنن أبي داود.

ثالث التوجيهات الهامة: تحذير نصوص الشريعة من وسائل نقل الكائنات الممرضة والأوبئة في سبق علمي مبهر.

إن الطعام والماء والهواء هي وسائل نقل الأوبئة بشكل رئيسي. ويعتبر تناول الأطعمة الملوثة من أهم وسائل انتقال الأمراض، كالتيفود والزحار وشلل الأطفال والتهاب الكبد الفيروسي حيث تنتقل جراثيم المرض من براز المريض أو حامل المرض إلىٰ الإنسان وذلك عن طريق اليد أو الآنية. ونسبة حدوث ذلك تعتمد اعتمادا كبيرا علىٰ مستوى نظافة الفرد والبيئة وتطورها، فها هو رسول الله ﷺ يبث الثقافة الصحية بين المسلمين قبل أن تكتشف الكائنات الدقيقة الممرضة ليقيهم أخطارها. فأمر المسلمين بتخصيص يد للأكل والمصافحة، ويد لمباشرة الأذى والخلاء، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "كانت يد رسول الله ﷺ اليمنى لطهوره وطعامه واليسرى لخلائه وما كان من أذى".

وقال ﷺ: **«يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك»**[1].

إن المناطق الباردة الرطبة وذات الظل، تعتبر جوًا ملائمًا لنمو أغلب أنواع البكتيريا وبويضات الديدان، وذلك لخلوها من تأثير الأشعة فوق البنفسجية القاتلة للجراثيم والبويضات. وبما أن البول والبراز يعتبران من مصادر هذه الجراثيم والديدان والبويضات، حيث يحتوي الجرام الواحد من البراز علىٰ أكثر من مائة ألف مليون جرثومة، وبعض الديدان منها تضع عدة آلاف من البويضات، لذلك نصح رسول الله ﷺ بعدم التبول والتبرز في الظل، كما ذكرنا في حديث الذي يتخلى قي طريق الناس وظلهم.

كما أن نفخ الرذاذ وزفره يؤدي إلىٰ انتقال كثير من الأمراض المعدية، كالأنفلونزا وشلل الأطفال والنكاف والحصبة الألمانية، والرشح والتهاب الحلق والجديري والسل، وغيرها من الأمراض وخاصةً الفيروسية، لذلك وجه رسول الله ﷺ أتباعه بعدم النفخ والتنفس في آنية الأكل والشرب: عن

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: "نهى رسول الله ﷺ أن يتنفس في الإناء أو ينفخ فيه"[1].

وفي الحديث أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الشراب، فقال رجل: القذاة أراها في الإناء؟ قال: «أهرقها» قال: فإني لا أروى من نفس واحد؟ قال: «**فأبن القدح إذًا عن فيك**»[2].

وقعت حادثة طريفة في إحدى القرى بدولة عربية وذلك أن عددا من الناس أصيبوا بمرض الدرن المعوي وفوجئ الأطباء بأن الجرثومة المسببة للمرض هي جرثومة السل الرئوي لا الجرثومة الخاصة بالسل المعوي، والتي تنتقل للإنسان عبر الطعام أو الشراب الملوث من الحيوانات المصابة، وفتش الأطباء عن سبب ذلك، فوجدوا أن امرأة مصابة بمرض السل الرئوي كانت تصنع الجبن والزبد وتبيعه للناس، وكان الخطر يكمن في طريقة استخلاص الزبد، حيث كانت تقتضي هذه الطريقة النفخ في القربة المحتوية علىٰ اللبن، حتى تنتفخ بهواء الزفير ليسهل خض اللبن فيها واستخلاص الزبد منه، فنقلت هذه السيدة جرثومة السل الرئوي إلىٰ اللبن، ومنه إلىٰ الجبن، وتسبب هذا في إصابة كل من أكل من هذا الجبن الملوث بمرض السل المعوي بجرثومة السل الرئوي. فلو عقلت هذه السيدة توجيهات نبيها بعدم النفخ في الطعام والشراب لوقت الناس المحيطين بها من هذا المرض الخطير!.

ومنعًا لانتشار الأمراض المعدية وصى النبي ﷺ أتباعه بتغطية وجوههم أثناء العطاس عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ "كان إذا عطس غطى وجهه بيديه أو بثوبه وغض بها صوته" رواه الترمذي. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تثاءب أحدكم فليضع يده علىٰ فيه**».

إن الإنسان حينما يعطس بغير حائل ينتشر الرذاذ من فمه وأنفه لمسافة تتراوح حوالي ثلاثة أمتار ويظل الرذاذ الدقيق معلقاً في الهواء وهو مليء بعدد

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه الترمذي.

هائل من الكائنات الدقيقة تصل إلىٰ ثلاثة مليون جرثومة في السنتيمتر المربع من الرذاذ المعلق.

ـ النهي عن استخدام الماء الراكد:

يعتبر الماء الراكد وسطاً ملائماً للكائنات الدقيقة لنمو الكثير من البكتريا كالكوليرا والسالمونيلا والشيجلا وغير ذلك كما تحتاج كثير من الديدان كالزحار الأميبي والديدان المستديرة والبلهارسيا إلىٰ الماء لإكمال دورة حياتها خارج جسم الإنسان، ويساعد التبول والتبرز علىٰ نمو هذه الديدان وسرعة تكاثرها وانتشارها لذلك نهى رسول الله ﷺ عن التبول في الماء الراكد الذي لا يجري لكي يقي الماء من التلوث، ويقي الإنسان من الإصابة بهذه الكائنات الممرضة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه**»[1].

ـ وقاية الماء من التلوث:

لوقاية الماء من التلوث أيضا نهى النبي ﷺ عن إدخال المستيقظ من النوم يده في الإناء قبل أن يغسلها ويطهرها فلعله مس أو حك بها سوأته أو عضواً مريضاً متقرحاً من جسمه وهو نائم. قال رسول الله ﷺ «**إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثًا فإنه لا يدري أين باتت يده**»[2].

ولحفظ الماء من التلوث أيضاً نهى النبي ﷺ عن الشرب من فم السقاء. روى البخاري بسنده عن ابن عباس ﷺ: " نهى النبي ﷺ أن يشرب من فيّ السقاء ".

ـ التوجيهات النبوية في حفظ المجتمع من الأوبئة ومنع انتشارها:

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

ـ الوقاية من انتشار الأوبئة:

أوصى رسول الله ﷺ بتغطية آنية الطعام وربط قرب الماء منعًا لتلوثها بالجراثيم المحمولة عبر الرياح والتي قد تنتقل من أماكن بعيدة فتسبب انفجارات وبائية مدمرة فقال ﷺ: «**غطوا الإناء وأوكوا السقاء فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء**»[1].

وفي رواية لمسلم أيضًا (يوم بدل ليلة)، فالحديث يقرر أن هناك وباء ينزل في ليلة أو يوم واحد في السنة،وله صورة مادية ملموسة تتحرك وتنزل وتمر بالآنية وتنزل فيها أولا تنزل، ويقرر الحديث أيضا أن مسببات هذه الأوبئة قد تنزل ليلا أو نهارا تبعا للعوامل الجوية العديدة التي قد تؤثر في تكاثرها وحركتها وانتشارها، ويقرر الحديث أيضا أن الأطعمة والأشربة وسط ملائم لانتشار الأوبئة من خلالها وأنه يمكن الوقاية منها بتغطية الآنية والأسقية.

وقد أثبت العلم الحديث أن هناك أوقات معينة في فصول السنة يصعب تحديدها أو التنبؤ بها يمكن أن تحمل الرياح فيها أعداد هائلة من الجراثيم المتحوصلة ومن أماكن بعيدة جداً إلىٰ أماكن معينة فتسبب انفجار وبائياً لبعض الأمراض.

قاعدتي العزل والحجر الصحي:

فمنعا لانتشار الأمراض والأوبئة وضع رسول الله ﷺ قاعدتين أساسيتين تعتبران من أساسيات الطب الوقائي الحديث بعد اكتشاف مسببات الأمراض والأوبئة وهما قاعدتي العزل والحجر الصحي، ففي الوقاية من الإصابة والعدوى بالجراثيم الممرضة قال النبي ﷺ: «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم فرارك من الأسد**»[2].

وفي عزل المرضى عن الأصحاء قال رسول الله ﷺ: «**لا يوردن ممرض**

---

(١) رواه الإمام مسلم.

(٢) رواه البخاري.

علىٰ مُصِح»[1].

ولحصر الأوبئة الفتاكة ومنع انتشارها في ديار المسلمين قال، ﷺ **«إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوا عليه وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه»**[2].

قوله، ﷺ: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوا عليه وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه»[3].

ولضمان تنفيذ هذه الوصية النبوية العظيمة فقد ضرب سوراً حول مكان الوباء، ووعد الصابر والمحتسب بالبقاء في مكان المرض بأجر الشهداء، والفار منه بالويل والثبور قال ﷺ: **«الفار من الطاعون كالفار من الزحف ومن صبر فيه كان له أجر شهيد»**[4].

إذا قيل هذا الكلام لرجل صحيح منذ مائتي عام فقط وهو يرى صرعى المرض الوبائي يتساقطون حوله وهو بكامل قواه وقيل له امكث في مكانك لا تخرج لاعتبر هذا الكلام جنوناً أو عدوانا علىٰ حقه في الحياة، ويفر هاربا بنفسه إلىٰ مكان آخر خال من الوباء، وكان المسلمون هم الوحيدون بين بني البشر الذي لا يفرون من مكان الوباء، منفذين أمر نبيهم ولا يدركون لذلك حكمة. حتى تقدمت العلوم واكتشفت العوالم الخفية من الكائنات الدقيقة، وعُرفت طرق تكاثرها وانتشارها وتسببها للأمراض والأوبئة، وتبين أن الأصحاء الذين لا تبدو عليهم أعراض المرض في مكان الوباء هم حاملون لميكروب المرض، وأنهم يشكلون مصدر الخطر الحقيقي في نقل الوباء إلىٰ أماكن أخرى إذا انتقلوا إليها، وبسبب اكتشاف هذه الحقيقة نشأ نظام الحجر الصحي المعروف عالميا الآن والذي يمنع فيه جميع سكان المدينة التي ظهر فيها الوباء من الخروج منها كما يمنع دخولها لأي قادم إليها، لقد كان غير

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) رواه الشيخان.

(٤) رواه أحمد.

المسلمين يسخرون من المسلمين لهذا الأمر حتى ضربهم الطاعون فأهلك ربع سكان أوربا في القرن الرابع عشر. لقد كانت الأوبئة تتكسر حدتها عند حدود العالم الإسلامي وذلك لتطبيق توجيهات نبيهم في هذا الأمر.

لقد سبقت نصوص الشريعة كل المعارف الإنسانية بقرون عديدة في تقريرها لقاعدتي العزل والحجر الصحي فمن أطلع محمدًا ﷺ على هذه الحقائق إنه الله جل في علاه القائل: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء:١٦٦] .

***

المطلب الثالث

الإعجاز التشريعي في تحريم بعض الأطعمة والأشربة التي فيها هلاك النفس

تمهيد:

الدين الإسلام هو خاتم هذه الشرائع السماوية وأعظمها. فاق جميع ما سبقه من شرائع، وبلغ الذروة في كل تشريعاته. وأكد الإسلام على حفظ الضرورات الخمس، وحرص كل الحرص على صحة الإنسان وحمايته من كل ما يضر جسده ويفسد روحه.

لقد بينت النصوص القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، ما يحل وما يحرم من الأطعمة والأشربة. وأكّد الحق جل وعلى في كتابه العزيز، حقيقة أزلية خالدة إلى يوم الدين، مؤداها أنّ كل طيب حلال، وأنّ كل حرام خبيث.

قال تبارك وتعالى في الطيبات: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة: ٤].

وقال أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًاۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال آمراً جميع البشر بأكل الطيب (الحلال) من الأطعمة، ومنفراً إياهم من خلاف ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال تعالى محذراً المؤمنين من الخبائث، ومنفراً أصحاب الطبع السليم منها: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة: ١٠٠].

وقال أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا

لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وجمع الله تبارك وتعالىٰ الأمرين معاً (الترغيب في الطيبات والتنفير من المحرمات)، في جزء من آية واحدة، فبين ـ سبحانه ـ بذلك جانباً من جوانب إعجاز هذا القرآن التي لا تعدّ ولا تحصى، حين قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

بهذه الكلمات الست المعجزات، وضع المشرع سبحانه وتعالىٰ للبشرية جمعاء، قانوناً ثابتاً وميزاناً دقيقاً، يمكّنهم من أن يزِنوا به كل المستجدات التي طرأت بعد زمن الرسول الكريم وحتى قيام الساعة، ليعرفوا طيبها من خبيثها، ونافعها من ضارها، فيُقبلوا علىٰ الطيبات ويبتعدوا عن الخبائث المحرمات، فأكّد بكل وضوح وجلاء أنّ شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان.

وسنأخذ مثالا على ذلك متمثلا في الإعجاز التشريعي في تحريم لحم الخنزير:

وسنتناول إن شاء الله بعضاً من الأسباب العديدة التي من أجلها حرم الله تعالىٰ الخنزير، مؤكدين في هذا الصدد أنّ الدراسات المنشورة ـ علىٰ كثرتها ـ لا تظهر إلاّ نزراً يسيراً من مضار أكل لحم الخنزبر، والتعايش مع هذا الحيوان الموغل في القذارة. ونحن علىٰ يقين تام بأنّ السنوات القادمة ستكشف للناس مزيداً من جوانب الإعجاز التشريعي في تحريم الخنزير. لكن مهما بلغ التقدم العلمي، فسيبقى علم البشر قاصراً، وإدراكهم محدوداً، والله هو العليم الحكيم.

أولا: تحريم الخنـزير في القرآن الكريم.

أورد القرآن الكريم تحريم لحم الخنزير في أربعة مواضع:

١. قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٣].

٢. وقوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣].

٣. وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: ١٤٥].

٤. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل: ١١٥].

ولم يورد القرآن الكريم كلمة "خنزير" بصيغة الإفراد إلاّ في هذه المواضع الأربعة، لكنّه أوردها بصيغة الجمع في موطن آخر لا غير، وهو قوله تعالىٰ معرضاً باليهود الذين تنكروا لدعوة الرسول الكريم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠].

ولو رجعنا إلىٰ الآيات الأربع لوجدنا أنّ تحريم لحم الخنزير كان قطعيًا فيها جميعاً، من أول آية نزلت إلىٰ آخر آية. فلم يحرم المشرع سبحانه لحم الخنزير بالتدريج كما حرّم الخمر، ليدلل بذلك علىٰ مدى الضرر الذي يسببه هذا الحيوان لآكليه من البشر.

وبالنظر إلىٰ الآيات الأربع مرة أخري، نجد أنّ آية سورة الأنعام هي الوحيدة التي تعلل سبب تحريم لحم الخنزير، حيث قوله تعالىٰ: .... ﴿أَوْ

لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] .... فوصف الخنزير بأنّه "رجس".قال الفيروزآبادي: الرجس القذر[١].

وقال البيضاوي في تفسيره: الرجس القذر، وسمي بذلك لتعوده أكل النجس [٢].

يقول الشيخ مصطفى الزرقا رحمه الله: "التعليل العام الذي ورد في تحريم المحرمات من المآكل والمشارب ونحوهما يرشد إلىٰ حكمة التحريم في الخنزير، وذلك التعليل العام هو قول الله تعالىٰ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

فهذا يشمل بعمومه تعليل تحريم لحم الخنزير، ويفيد أنه معدود في نظر الشريعة الإسلامية من جملة الخبائث. والخبائث في هذا المقام يراد بها ما فيه فساد لحياة الإنسان في صحته أو في ماله أو في أخلاقه، فكل ما تكون مغبته وعواقبه وخيمة من أحد النواحي الهامة في حياة الإنسان، دَخَل في عموم الخبائث"[٣].

ويقول سيد قطب رحمه الله في تفسير الآية ٣ من سورة المائدة: "وسواء وصل العلم البشري إلىٰ حكمة هذا التحريم أم لم يصل، فقد قرر العلم الإلهي أن هذه المطاعم ليست طيبة، وهذا وحده يكفي. فالله لا يحرم إلا الخبائث، وإلا ما يؤذي الحياة البشرية في جانب من جوانبها. سواء علم الناس بهذا الأذى أو جهلوه. وهل علم الناس كل ما يؤذي وكل ما يفيد؟!"[٤].

ونقل ابن كثير رحمه الله عن بعض أهل العلم قوله: "فكل ما أحل الله تعالىٰ من المآكل طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين"[٥].

وينبه الدكتور عبد الحافظ حلمي إلىٰ علة تحريم الخنزير قائلاً: "وينبغي

---

(١) القاموس المحيط. محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. مؤسسة الرسالة-بيروت. الطبعة الثانية. ص: ٧٠٦.

(٢) تفسير البيضاوي. المجلد الأول.

(٣) http//:www.islam-online.net/iol-arab...27/fatwa-2.asp.

(٤) في ظلال القرآن. سيد قطب. الناشر دار الشروق - بيروت . الطبعة الثالثة عشر. المجلد الثاني، ص ٨٤٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. الناشر دار المعرفة-بيروت . الطبعة السادسة. المجلد الثاني، ص ٢٦٤.

الالتفات إلىٰ أن لحم الخنزير ينفرد من بين جميع اللحوم المذكورة في آيات التحريم بأنه حرام لذاته، أي لعلة ـ أو علل ـ مستقرة فيه أو وصف لاصق به، أما أنواع اللحوم الأخرى فهي محرمة لعلة عارضة عليها ولكنها تكون حلالا طيبا إذا ذكيت بالطريقة المشروعة"[1].

أما ما يحرم من الخنزير، فلا خلاف بين علماء المسلمين قاطبة في تحريم الخنزير بجميع أجزائه، الشحم واللحم والأحشاء والعظم والجلد والغضاريف وغير ذلك. لكنهم اختلفوا في بعض الجزئيات اليسيرة أكالشعر مثلًا هل يجوز استخدامه أم يحرم ذلك.

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أجمعت الأمة الإسلامية علىٰ أن الخنزير بجميع أجزائه محرم وإنما ذكر الله تعالىٰ اللحم لأن معظم الانتفاع يتعلق به [2].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره الجامع لأحكام القرآن: "لا خلاف أن جملة الخنزير محرمة إلا الشعر فإنه يجوز الخرازة به. وقد روي أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن الخرازة بشعر الخنزير، فقال: لا بأس بذلك، ذكره ابن خويزمنداد، قال: ولأن الخرازة علىٰ عهد رسول الله ﷺ كانت، وبعده موجودة ظاهرة، لا نعلم أن رسول ﷺ أنكرها ولا أحد من الأئمة بعده. وما أجازه الرسول ﷺ فهو كابتداء الشرع منه"[3].

وقال ابن حزم الظاهري في المحلى: "لا يحل أكل شيء من الخنزير لا لحمه ولا شحمه ولا جلده ولا عصبه ولا غضروفه ولا حشوته ولا مخه ولا عظمه ولا رأسه ولا أطرافه ولا لبنه ولا شعره، الذكر والأنثى، والصغير والكبير سواء. ولا يحل الانتفاع بشعره لا في خرز ولا غيره". ثم يقول " فالخنزير بعينه رجس وهو كله رجس. وبعض الرجس رجس حرام يجب اجتنابه"[4].

---

(١) http//:www.islamset.com/arabic/ahip.../ABDALHAFZ.html

(٢) الكشاف. الفخر الرازي. المجلد الأول.

(٣) الجامع لأحكام القرآن. للإمام القرطبي. المجلد الأول.

(٤) المحلى بالآثار والحكم. ابن حزم الظاهري.

ثانيا: تحريم الخنـزير في الحديث النبوي الشريف.

وردت كلمة خنزبر ومشتقاتها أكثر من مائة مرة في السنة النبوية المطهرة، كلها في مجال الذم والقدح والتنكيل والتحذير. وسوف نقتصر علىٰ ذكر حديثين منها، ففيهما ما يكفي للدلالة علىٰ موقف الشريعة الإسلامية من هذا الحيوان القميء.

عن سليمان بن بريدة عن أبيه أنّ النبي ﷺ قال: «**من لعب بِالنَّرْدَشِيرِ فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه**» (النَّرْدَشير: الزهر)[1].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول عام الفتح وهو بمكة: «**إنَّ الله ورسوله حرَّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام**». فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة، فإنّها يطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس. فقال: «**لا هو حرام**». ثمَّ قال رسول الله ﷺ «**عند ذلك: قاتل الله اليهود إنّ الله لمّا حرم شحومها جملوه ثمَّ باعوه فأكلوا ثمنه**»[2].

فالحديث الأول يذم ذماً شديداً كل من يلعب بالنردشير، لدرجة تشبيهه بمن يصبغ يده في لحم الخنزير ودمه. فإذا كان هذا حال من يصبغ يده بلحم الخنزير، فكيف يكون حال من يأكل لحم هذا الحيوان؟!.

قال ابن كثير: فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس فكيف التهديد والوعيد من أكله والتغذي به؟ وفيه دلالة علىٰ شمول التحريم علىٰ شمول التحريم لجميع أجزائه من لحم وشحم وغيره.

أما الحديث الثاني، ففيه تصريح بتحريم بيع الخنزير أو الاستفادة من أي جزء منه. فقد دعاء النبي ﷺ علىٰ اليهود بسبب تحايلهم علىٰ شرع الله، وذلك بمحاولتهم الاستفادة مما حرّم الله عليهم أكله، عن طريق تحويله إلىٰ شكل آخر.

---

(١) رواه مسلم (٤١٩٤) وأبو داود (٤٢٨٨) وابن ماجة (٣٧٥٣) وأحمد (٢١٩٠١، ٢١٩٤٧، ٢١٩٧٨، ٢٢٠٥٧).

(٢) رواه البخاري (٢٠٨٢) ومسلم (٢٩٦٠) والترمذي (١٢١٨) والنسائي (٤١٨٣،٤٥٩٠) وأبو داود (٣٠٢٤) وابن ماجة (٢١٥٨) وأحمد (٦٧٠٢، ١٣٩٤٨، ١٣٩٧١).

ثالثا: صفات الخنـزير وطباعه.

الخنزير حيوان عشبي لاحم (omnivore) خبيث الطبع، تجتمع فيه صفات السباع اللاحمة وصفات البهائم العشبية. وهو علاوة علىٰ ذلك حيوان نهم كانس، يكنس الحقل والزريبة ويأكل كل شيء. فيأكل القمامات، ويأكل الفضلات بما في ذلك فضلاته البرازية، كما يأكل القاذورات والديدان وكل النجاسات. والخنزير حيوان نهم شره لا يمتنع عن أكل أي شيْ، فيأكل الجرذان والفئران والجيف المتعفنة، وحتى جيف أقرانه.

يروي الدكتور هانس هايترش قصة طريفة تدلل علىٰ نهم الخنزير وشراهته. جرت هذه الواقعة في أحد المستشفيات العسكرية، حيث كانت هناك حظيرة للخنازير ملحقة بالمستشفي، لإعداد الطعام للمرضى والعاملين في المستشفي. وفي أحد الأيام تدافعت الخنازير علىٰ الفرن المملوء بالضمادات المضمخة بالقيح والمهياة للحرق فالتهمتها. وتوفيراً للعلف قررت إدارة المستشفى أن يصبح نصف الضمادات المبللة بالقيح والأوساخ طعاماً للخنازير. وهكذا أصبح مرضى ذلك المستشفى يغذون بلحم خنازير مفعمة بالسموم والذيفانات!!!.

تبلغ أنثى الخنزير الأمريكي والأوروبي بعد خمسة أشهر من ولادتها وتصبح قادرة علىٰ الحمل والإنجاب. لكن عمر البلوغ لأنثى الخنزير الصيني أقل من ذلك، إذ تصبح قادرة علىٰ الحمل بعد ثلاثة أشهر فقط من ولادتها. وتتكرر دورة الشبق لها مرة كل ٢١ يوماً. وتبلغ مدة الحمل ٣ أشهر و٣ أسابيع و٣ أيام، أي ١١٤ يوماً.

وتضع الأنثى بين ٣ ـ ١٢ خنوصاً في كل مرة، ويمكنها أن تلد ثلاث مرات في السنة. ويتراوح معدل الإنجاب لأنثى الخنزير الواحدة ١٥ ـ ٣٠ خنوصاً في العام الواحد. وتحتاج الأنثى ٢١ بوماً لإرضاع صغارها، و٥ أيام للعودة إلىٰ دورة الشبق.

والخنزير حيوان سريع النمو، فهو يزن عند الولادة حوالي ٢ كج، لكنّ

وزنه يتضاعف أكثر من ٥٠ مرة، ليصل في غضون ستة أشهر إلىٰ قرابة ١١٢ كج. ويرجع سبب هذا النمو السريع إلىٰ الزيادة الكبيرة في إفراز هرمون النمو عند الخنزير.(١)

رابعا: الأمراض التي ينقلها الخنزير للإنسان.

يبلغ عدد الأمراض التي تصيب الخنزير ٤٥٠ مرضاً، منها ٥٧ مرضاً طفيلياً تنتقل منه إلىٰ الإنسان، بعضها خطير بل وقاتل. ويختص الخنزير بمفرده بنقل ٢٧ مرضاً وبائياً إلىٰ الإنسان، وتشاركه بعض الحيوانات الأخرى في نقل بقية الأمراض، لكنه يبقى المخزن والمصدر الرئيسي لهذه الأمراض. هذا عدا عن الأمراض الكثيرة التي يسببها أكل لحمه كتليف الكبد، وتصلب الشرايين، وضعف الذاكرة، والعقم، والتهاب المفاصل، والسرطانات المختلفة، و .... وغيرها مما سيأتي الحديث عنه. ونحن علىٰ يقين بأنّ عدد الأمراض سيزداد مع مرور الأيام، وأنّ السنوات القادمة ستكشف أمراضاً جديدة تنتقل من الخنزير إلىٰ بني البشر.

أولاً: البريونات (Prions).

١ ـ مرض جنون البقر. يسبب هذا المرض الفتاك أجسام بروتينية صغيرة تسمى البريونات. هذه الأجسام لها قدرة علىٰ إحداث أمراض خطيرة للحيوانات وللبشر أيضاً. ومصدر الخطورة يكمن في قدرة البريونات علىٰ تغيير شكل البروتينات الطبيعية الموجودة في خلايا مناطق حساسة ـ كالدماغ مثلاً ـ وتحويلها إلىٰ بريونات، مسببة تلف الدماغ، فالجنون ثم الموت. لقد أثارت هذه الأجسام موجة شديدة من الذعر للبشر، عندما أعلن الأطباء عن أول إصابة بين البشر بمرض جنون البقر الذي تسببه البريونات. لقد أكدت التقارير العلمية أنّ الخنازير تصاب بهذا المرض، مما يجعل إمكانية انتقاله إلىٰ آكلي لحوم الخنزير عرضة للإصابة بالمرض.

ومما يبعث الهلع في النفوس، أنّ البريونات لا يمكن القضاء عليها بالطبخ ولا

---

(١) http//:www.alsehha.net/arabic

بطرق التعقيم الطبية الحديثة، وفترة كمونها في الجسم قد تمتد لسنوات طويلة (تتراوح بين ٥ ـ ٢٠ سنة)، ولا يوجد علاج لما تسببه من أعراض مرضية في الوقت الراهن، والوسيلة الوحيدة لمنع انتقالها هي القضاء علىٰ الحيوانات المصابة. يذكر أنّ مرض جنون البقر لم يكن معروفاً قبل عام ١٩٨٢م، وأنّه تسبب في موت عشرات الأشخاص في بريطانيا خلال العام ٢٠٠٠م.

لقد كشف مرض جنون البقر حقائق مريعة للمدى الذي يمكن أن يصل إليه البشر من أجل زيادة الدخل المادي، دون اعتبار للقيم والأخلاقيات الإنسانية، ودون اكتراث بالنتائج المترتبة علىٰ هذه التصرفات اللامسئولة. لقد تبيّن أنّ مربي الحيوانات اللاّحمة يسمنوها علىٰ بقايا الحيوانات اللاّحمة، فيطعمون الأبقار والأغنام والدجاج والخنازير، لحوم الماشية والخنازير ومخلفات المسالخ!!!

ثانياً: الفيروسات (Viruses).

يصيب الخنزير مجموعة كبيرة من الفيروسات، منها ما تنقله الخنازير إلىٰ الإنسان، فيسبب له أمراضاً فيروسية خطيرة، مثل:

٢ ـ فيروس الأنفلونزا. لقد تمّ عزل فبروس الأنفلونزا من عينات أخذت من الإنسان، والخيل، والخنازير، والطيور الداجنة والبرية، وحتى من بعض الثديات البحرية [١]. وكان أخطر وباء أصاب العالم من هذه الأنفلونزا، الوباء الذى حدث عام ١٩١٨م، وأطلق عليه آنذاك اسم "الأنفلونزا الإسبانية". فقد تفشى هذا الوباء في شتى أنحاء المعمورة، مخلّفاً وراءه ملايين الجثث، وناشراً الذعر والهلع غي كل مكان.

يذكر أنّ وباء الأنفلونزا الذي لم يشهد القرن العشرين له مثيلا في الحدة والانتشار، أدى إلىٰ إزهاق أكثر من ٢٠ مليون نسمة خلال عامي ١٩١٨ ـ ١٩١٩م، وأنّه حصد في الولايات المتحدة أرواح ٥٥٠ ألف نسمة خلال عام

---

(١) عبد الحافظ حلمي محمد. الزحار البلنتيدي ومرض الديدان المثانية ومرض التريكينا ثلاثة تهديدات محتملة للبلاد الإسلامية دراسة وبائية ورسالة تحذير.

واحد، أغلبهم من الشباب، وهو ما يوازي عشرة أضعاف الأمريكان الذين قتلوا خلال الحرب العالمية الأولى[1]. ويؤكد بعض الباحثين، بأنّ الفيروس المسبب لهذا الوباء المهلك تحوّر عن فيروس أنفلونزا الخنازير في الولايات المتحدة.، ومن ثمّ انتقل بواسطة الجنود الأمريكيين إلىٰ شتى بقاع الأرض. ومنذ ذلك الحين، تعرض العالم لموجتين من الأنفلونزا، كانت الأولى عام ١٩٥٧م ذهب ضحيتها ٧٠ ألفاً، والثانية عام ١٩٦٨م ذهب ضحيتها قرابة ٤٧ ألفاً.

٣ ـ فيروس نيبا (Nipah virus). لم يعرف العالم هذا الفيروس المميت قبل أكتوبر/ تشرين أول من عام ١٩٩٨م. فقد عالج الأطباء في ماليزيا ٣٠٠ إصابة بما يشبه أعراض الأنفلونزا، سرعان ما توفي ١١٧ مريضاً منهم بفيروس "نيبا" الغامض، وأصيب العشرات منهم بتلف دماغي. ويعتقد الأطباء الماليزيون أنّ الفيروس الخطير ربما انتقل من خفاش الفواكه إلىٰ الخنازير، ومنها إلىٰ الإنسان، حيث أظهرت المتابعات الطبية أنّ جميع المصابين بالمرض كانت تربطهم علاقة قوية بالخنازير، مما حدا بالدوائر الصحية في ماليزيا إلىٰ قتل مليون خنزير.

٤ ـ فيروس الالتهاب الرئوي الحاد (سارس/ SARS coronavirus). لا أعتقد أننا بحاجة لتوضيح خطورة هذا المرض الفيروسي القاتل، فالهلع الذي تسبّبه كلمة "سارس" في كافة دول العالم، يغنينا عن ذلك. لكن ما يعنينا في هذا المقام هي الحقائق المتعلقة بظهور هذا المرض الخطير. فقد ذكرت التقارير أنّ المرض ظهر أولا في الصين، وأنّ ٣٠% ممن أصيب بالمرض في بداية الأمر كانوا من المتعاملين بالأطعمة، وأنّه تمّ عزل الفيروس من الأفاعي والخنازير البرية والقردة والخفافيش. وإذا أضفنا إلىٰ ذلك أنّ الصين هي أكبر مستهلك للخنازير علىٰ وجه الأرض، إذ يبلغ استهلاكها نصف استهلاك العالم، ظهر لنا بوضوح علاقة الخنزير بمرض سارس.

٥ ـ فيروس الحمى القلاعية (Foot & Mouth Disease). فيما يبدو

---

(١) المرجع السابق.

ليس من سبيل إلىٰ وضع حد لوباء الحمى القلاعيّة التي أهلكت الثروة الحيوانية البريطانية في بداية عام ٢٠٠١م. فبعد أيام قليلة علىٰ تشخيص الأطباء البيطريين ٢٧ إصابة بين خنازير أحد المسالخ الريفيّة، فرضت الحكومة حظراً علىٰ كافة عمليات نقل الحيوانات. لكن هذا الإجراء لم يحل دون انتشار المرض خارج بريطانيا، فسرعان ما انتشر الوباء في القارة الأوروبية. ولم يجد البريطانيون مناصاً من القيام بحملة واسعة النطاق للقضاء علىٰ الخنازير المصابة، ذهب ضحيتها ٣,٧٥ مليون من حيوانات المزرعة وألحق أضرارا بالغة بسبل معيشة آلاف المزارعين وبالاقتصاد الريفي وبقطاع السياحة. يذكر أنّ مرض الحمى القلاعية انتشر عام ١٩٩٧م في جزيرة تايوان برمتها، في أقلّ من شهرين وطالت آثاره المدمرة ٦٠٠٠ مزرعة، وأسف عن ذبح ٣,٨ مليون خنزير. ومن المعروف علمياً أنّ المرض ينتقل من الخنازير إلىٰ الإنسان.

٦ ـ فيروس مرض الكلب (Rabies virus). هذا الفيروس يصيب الحيوانات آكلة اللحوم، وينتقل منها بواسطة العض إلىٰ الحيوانات الأخرى بما في ذلك الإنسان. والخنزير من الحيوانات المفترسة التي تأكل الجرذان والجيف. لذا فهو عرضة لهذا المرض، والناس الذين يربون الخنازير أو يأكلون لحومها ومنتجاتها أيضاً معرضون للإصابة بداء الكلب.

٧ ـ فيروس إلتهاب الدماغ الياباني (Japanese encephalitis). ينتشر هذا الفيروس بين مربي الخنازير في مناطق شرق آسيا، وهو يصيب الطيور، وينتقل منها بواسطة البعوض إلىٰ الخنازير، التي بدورها تنقله إلىٰ الإنسان. ويسبب هذا الفيروس إلتهاب الدماغ في الإنسان، الذي يكون مميتاً في بعض الأحيان.

٨ ـ فيروس حمى نهر روس (Ross River fever Virus). يسبب هذا الفيروس آلاماً وحمى وانتفاخاً في المفاصل وخمولاً. وقد تستمر هذه الأعراض عدة أسابيع. ففي عام ١٩٩٦م، أصيب بهذا المرض أكثر من ١٠٠٠ أسترالي في مقاطعة نيوساوث ويلز. يعيش هذا الفيروس في الخنازير وغيرها،

ويقوم البعوض بنقله إلىٰ الإنسان.

٩ ـ فيروس الخنزير التقرحي (Swine Vesicular Virus). سُجِّل أول ظهور لهذا الفيروس عام ١٩٦٦م في إيطاليا، ليظهر بشكل وبائي في بريطانيا عام ١٩٧٢، حيث أصاب خلال السنوات العشر التالية أكثر من ٣٢٢ ألف خنزير في بريطانيا وحدها. ينتقل هذا الفيروس من الخنازير إلىٰ البشر عن طريق المخالطة، حيث يسبب حمى وآلاماً في المفاصل والعضلات. يذكر أنّ الخنزير هو العائل الطبيعي الوحيد لهذا الفيروس.

١٠ ـ فيروس تقرُّح الفم (Vesicular Stomatitis Virus). تشبه أعراض هذا المرض أعراض مرض الحمى القلاعية، حيث يسبب تقرحات الفم واللسان والأرجل والأظلاف، كما يسبب ارتفاعاً في حرارة الجسم.

١١ ـ فيروس إلتهاب الدماغ والقلب (Encephalomyocarditis). تعتبر الجرذان مستودع هذا الفيروس الخطير، كما تعتبر الخنازير أكثر حيوانات الحظيرة إصابة بالمرض. وعادة ما تنتقل العدوى من الجرذان إلىٰ الخنازير. يسبب هذا الفيروس إلتهاب الدماغ والقلب، مما قد يودي بحياة المرضى.

١٢ ـ فيروس الجدري (Small pox virus). يصيب الخنازير ويمكن أن يعدي البشر.

١٣ ـ فيروس الحمى الصفراء (Yellow fever virus). يمكن أن ينتقل إلىٰ البشر من الخنازير.

ثالثاً: البكتيريا (Bacteria).

يصيب الخنزير مجموعة كبيرة من البكتيريا، حيث تنتقل منها إلىٰ الإنسان، مسببة له أمراضاً خطيرة، بل وقاتلة. وسنستعرض باختصار أهم الأنواع الممرضة وعلاقة الخنزير بنقلها إلىٰ الإنسان.

١٤ ـ بكتيريا الحمى المالطية (Brucellosis). تسبب مرض الحمى المالطية ثلاثة أنواع من البكتيريا، وهي تصيب الماشية والخنازير، حيث تنتقل منها إلىٰ الإنسان. لكنّ أخطر الثلاثة هو النوع الذي يصيب الخنازير

(Brucella suis)، إذ إنّه يسبب للمصابين به من بني البشر إلتهاب السحايا، إلتهاب عضلة القلب، إلتهاب المفاصل، تورم الطحال، وغير ذلك من الأمراض الخطيرة.

١٥ ـ بكتيريا السالمونيلا (Salmonellosis). تسبب هذه البكتيريا للإنسان عدة أمراض، مثل التيفود وبارا التيفود والتسمم الغذائي. ظهرت في بريطانيا عام ١٩٩٠م فصيلة جديدة من بكتيريا السالمونيلا عرفت بـ (Salmonella serotype DT ١٠٤)، سرعان ما أصبحت مصدر قلق للأوساط الطبية هناك. فهي مقاومة لكثير من المضادات الحيوية، علاوة علىٰ شدة فتكها بالمصابين بها. والملفت للنظر أنّ جُلّ مرضى السالمونيلا البريطانيين، كانوا من أصحاب الحظائر، أو المتعاملين بلحوم الأبقار والخنازير والدواجن، أو المستهلكين لها. وهنا أيضاً يبدو الارتباط واضحاً بين تربية الخنازير أو أكل لحومها ومنتجاتها، والإصابة بالسالمونيلا.

١٦ ـ بكتيريا البريميات (Leptospira interrogans). يسبب هذا النوع من البكتيريا مرضاً يعرف بـ داء البريميات (Leptospirosis) . وتتراوح أعراض هذا الداء في الإنسان، بين خفيفة (كارتفاع طفيف في حرارة الجسم)، وخطيرة (نحو الفشل الكلوي). أما في الخنازير، فتحدث البكتيريا اضطراب الجهاز التناسلي فيها. ويمكن للخنازير نقل هذا المرض إلىٰ الإنسان.

١٧ ـ بكتيريا لستيريا (Listeria monocytogenes). تسبب هذه البكتيريا مرض الالتهاب السحائي الدماغي، وموت الأجنة، وتسمم الدم. ولم تكن بكتيريا لستيريا معروفة قبل عام ١٩٦٨م، حين وقعت حالات غامضة من الوفيات في الدانمرك وهولندا. وقد تبين أن هذه الجراثيم شديدة الفتك بالإنسان، إذ تسبب له إلتهاب السحايا، كما تفرز سموماً في دم المصاب، كما تبلغ نسبة الوفاة بالمرض ٤٠% من الحالات الشديدة. والذين أصيبوا بهذا المرض ونجوا من الموت بعد علاج شاق، عانوا الصمم الدائم وفقدان التوازن. يذكر أنّ دراسة أجراها مركز مراقبة الأمراض في الولايات المتحدة،

أظهرت أنّه في المتوسط، يصاب ١٦٠٠ مواطناً بالمرض كل عام، يتوفي منهم ٤١٥ مريضاً [١].

وفي ولاية البنغال الهندية، أدى وباء اللستيريا إلىٰ وفاة آلاف الهنود عام ١٩٨٤م. يشار إلىٰ إنّ الإصابة الوبائية بهذا المرض مرتبطة بالوجبات السريعة، كما يعتبر الخنزير أكثر الحيوانات نقلاً لبكتيريا لستيريا إلىٰ الإنسان.

١٨ ـ بكتيريا الجمرة الخبيثة (Bacillus anthracis). تنتقل بكتيريا الجمرة الخنزيرية الخبيثة من الخنزير إلىٰ اللحامين والدباغين وسواهم وتكون بشكل لوحة محمرة مؤلمة جداً، وحارقة علىٰ الأيدي مع ارتفاع الحرارة والقشعريرة، والتهاب العقد والأوعية اللمفاوية.

١٩ ـ بكتيريا القولون (Escherichia coli O١٥٧H:٧). كانت بداية ظهور هذه الفصيلة من بكتيريا القولون في الولايات المتحدة عام ١٩٨٢م، علىٰ أثر موجتين وبائيتين، ارتبطتا بساندويتشات الهامبورجر. بعد ذلك التاريخ، غدا هذا النوع من البكتيريا أحد أبرز مسببات الإسهال المصحوب بالدم في الولايات المتحدة، إذ تُسجَّل ٢٠ ألف إصابة سنوياً، ينجم عنها ٢٥٠ وفاة. أما في الأطفال، فتسبب البكتيريا مرض البول الدامي الذي يُعتبَر أحد مسببات الفشل الكلوي الحاد في أمريكا.

٢٠ ـ بكتيريا يرسينيا (Yersinia enterocolitis). يصيب الإنسان نوعان من بكتيريا يرسينيا هما: (Yersinia enterocolitis) التي تسبب في الأطفال الإسهال المصحوب بالدم والمخاط. أما النوع الثاني فهو(Yersinia poeudotuberculosis) الذي يسبب أحياناً تسمم الدم والتهاب المفاصل، كما يسبب أيضاً ألماً معوياً يشبه إلىٰ حد كبير إلتهاب الزائدة الدودية، الأمر الذي قد يلتبس علىٰ الأطباء فيخطئون التشخيص. ويعتبر الخنزير أكثر الحيوانات نقلا لنوعي يرسينيا للإنسان، حيث يصاب

---

(١) المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي: أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الرابع عن الطب الإسلامي، ١٩٨٦م، ص ٧٣٢-٧٣٨.

المتعاملون بلحوم الخنازير وآكلوها بنوعي بكتيريا يرسينيا (٥٦، ٧٧، ٧٨).

٢١ ـ بكتيريا كلوستريديوم (Clostridial species). يصيب الإنسان نوعان من بكتيريا كلوستريديوم هما: (Clostridium botulinum and Clostridium perferingens) اللذان يسببان التسمم الغذائي. وقد وُجد ما بين ٣٠ ـ ٨٠% من الخنازير المذبوحة تحوي (Clostridium perferingens)، وأنّ هذا النوع لا يتأثر بالطبخ العادي.

٢٢ ـ بكتيريا التقرُّحات الجلدية (Fusiformis necrophorum). يصيب هذا النوع من البكتيريا الخنازير والماشية، حيث ينتقل منها إلىٰ الإنسان. تسبب هذه البكتيريا تقرحات وخُرّاجات في الجلد والفم والكبد والقناة الهضمية والشرج والأعضاء التناسلية، كما تسبب تسمم الدم، وأمراضاً عديدة أخرى، وهي مقاومة لكثير من المضادات الحيوية.

٢٣ ـ بكتيريا الحُمْرة الجلدية (Erysipelothrix rhusiopathiae). يصيب هذا النوع من البكتيريا الخنازير والخيل والديك الرومي، وينتقل منها إلىٰ الإنسان، فيسبب له تهيجاً في الجلد، ويخلّف وراءه بقعاً حمراء مخيفة المنظر.

٢٣ ـ بكتيريا السل الرئوي (Mycobacterium tuberculosis). يسبب السل الرئوي ثلاثة أنواع من بكتيريا (Mycobacterium) نعتبر من الجراثيم الخطيرة جداً، إذ تتسبب في موت ما يربو علىٰ ٣ ملايين نسمة سنوياً، أغلبهم من الدول الفقيرة. تغزو البكتيريا الجهاز التنفسي، وتقوم بتدمير الحويصلات الهوائية، مسببة موت الكائن. ينتقل مرض السل الرئوي عن طريق مخالطة المرضى أو الكائنات المصابة، والتي تضم بينها الخنازير والأبقار والطيور. ويصاب الخنزير بأنواع البكتيريا الثلاثة. ونظراً لخطورتها، فقد قامت عدة مختبرات عالمية بتحليل المادة الوراثية لها لمعرفة الوسائل المثلى لمكافحتها.

٢٤ ـ بكتيريا التسمم الدموي (Melioidosis). يسبب هذا المرض الخطير نوع من البكتيريا تسمى (Pseudomonas pseudomallei).

وينتشر هذا المرض في جنوب شرق آسيا وشمال أستراليا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ومناطق أخرى من العالم. ويبدأ المرض حين تتمكن البكتيريا من دخول الجسم عن طريق الجلد المتهتك، لتحدث تسمم الدم خلال فترة قصيرة لا تتجاوز أحياناً ٤٨ ساعة. وتستطيع البكتيريا الانتقال عبر الدم لتصل إلىٰ القلب والدماغ والرئتين والكبد والكلى والعيون، فيسبب تقرحات خطيرة. وننوه هنا إلىٰ أنّ نسبة الوفاة بالمرض قد تصل إلىٰ ٦٥٪، وبأنّ نصف هؤلاء يموتون في غضون ٤٨ ساعة من الإصابة. بقي أن نذكر أنّ المرض يصيب الخنازير وينتقل منها إلىٰ الإنسان.

٢٥ ـ بكتيريا الإنسمام الدموي (Melioidosis). يسبب هذا المرض الخطير نوع من البكتيريا تسمى (Pseudomonas pseudomallei).
وينتشر هذا المرض في جنوب شرق آسيا وشمال أستراليا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ومناطق أخرى من العالم. ويبدأ المرض حين تتمكن البكتيريا من دخول الجسم عن طريق الجلد المتهتك، لتحدث تسمم الدم خلال فترة قصيرة لا تتجاوز أحياناً ٤٨ ساعة. وتستطيع البكتيريا الانتقال عبر الدم لتصل إلىٰ القلب والدماغ والرئتين والكبد والكلى والعيون، فيسبب تقرحات خطيرة. وننوه هنا إلىٰ أنّ نسبة الوفاة بالمرض قد تصل إلىٰ ٦٥٪، وبأنّ نصف هؤلاء يموتون في غضون ٤٨ ساعة من الإصابة. بقي أن نذكر أنّ المرض يصيب الخنازير وينتقل منها إلىٰ الإنسان.

٢٦ ـ بكتيريا (Pasteurollosis). تسبب البكتيريا تسمم الدم والالتهاب الرئوي والتهاب المفاصل والكلى، وتصيب الخنازير والكلاب والقطط والجرذان والماشية والطيور. تنتقل البكتيريا من هذه الكائنات إلىٰ الإنسان بطريق المخالطة.

٢٧ ـ بكتيريا والالتهاب الرئوي (Mycoplasmosis). تسبب بكتيريا (Mycoplasma suis) هذا المرض. وتصاب الخنازير بذات الرئة، الذي يمكن أن ينتقل منها إلىٰ الإنسان بطريق المخالطة.

رابعاً: الأوليات/ وحيدة الخلية (Protozoa).

ينقل الخنزير للإنسان مجموعة من الكائنات الأولية، بعضها يحدث اضطرابات خفيفة له، والبعض الآخر يسبب أمراضاً خطيرة ومميتة. وسنستعرض في الصفحات التالية أبرز الأمراض التي تسببها هذه الأوليات، ودور الخنزير في نقلها إلىٰ الإنسان.

٢٩ ـ الزحار البلنتيدي/ ألزقي (Balantidial Dysentery). الطفيلي المسبب لهذا المرض هو نوع من الأوليات الهدبية (لها أهداب)، يعرف بـ (Balantidium coli). وهو أكبر الأوليات التي تصيب الإنسان، وهو النوع الوحيد من الأوليات الهدبية التي تصيب الإنسان، كما إنّه من طفيليات الأمعاء الغليظة (القولون) في الخنازير والقردة وبخاصة الشمبانزي. ولأنّ فرص اتصال الإنسان بالقردة ضئيلة، فتبقى الخنازير من الناحية العملية المصدر الوحيد لعدوى الإنسان. ويوجد هذا الميكروب في براز الخنزير وينتقل إلىٰ طعام الإنسان بطرق عديدة، ليستقر في الأمعاء الغليظة، فيحدث إسهالا مصحوبا بالمخاط والدم، قد يؤدي للوفاة. وعادة لا ينتشر الزحار البلنتيدي إلا بين مربي الخنازير أو المتعاملي معها (ذبحها ونقلها وتجارتها)، فتتلوث أيديهم بحوصلات الطفيلي المعدية.

٣٠ ـ داء النوم الإفريقي (African Sleeping Sickness). الطفيلي المسبب لهذا الداء الفتاك هو (Trypanosoma gambiense). تنقل هذا الطفيلي ذبابة التسي ـ تسي بطريق الحقن، وذلك عندما تلدغ الإنسان. يسبب الطفيلي اضطراباً دماغياً، لا يلبس أن يتطور إلىٰ مرض النوم. وفي حال إهمال معالجة المريض، فإنّه يدخل في غيبوبة ويموت. بقي أن نؤكد علىٰ الدور التي تلعبه الخنازير في نقل هذا المرض للإنسان.

٣١ ـ مرض شاغاس (Chagas Sickness). هذا المرض أشد خطورة من النوع الأفريقي، والطفيلي المسبب له (Trypanosoma cruzi) أشد فتكاً. ينتشر هذا المرض في أمريكا الجنوبية والوسطى، وأعراضه مشابهة

لإعراض داء النوم الإفريقي، لكنه أكثر شراسة منه. وتلعب الخنازير دوراً مهما في نقل هذا المرض للإنسان.

٣٢ ـ داء المقوسات (Toxoplasmosis). يسبب هذا المرض طفيلي يسمى (Toxoplasma Gonadi). ينتقل هذا الطفيلي إلىٰ الإنسان بطريقين: إما عبر مشيمة الأم المصابة إلىٰ الجنين، أو يُكتَسَبُ من أحد حيوانات المستودع مثل القطط، الكلاب والطيور، والمواشي، والخنازير. ومن آثاره إسقاط الجنين في المرأة الحامل، أو ولادة جنين تام النضج لكنه يعاني من استسقاء الرأس، والتهاب شبكية ومشيمة العين، وتكلسات دماغية. يبلغ معدل الوفيات حوالي ١٠%، أمّا الناجون فقد تظهر عليهم يعض الأعراض كاستسقاء الرأس والتخلف العقلي واضطراب الرؤيا.

٣٢ ـ داء المقوسات (Toxoplasmosis). يسبب هذا المرض طفيلي يسمى (Toxoplasma Gonadi). ينتقل هذا الطفيلي إلىٰ الإنسان بطريقين: إما عبر مشيمة الأم المصابة إلىٰ الجنين، أو يُكتَسَبُ من أحد حيوانات المستودع مثل القطط، الكلاب والطيور، والمواشي، والخنازير. ومن آثاره إسقاط الجنين في المرأة الحامل، أو ولادة جنين تام النضج لكنه يعاني من استسقاء الرأس، والتهاب شبكية ومشيمة العين، وتكلسات دماغية. يبلغ معدل الوفيات حوالي١٠%، أمّا الناجون فقد تظهر عليهم يعض الأعراض كاستسقاء الرأس والتخلف العقلي واضطراب الرؤيا.

٣٣ ـ طفيل (Iodamoeba bltschlii). لا يسبب هذا الطفيلي أي مرض مزعج، لكنه يتشابه مع طفيل (Entamoeba histolytica) الذي يسبب الزحار الأميبي الخطير .ينتقل هذا الطفيلي إلىٰ الإنسان بواسطة الخنازير والقردة التي هي مستودعات له.

٣٤ ـ طفيل (Entamoeba polecki). ينتقل هذا الطفيلي إلىٰ الإنسان بواسطة مستودعاته من الخنازير والقردة، ولبس هناك دلائل تشير بوضوح إلىٰ ارتباط هذا الطفيلي بمرض في الإنسان.

٣٥ ـ طفيل (Endolimax nana). لا يعرف مرض يسببه هذا الطفيلي للإنسان. ينتقل هذا الطفيلي إلىٰ الإنسان بواسطة الخنازير.

خامساً: الديدان المفلطحة (Trematoda).

ينقل الخنزير للإنسان عددا من الديدان المفلطحة، غالبيتها يسبب له اضطرابات خطيرة. وأهم الديدان التي ينقلها الخنزير إلىٰ الإنسان هي:

٣٦ ـ البلهارسيا اليابانية (Schistosoma japonicum). تصيب البلهارسيا أكثر من ٢٠٠ مليون نسمة، ويموت بسببها قرابة المليون شخص سنوياً. تعيش هذه الدودة في الأوعية الدموية المعوية، حيث تضع بيوضاً تخترق هذه الأوعية الدموية، لتخرج إلىٰ البيئة الخارجية. تعيش هذه الديدان في جسم الإنسان مدة تصل إلىٰ ٣٠ سنة، وتحدث دماراً شديداً يؤدي أحيانا إلىٰ الموت. يصاب الخنزير بديدان البلهارسيا اليابانية والتي تنزل بويضاتها مع برازه، ومنه تنتقل للإنسان في كثير من بلدان العالم.

٣٧ ـ الدودة المتوارقة البسكية (Fasciolopsis buski). وهي من الديدان المعوية ـ الكبدية، والخنزير هو العائل الرئيس لنشر العدوى. وتعيش الديدان البالغة في الأمعاء محدثة التهابات موضعية ونزيف وتقرحات في جذر المعي الدقيق، وتتسبب في حدوث إسهال مزمن وفقر دم وقد تحدث استسقاء البطن مؤدية إلىٰ الوفاة.

٣٨ ـ الدودة الكبدية الصينية (Chlonorchis sinensis). تنتشر الدودة الكبدية الصينية في بلدان الشرق الأقصى كاليابان والصين، والخنزير العائل الرئيسي لها. تعيش هذه الديدان في القنوات الصفراوية الكبدية، حيث تتكاثر بأعداد كبيرة. وإذا ما كثرت أعدادها عند المصاب، أحدثت تضخماً في الكبد وإسهالاً مزمناً ويرقاناً شديداً ينتهي بالوفاة.

٣٩ ـ دودة (Paragonimus westermani). يصيب هذا الطفيلي القطط والكلاب والخنازير وغيرها، وينتقل منها إلىٰ الإنسان. وتعتبر هذه الدودة من أهم الديدان التي تصيب الرئة وتحدث فيها أضراراً تكون أحيانا

جسيمة، كما تسبب الالتهاب الرئوي ومرض السل.

٤٠ ـ دودة (Castrodiscoider hominis). وهي من طفيليات الأمعاء التي تصيب الخنازير وغيرها، وتنتقل منها إلىٰ الإنسان.

سادساً: الديدان الشريطية (Cestoda).

ينقل الخنزير للإنسان أنواعاً متعددة من الديدان الشريطية، بعضها بالغ الخطورة علىٰ حياته، والبعض الآخر يسبب له اضطرابات تتراوح ما بين الخفيفة والشديدة. وأهم الديدان الشريطية التي ينقلها الخنزير إلىٰ الإنسان هي:

٤١ ـ الدودة الشريطية المسلحة/تينيا سوليوم (Taenia solium). والمشهورة أيضاً بالدودة الوحيدة. يعيش طورها البالغ في أمعاء الإنسان، ويبلغ طولها من(٢ ـ ٣) أمتار، لها رأس أصغر من الدبوس مزود بأربع ممصات ويطوق قمته طوق من الأشواك، يلي الرأس عنق قصير ينمو منه باستمرار قطع أو أسلات صغيرة تنمو كلما بعدت عن الرأس مكونة شريطا يحتوي أكثر من ١٠٠٠ قطعة.

وتنفصل الأسلات الناضجة الممتلئة بآلاف البيوض، لتخرج مع براز المصاب، حيث تعيش في التربة الرطبة زمناً طويلاً إلىٰ أن يأتي خنزير فيلتهمها وما فيها من بيوض. وتعمل عصارات أمعاء الخنزير الهاضمة علىٰ حل هذه البيوض لتنطلق منها الأجنة، فتخترق جدار الأمعاء، لتسبح مع الدورة الدموية إلىٰ كل أنحاء الجسم. وتستقر الأجنة في عضلات الخنزير مكونة حويصلات بطول ٦ ـ ١٨ملم، في كل منها يرقاتة لها رأس صالح لكي يكون دودة جديدة. فإذا ما تناول الإنسان من اللحم المصاب دون أن ينضجه تماماً لقتل ما فيه من اليرقات، فإنها تنطلق من الحويصلات في أمعائه لتخترق جدارها، وتدخل إلىٰ دورته الدموية، لتستقر بعد ذلك في العضلات أو الرئتين أو الكبد أو القلب أو العيون أو الدماغ. أنّ نمو هذه الحويصلات في المخ يؤدي إلىٰ الإصابة بحالات من الصرع، وإلى شلل عضوي جزئي، مع دوار واضطرابات عصبية حسية. كما ينطلق منها إلىٰ الدم ذيفانات سامة، قد تؤدي

إلىٰ الموت. ولا يعرف لهذا المرض علاج ناجع حتى يومنا هذا.

صحيح أنّ البقر يصاب بدودة مشابهة هي الدودة الشريطية العزلاء، وأن الإنسان يصاب بالطور البالغ من تلك الدودة، لكن الأمر الجوهري أن الإنسان لا يصاب مطلقاً بالحويصلات البقرية. ويعتبر الخنزير المصدر الوحيد لعدوى البشر.

٤٢ ـ الدودة الشريطية العوساء العريضة (D. latum). يصاب الإنسان بالطور البالغ لهذه الدودة، التي تعتبر واحدة من الديدان المعوية. ويبلغ طول الدودة البالغة ١٠ أمتار، وتستطيع أن تضع عددا هائلا من البيوض، يصل إلىٰ مليون بويضة كل يوم!!!.

٤٣ ـ الدودة شوكيه الرأس (Macracanthorynchus hirudinaceus). هذا النوع من الديدان شائع في الخنزير، ولكنه أيضا يصيب الإنسان، فقد اكتشف بين فلاحي وادي الفولجا في جنوبي روسيا.

سابعاً: الديدان الخيطية أو الاسطوانية (Nematoda).

الديدان الخيطية أو الاسطوانية التي ينقلها الخنزير للإنسان متعددة الأنواع، ومتفاوتة الخطورة، لكنها جميعاً لا تخلو من إشكالات صحية تسببها للعائل. أما أهم هذه الديدان التي يرتبط نقلها إلىٰ الإنسان بأكل لحوم الخنازير أو التعايش معها فهي علىٰ النحو التالي:

٤٤ ـ الدودة الشعرية الحلزونية/ ترايكنيلاّ (Trichinella spiralis). تعيش الديدان البالغة في أمعاء الإنسان والخنزير، وهي ديدان قصيرة يتراوح طولها بين ٢ ـ ٤ ملم. تتغلغل الإناث المثقلة بالبيوض بين الزغابات المعوية لتضع اليرقات هناك، فهي لا تضع بيضاً. تخترق اليرقانات جدر الأمعاء إلىٰ الدم وتطوف معه لتستقر في عضلات العائل، حيث تنمو إلىٰ ١ ملم، ثم تلتف علىٰ نفسها وتتحوصل. تظل اليرقات المكيسة داخل العضلات حية لمدة تصل إلى٢٥سنة في الإنسان، و١١سنة في الخنزير. وعندما يأكل إنسان لحم الخنزير المصاب، فإنّ الحويصلات تنحل في أمعائه، لتنطلق منها أجنة

سرعان ما تتطور في أمعائه إلىٰ الديدان البالغة.

والدودة الشعرية البالغة ليست مصدر الخطر الحقيقي علىٰ صحة الإنسان، بل اليرقات هي الخطر الداهم. فبعد التزاوج تموت الذكور، وتبقى الإناث الملقحة في جدران الأمعاء لتضع يرقاناتها بعد أسبوع واحد. ولا تلبث هذه اليرقانات وقتا طويلا قبل أن تخترق جدر الأمعاء، لتسير مع الدم إلىٰ جميع أجزاء بدن الإنسان، حيث تستقر في عضلات الحجاب الحاجز والحنجرة واللسان والعين والقلب، محدثة الجنون أو الشلل أو العمى أو الاختناق أو الذبحة القلبية.

إنّ تناول لحوم تحتوي علىٰ ١٠ يرقات متحوصلة في كل غرام من اللحم، لا يسبب أعراضاً مرضية. لكنّ الأعراض تبدأ بالظهور إذا احتوى اللحم ١٠٠ يرقة متكيسة. وتصبح الأعراض شديدة وغالباً ما تؤدي إلىٰ الوفاة إذا بلغ عدد اليرقات المتحوصلة ١٠٠٠ يرقه/ جرام.

٤٥ ـ ثعبان البطن الخنزيري (Ascaris suum). تعيش الديدان البالغة في أمعاء الخنزير، حيث تضع بيوضها، التي تخرج مع البراز إلىٰ البيئة الخارجية. وإذا ما دخلت هذه البيوض جسم شخص ما (بطريق مخالطة الخنازير)، فإنها تفقس وتخرج منها يرقات تخترق جدار الأمعاء، ثمّ تسير محمولة مع الدم حتى تصل الرئتين، فتثقب الأوعية الدموية وتموت داخل الرئتين، مسببة الالتهاب الرئوي الإسكاريسي الذي يعتبر من الأمراض القاتلة.

٤٦ ـ ثعبان البطن أو الإسكارس (Ascaris lumbricoides). تعتبر هذه الدودة أكبر الديدان الخيطية التي تصيب الإنسان، إذ يصل طول الأنثى فيها إلىٰ ٤٠سم، ومن هنا جاءت تسميتها "ثعبان البطن". وهي أكثر الطفيليات التي تصيب الإنسان قاطبة، إذ تقدر المنظمات الصحية الدولية عدد المصابين بها بما يزيد عن المليار وربع المليار نسمة. وتعيش الأنثى ملتصقة بواسطة الشفاة الثلاث بجدار الأمعاء. وتضع الأنثى الواحدة ٢٠٠ ألف بويضة كل يوم. تحدث الإصابة نتيجة لابتلاع بويضات الإسكارس الناضجة مع

الخضار النيئة المزروعة في التربة المخصبة بفضلات الحيوان، أو الأيدي الملوثة بفضلات الحيوانات المصابة.

وبعد فقس البيوض، تبدأ اليرقات رحلة في جسم الإنسان لا يكاد يسلم منها عضو. وتتشابه أعراضها مع أعراض ثعبان البطن الخنزيري، إلاّ أنّ اليرقات التي تثقب الرئتين لا تموت داخلهما، بل تتابع رحلتها حتى تعود مرة أخرى إلىٰ الأمعاء، وتصبح دودة كاملة. ومن جهة أخرى، فيمكن للديدان البالغة أن تتواجد بكثرة في الأمعاء فتؤدي إلىٰ انسدادها وموت المريض، أو أن تسبب إلتهاب الزائدة الدودية، ونادراً ما تثقب الأمعاء فتسبب النزيف.

ثامناً: المفصليات (Arthropoda).

المفصليات التي تصيب الإنسان والخنزير متعددة الأنواع، ومتفاوتة الخطورة. وتشمل هذه المفصليات البعوض، البرغوث الشائع في الإنسان، أنواع من القمل، ذبابة تسي تسي الناقلة لطفيليات مرض النوم، أنواع من ذباب الجلد، وأنواع من الحلم. جميع هذه الطفيليات تتغذى علىٰ دم الإنسان والخنزير. ولا تكمن خطورة هذه المفصليات في التطفل علىٰ دم الإنسان والتغذية به، ولكن فيما تنقل إليه من أمراض فيروسية وأولية قاتلة ويرقات ديدان، كفيروس "نيبا"، وفيروس إلتهاب الدماغ الياباني، ومرض الملاريا، ومرض النوم الأفريقي، ومرض شاغاس، وغيرها من الطفيليات الضارة. ونحن نعتقد أنّ أعداد الطفيليات المنقولة من الخنزير إلىٰ الإنسان بواسطة المفصليات، سيزداد كماً ونوعاً مع مرور الوقت، وستغدو الخنازير مصدر خطر متنامٍ علىٰ حياة الإنسان.

تاسعاً: أمراض جسمانية غير طفيلية.

يحتوي لحم الخنزير علىٰ أنواع عديدة من المركبات الكيميائية الضارة، التي لا تتناسب ولا تنسجم مع مركبات جسم الإنسان، وبالتالي فهي تسبب له أمراضاً وعللاً متنوعة، تزداد وطأتها كلما تزايد استهلاك الشخص للحوم ومنتجات الخنزير.تستخدم في الغرب جميع أجزاء الخنزير ولا تبقى منه أي

فضلات. فمن الدم يصنع السجق الأسود وبعض أنواع البوذنج، وتستخدم الأمعاء كغلاف للسجق. ويحوَّل الدهن الزائد إلىٰ شحم يستخدم في الطبخ، أو في صناعة الزيوت المزلقة، وزيوت التشحيم، وزيوت السفن، وصناعة الصابون وأدوات التجميل والمعاجين، والمضادات الحيوية، وأنواع الطعام والجيلي، ومعاجين الأسنان. ويستخدم الشعر في المفروشات، وتحوَّل العظام ونفايات الجلد إلىٰ سماد، ويدبغ جلد الخنزير لصناعة الأحذية وغيرها، وتستخدم غدد الخنزير لاستخراج الهرمونات .

ويعرف دهن الخنزير باسم لارد ويستخدم للطبخ، وصناعة الحلويات والشوكلاته، والجاتوه والآيس كريم. والأطعمة التي يدخل فيها الخنزير وشحمه واسعة جداً، بدءا من الهامبورجر والسجق، إلىٰ الأسماء غير الواضحة كالشوربة والسلطة والمايونيز والمشروبات والدجاج.

يستهلك الغربيون كميات هائلة من لحم ومنتجاته، فكل عام يستهلك الأمريكيون وحدهم قرابة ١٠٠ مليون خنزير يبلغ مجمل وزنها ١٠ مليارات كيلوجراماً. فكان لا بدّ من أن تظهر فيهم أمراض عديدة. وسنعرض في هذه العجالة إلىٰ بعض هذه الأمراض.

١ ـ السرطانات. يحتوي جسم الخنزير كميات كبيرة هرمون النمو (Growth Hormone) والهرمونات المنمية للغدد التناسلية (Gonadotrophins). وهذا يفسر سرعة نموه الهائلة وسرعة بلوغه العجيبة. فوزن الخنوص يتضاعف أكثر من ٥٠ مرة خلال فترة قياسية تبلغ ٦ أشهر!!!؟ وتصبح الأنثى قادرة علىٰ الحمل بعد ٤ أشهر فقط من ولادتها !!!؟ لذا تزداد الإصابة بالسرطان لدى آكلي لحم الخنزير. فقد بينت الدراسات وجود علاقة قوية بين استهلاك لحم الخنزير وسرطان الأمعاء الغليظة والمستقيم، وسرطان البروستاتا، وسرطان الثدي، وسرطان البنكرياس، وسرطان عنق الرحم وبطانة الرحم، وسرطان المرارة، وسرطان الكبد. لذا فإنني أنبّه في هذا المقام إلىٰ عدم اعتبار نسب الأمراض السرطانية

في الدول الغربية، كمؤشر لنا في الدول الإسلامية التي تحرِّم شريعتها أي تعامل مع هذا الحيوان المليء بالمرض، فليس هناك وجه للمقارنة.

٢ ـ السمنة وأمراض الشرايين والقلب. يوجد الدهن متداخلا مع خلايا لحم الخنزير بكميات كبيرة، خلافا للحوم البقر والغنم والدجاج، والتي يكون فيها الدهن علىٰ شكل نسيج دهني شبه مفصول عن النسيج العضلي. وبالإضافة إلىٰ ذلك فإن دهون الخنزير ترتبط بالمواد المخاطية النشوية، مما يجعل إزالتها من الجسم أمراً عسيراً. ذلك لأن الدهون الجليسيريدية الثلاثية للحيوانات آكلة العشب، تحتوي علىٰ حمض دهني غير مشبع علىٰ ذرة الجلسرول الثانية، وإنزيمات الإنسان الدهنية قادرة علىٰ هضمها بسهولة. أما الدهون الجليسيريدية الثلاثية في الخنزير وفي آكلة اللحوم، فتحتوي علىٰ حمض دهني مشبع علىٰ ذرة الجلسرول الثانية، فلا تقدر إنزيمات الإنسان الدهنية علىٰ هضمها، وبذلك تترسب في جسم آكليها من البشر، محدثة أضراراً بليغة. ويسبب دهن الخنزير مجموعة من الأمراض نحو تصلب الشرايين، الذبحة الصدرية، جلطات القلب، ضغط الدم، سكري البول، وحصوات المرارة، وما يتبع ذلك من تعقيدات مرضية خطيرة.

٣ ـ إلتهاب المفاصل. يحتوي لحم الخنزير علىٰ كميات كبيرة من حامض البوليك، ذلك لأنّ جسمه لا يتخلص إلا من قدر يسير من حامض البوليك، لا يتعدى ٣٪، بينما يتخلص الإنسان من ٩٠٪ من نفس الحامض. ونظرًا لهذه النسبة العالية من حامض البوليك، فإن آكلي لحم الخنزير يشكون عادة من آلام روماتيزمية، والتهابات المفاصل، ومشاكل في الكلى.

٤ ـ الأمراض التحسسية. يحتوي لحم الخنزير علىٰ كميات عالية من مركبات الهستامين والإميدازول (histamine and imidazole)، تحدث عند آكليها أمراضاً تحسسية جلدية، مثل الأكزيما والشرى والتهاب الجلد العصبي والحكة وغيرها. وإذا امتنع آكلوا لحم الخنزير عن أكله بشكل مطلق، فإن هذه الأمراض التحسسية تتلاشى.

٥ ـ أمراض أوتار العضلات والغضاريف. يحتوي لحم الخنزير علىٰ مواد مخاطية نشوية فيها مادة الكبريت، التي تترسب في أوتار العضلات والنسيج الغضروفي، مسببة رخاوة تلك الأنسجة ومحدثة تغيرات باثولجية في المفاصل والعمود الفقري. فالكبريت الموجود بكثرة في لحم الخنزير، يترسب في أوتار وأربطة العضلات وفي الغضاريف، فيحدث تغيراً في طبيعتها الشديدة الجامدة (المناسبة لوظيفتها)، لتصبح رخوة ومماثلة لمواد الخنزير المخاطية النشوية. ومن نتاج هذا التبديل أو الإحلال النسيجي، تآكل غضاريف الإنسان، وما يصحب ذلك من آلام مبرحة.

عاشراً: أمراض اجتماعية وخلقية.

يقول الإمام الدميري رحمه الله: إن الخنزير شرس الطباع شديد الجماع شبق، تكتنف حياته الجنسية الفوضى ولا يخصص لنفسه أنثى معينة.

ويقول ابن خلدون رحمه الله: أكلت الأعراب لحم الإبل فاكتسبوا الغلظة، وأكل الأتراك لحم الفرس فاكتسبوا الشراسة، وأكل الإفرنج لحم الخنزير فاكتسبوا الدياثة (عدم الغيرة علىٰ العرض). يقول الفخر الرازي رحمه الله: قال أهل العلم الغذاء يصير جزءاً من جوهر المغتذي فلابد أن يحصل له أخلاق وصفات من جنس ما كان حاصلاً في الغذاء، والخنزير مطبوع علىٰ حرص عظيم ورغبة شديدة في المشتهيات فحرم أكله لئلا يتكيف بتلك الكيفية.

هذه بخض أقوال علمائنا، تصف العلاقة الوثيقة بين أكل لحم الخنزير والانحلال الخلقي في المجتمعات. فمن الأمور المؤكدة، أن الإنسان يتأثر بما يأكل، وقد وجد علماء التغذية أنّ جسم الإنسان وطباعه هما نتاج ما يأكل، فقالوا: "Yor are what you eat". والناظر إلىٰ مستوى الانحلال الخلقي في المجتمعات الغربية آكلة الخنزير، لا يحتاج إلىٰ دليل ليدعم به هذه الحقيقة، فسلوكياتهم المشينة هي أكبر برهان علىٰ صحة ذلك.

ونخلص إلىٰ أن بين أيدينا معجزة تشريعية جلية، من معجزات كتاب الله المستمرة إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها. فلم يحرم الإسلام شيئاً من

المأكولات والمشروبات إلا لضرر ينجم عنها، أو خبث محقق فيها، وهذا ما أكده القرآن الكريم. فما حرم الشارع الحكيم إلا خبائث لا يليق بالعاقل أن يتناولها، وها هي الأبحاث الطبية الحديثة تؤكد علىٰ الضرر البالغ لكل من يأكل لحم الخنزير. وإنه لمن عظيم الإعجاز الإلهي أن تتوافق موازين الشرع، وموازين الطب في تحريم هذه الخبائث، فهل من مدّكر.



المبحث الثالث

الحفاظ على العقل

للعقل في الإسلام أهمية كبرى فهو مناط المسؤولية، وبه كُرِم الإنسان وفضل على سائر المخلوقات، وتهيأ للقيام بالخلافة في الأرض وحمل الأمانة من عند الله، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢] .

ولهذه الأهمية الخاصة حافظ الإسلام على العقل وسن من التشريعات ما يضمن سلامته وحيويته ومن ذلك:

١ ـ أنه حرم كل ما من شأنه أن يؤثر على العقل ويضر به أو يعطل طاقته كالخمر والحشيش وغيرها قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المَائدة: ٩٠] .

٢ ـ كما شرع العقوبة الرادعة على تناول المسكرات وذلك لخطورتها وأثرها البالغ الضرر على الفرد و المجتمع.

٣ ـ أنه ربى العقل على روح الاستقلال في الفهم والنظر وإتباع البرهان ونبذ التقليد غير القائم على الحجة كما في قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢٤] .

..... ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البَقَرَة: ١١١] .

٤ ـ كما دعا إلى تنمية العقل ماديًا ومعنويًا: ماديًا بالغذاء الجيد الذي يقوي الجسم وينشط الذهن، ومن هنا كره للقاضي أن يقضي وهو جائع، وفضل تقديم الطعام على الصلاة إذا حضرا معا.

أما معنويًا فبالتأكيد على طلب العلم واعتباره أساس الإيمان، قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل

﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤] .

كما أتاح فرصة التعليم للجميع وجعله حقًا مشاعًا بين أفراد المجتمع، بل جعل حدا أدنى منه واجبًا على كل مسلم ومسلمة.

٥ ـ رفع مكانة العقل وتكريم أولى العقول ففي أكثر من آية من القرآن الكريم، قال الله تعالى: . . . ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

٦ ـ تحرير العقل من سلطان الخرافة وإطلاقه من إسار الأوهام، ومن هنا حرم الإسلام السحر والكهانة والشعوذة وغيرها من أساليب الدجل والخرافة.

كما أنه منع على العقل الخوض في الغيبيات من غير سلطان أو علم يأتيه من الوحي المنزل على الأنبياء، و اعتبر ذلك مسببًا في هدر طاقته من غير طائل قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥] .

٧ ـ تدريب العقل على الاستدلال المثمر والتعرف على الحقيقة وذلك من خلال وسيلتين:

أ ـ الأولى: أنه وضع المنهج الصحيح للنظر العقلي المفيد لليقين، من هنا كانت دعوته إلى التثبيت قبل الاعتقاد، قال تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: ١٥] .

ب ـ الثانية: الدعوة إلى التدبر في نواميس الكون لاستكشافها وتأمل ما فيها من دقة وترابط، وإلى استخدام الاستقراء والتمحيص الدقيق من أجل الوصول إلى اليقين.

٨ ـ وجه الطاقة العقلية إلى استخلاص حكم التشريع و أسراره: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] .

٩ ـ كما وجهه إلى استخلاص الطاقات المادية في الكون والاستفادة منها

في بناء الحضارة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [المُلك: ١٥].

١٠ ـ كما فتح له باب الاجتهاد في التشريع فيما لا نص فيه وذلك في مجالين:

أ ـ معرفة واستخلاص المقاصد والأهداف من النصوص والأحكام الشرعية.

ب ـ استنباط الأحكام والتشريعات للحوادث المستجدة، وهو مجال واسع يستند إلىٰ مبادئ عدة كالقياس و المصلحة والاستحسان وغيرها.

وسوف نتناول بالتفصيل الإعجاز التشريعي في تحريم الخمر:

من أجل الحفاظ علىٰ العقل الذي هو مناط التكليف في الإسلام، وأكبر نعمة أنعم الله بها علىٰ الإنسان ـ حرَّم الإسلام شرب الخمر:

شرب الخمر عند العرب قبل الإسلام:

كان العرب في جاهليتهم مولعين بشرب الخمر والمنادمة عليها فأطلقوا عليها الأسماء الكثيرة ووصفوها ووصفوا أقداحها ومجالسها وبالغوا في ذلك حتى أوصى بعضهم بأن يدفن بجوارها فقال:

إذا مت فادفني إلىٰ جنب كرمة ... تروي عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنني بالفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

فلما جاء الإسلام غرس في قلوبهم الإيمان، فلما تحركت به الأركان أخذهم بمنهج تربوي متدرج في إذهاب الولع والإدمان، كما قالت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «**كان أول ما نزل منه ـ أي القرآن ـ سور من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلىٰ الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبداً**»(١).

فكان أول ما نزل من القرآن في الخمر قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ ١٩١٠، برقم: ٤٧٠٧.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل: ٦٧] .

فبدأ بعض الصحابة يتحرج ويسأل عن الخمر، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: ٢١٩] .

فزاد نفور الناس منها وزاد تحرجهم من شربها فنزل قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فأصبحت الصلاة التي هي عماد الدين لأول مرة في مواجهة الخمر فكان من يريد أن يشربها ينتظر إلىٰ الليل؛ لأن أوقات الصلوات في النهار متقاربة، فتوقف عن شربها كثير من الصحابة حتى نزلت آية المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠] .

قال أنس رضي الله عنه "بينما أنا أدير الكأس علىٰ أبي طلحة وأبي عبيد وأبي دجانة ومعاذ بن جبلٍ وسهيل بن بيضاء حتى مالت رؤوسهم من خليط وبسرٍ وتمر فسمعت منادياً ينادي ألا إن الخمرة قد حرمت قال: فما دخل علينا ولا خرج منا خارج حتى أرقنا الشراب وكسرنا القلال وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سليم ثم خرجنا إلىٰ المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠] .

قال العلماء في قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: ٢١٩] إن المنافع التي قد تعود علىٰ الإنسان من استعمال الخمر لا تبيح ولا تبرر شربها، كما أن إثم شربها يترتب عليه خسارة الدنيا والدين.

وأما المنافع في استخدام الخمر فإما أن تكون منافع مادية، فتعود المنفعة على المروجين لها، وهم ملعونون كما صح من حديث أنس ﷺ قال: «**لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الخمر عشرة منهم، بائعها، وآكل ثمنها**»[1].

وإما أن تكون منافع عابرة: من شعور مؤقت بالدفء والنشوة وإدرار البول، ولكن سرعان ما تزول تاركة في الجسم عدة أمراض كما سنرى.

وإما أن تكون منافع في الطب والصيدلة والصناعات الكيميائية، فالكحول الإيثيلي يستخدم كمادة مطهرة للجلد عند حقن الإبرة لقضائه على المكروبات، كما يستخدم كمذيب للزيوت الثابتة والطيارة كما يستخدم لتحضير الصبغات والمواد المخدرة للقيام بالعمليات، كما يستخدم في تحضير العطور مثل الكالونيا، وماء الطيب المركز، ويستخدم كوقود للإحراق الداخلي للمكنات والصواريخ، كما يستخدم لتحضير العديد من المركبات الكيميائية كالأحماض العضوية.

الوحي والعلاج بالخمر.

عن وائل الحضرمي: أن طارق ابن سويد الجعفي سأل النبي ﷺ عن الخمر؟ فنهاه أو كره أن يصنعها فقال: إنما أصنعها للدواء فقال: « **إنه ليس بدواء ولكنه داء**»[2].

وعن ديلم الحميري قال: «قلت لرسول الله ﷺ يا رسول الله إنا بأرض باردة ونعالج فيها عملا شديدا وإنا نتخذ شرابا من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وعلى برد بلادنا قال: «**هل يسكر؟**» " قلت: نعم قال: «**فاجتنبوه**»، قلت: إن الناس غير تاركيه، قال: «**إن لم يتركوه فقاتلوهم**»[3].

وعن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ « **إن الله أنزل الداء والدواء**

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٣/٥٨٩، برقم: ١٢٩٥، وهو في مشكاة المصابيح ٢/١٢٧، برقم: ٢٧٧٦.

(٢) أخرجه مسلم ٣/ ١٥٧٣، برقم: ١٩٨٤.

(٣) أخرجه أبو داود ٢/٣٥٣، برقم: ٣٦٨٣، وهو في مشكاة المصابيح ٢/ ٣٣٢، برقم: ٣٦٥١.

وجعل لكل داء دواء، فتداووا ولا تداووا بالمحرم»[1].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ « **إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم»**[2].

وقد تناول شراح الحديث هذه الأحاديث بالإيضاح والبيان:

فقال الإمام ابن القيم رحمه الله: "إن المعالجة بالمحرمات قبيحة عقلاً وشرعاً، أما شرعاً فما ذكر من الأحاديث، وأما العقل فهو أن الله سبحانه وتعالىٰ إنما حرمه لخبثه، فإنه لم يحرم علىٰ هذه الأمة طيباً عقوبة لها كما حرمه علىٰ بني إسرائيل ..، بل إن تحريمه له حمية لهم وصيانة عن تناوله، فلا يناسب أن يطلب به الشفاء من الأسقام والعلل، فإنه وإن أثر في إزالتها أعْقَب سقماً أعظم منه ... فإنه داء كما نص عليه صاحب الشريعة فلا يجوز أن يتخذ دواء ".

تصور الأطباء سابقاً حول العلاج بالخمر:

جاء النبي ﷺ والعرب وغيرهم من العجم بما فيهم أطباؤهم يعتقدون أن الخمر علاج لبعض الأمراض التي تصيب أجسادهم وهذا الأمر واضح من خلال استئذان بعض الصحابة الذين كانوا يطببون الناس أن يستمروا في اتخاذها علاجاً، واستمر الأمر كذلك عبر القرون عند غير المسلمين إلىٰ الثمانينات من القرن العشرين، فإلىٰ عام (١٩٨٠م) كان أطباء العالم يستخدمون الكحول كعلاج للولادة المبكرة لتثبيط تقلصات الرحم، فكان يسبب من الأعراض الجانبية علىٰ الأم والطفل أكثر من المنفعة التي استخدم لأجلها، فاستبدله الأطباء بعد ذلك بعقاقير فاعليتها أفضل وليس لها أعراض جانبية كالكحول .

وقد ادعى بعض الأطباء بأن الخمر فاتحة للشهية لذا يستعملها غير المسلمين علىٰ موائدهم، لكن العلم الحديث بين أن شرب الكحول يزيد من إفراز العصارة المعدية فإذا بلغ تركيز الكحول ولو نسبة ١٤٪ فإن تهتكاً

---

(١) أخرجه أبو داود ٢/ ٤٠٠، برقم: ٣٨٧٤، وهو في غاية المرام ١/ ٥٩، برقم: ٦٦ .

(٢) أخرجه البيهقي ١٠/ ٥، برقم: ١٩٤٦٣، وقيل: صحيح موقوف علىٰ ابن مسعود غاية المرام ١/ ٣٦، برقم: ٣٠.

وتقريحاً يصيب الغشاء المخاطي المبطن لجدار المعدة مما يؤدي في النهاية إلىٰ إلتهاب حاد في جدار المعدة ونزيف الجهة العلوية من القناة الهضمية، كما أن الكحول يؤثر علىٰ حركة الأمعاء مما يؤدي إلىٰ الإصابة باضطرابات شديدة في الهضم.

ومن الادعاءات التي استمرت عند الأطباء إلىٰ أوائل القرن العشرين أنَّ الخمرَ تُكْسِبُ شاربها طاقة حرارية تمكنه من مقاومة البرد. لكن علم الطب أثبت أن عملية التدفئة للجسم تكون بحفظ حرارته الداخلية التي يحتاجها لاستمرار الوظائف الحيوية.

أما الكحول فإنه يتسبب في شعور مؤقت بالدفء سرعان ما يزول ؛لأن تأثير الكحول علىٰ الأوعية الدموية الموجودة تحت سطح الجلد يؤدي إلىٰ تمددها فتتوارد كميات من الدم علىٰ سطح الجلد أكثر، فيظهر ذلك علىٰ شكل احمرار في الوجه، وذلك لأن الدم يكون محملاً بحرارة الجسم الداخلية فيحس السكير بالدفء في بداية الأمر، ولكن سرعان ما يختفي ذلك الإحساس نتيجة لتسرب حرارة الجسم إلىٰ الخارج فيشعر المرء بالبرد وتنتابه القشعريرة في الأجواء الباردة.

كما أن الكحول ليس غذاءً حقيقياً يستطيع أن يعوض الجسم عما فقده من حرارة، لذلك نجد أن شاربي الخمور هم أكثر الناس عرضة للإصابة بنزلات البرد والزكام والالتهابات الرئوية. لذلك فإن حالات الوفاة المفاجئة تكثر في أوربا للذين يسكرون بالليل ثم يخرجون في الهواء الطلق الشديد البرودة فيتساقطون الواحد تلو الآخر.

وفي عام ١٩٢٨م عقد المؤتمر الدولي التاسع عشر لمكافحة المسكرات في مدنية (انفرس) ببلجيكا، وفي هذا المؤتمر وقف كبير أطباء مستشفى فيينا بالنمساء قائلاً: "لقد وقع كثير من الأطباء في خطأ علمي عظيم عند ما كانوا يوصون بتعاطي جرعات من المشروبات الكحولية للاستفادة منها في مقاومة البرد، لكن شعورهم بالدفء شعور كاذب إذ يعقبه انخفاض في درجة الحرارة".

ثم قام أحد العلماء فقال: "كان أهل أيسلندا ـ وهي من أشد البلدان برودة ـ يستعينون علىٰ مقاومة البرد بتعاطي المشروبات الكحولية فكثرت بينهم الوفيات إلىٰ حدٍ أقلق ولاة الأمر فألفوا لجنة لهذا الغرض، فثبت لهم أن كثرة الوفيات في الجزيرة راجع إلىٰ أن القوم يستنفذون حرارة أجسامهم بما يتعاطونه من المسكرات، فيصدر الدم من داخل الجسم إلىٰ سطحه محملاً بالحرارة حتى تأتي علىٰ آخره فتنتهي الحياة بانتهائها.

وهذه الظاهرة هي التي دفعت برلمان أيسلندا إلىٰ إصدار تشريع يحرم الخمر في البلاد.

وفي الختام قام ممثل مصر الدكتور (أحمد غلوش) فقال: "إن الضحايا البشرية التي أشار إليها الأعضاء قد سلم المسلمون من أمرها بسبب اتباعهم أوامر دينِهم ونبيهم محمد ﷺ حيث حذرهم من شرب الخمر، وأوضح لهم أنها لا تنفع في مقاومة البرد "ثم قدم لهم ترجمة الحديث الذي رواه ديلم الحميري فعندئذ دهش أعضاء المؤتمر وقابلوا كلمته بالاستحسان والتصفيق وطلبوا منه أن يملي عليهم نص الحديث الشريف، واعتبروه الطريق السليم في مقاومة البرد".

ومن الادعاءات أن الخمر لها فوائد طبية وخصوصاً لمرضى القلب لما ثبت عنها من توسيع الأوعية الدموية .

لكن علم الطب أثبت أن الكحول يوسع الأوعية الدموية الموجودة تحت سطح الجلد إلا أنه يفعل العكس مع الأوعية الدموية المغذية لعضلة القلب والتي تعرف بالشرايين التاجية، حيث يتسبب الكحول في تصلبها وذلك بسبب ما يحدثه من زيادة نسبة دهنيات الدم مثل الكوليسترول والجليسرين الثلاثي، والتي تترسب بدورها علىٰ جدران الأوعية فتسبب تصلبها وتضييقها مما يؤدي في النهاية إلىٰ الإصابة بفقر التروية القلبية وخصوصاً الذبحة الصدرية.

يقول البروفسور:"توماس شيهي" أستاذ الطب الباطني في جامعة الأباما في برمنجهام ـ في مقال له بعنوان "الكحول والقلب" عام ١٩٩٢م:

"لقد كان أول من قام بإعلان دور الكحول في الوقاية من نوبة القلب هو الباحث روسك وزملاؤه عام ١٩٥٦م، عند ما أعلنوا أن تناول الوسكي يقي من الذبحة الصدرية ولكن الأبحاث والدراسات المتلاحقة أثبتت عكس ذلك".

ويقول: "إن عدد حالات موت الفجأة التي تحدث في الولايات المتحدة بنحو (٣٠٠,٠٠٠) حالة سنوياً، معظم تلك الحالات كانت بسبب الإدمان علىٰ الكحول".

كما نشرت مجلة (لانست) البريطانية، وهي من أشهر المجلات الطبية في العالم بعنوان "الشوق إلىٰ شرب الخمر": "إن ما يدعيه بعض الأطباء من أن الكحول قد يكون مفيداً إذا ما أخذ بجرعات صغيرة إنما هو محض كذب وهراء، كما أن الدراسة التي يستندون إليها دراسة غير موثوقة ولا يعتد بها، وخلاصة القول أن علىٰ الأطباء أن يبلغوا رسالة واحدة للناس، وهي أن الكحول ضار بالصحة".

ومن الادعاءات قول البعض أن للخمر قيمةً غذائية نظراً لما يَنْتُجُ عنها من سعرات حرارية عالية.

لكن علم الطب اليوم أثبت الآتي:

١. تقاس القيمة الغذائية للأغذية بما يتولد عنها من سُعرات حرارية وذلك أثناء احتراقها في الجسم، وقد وجد الباحثون أنه عند احتراق جرام واحد من الكحول تتولد نحو ٧سعرات حرارية، لكن العلماء يؤكدون أن الجسم لا يستفيد من تلك السعرات الحرارية الناتجة عن احتراق الكحول، كما لا يستطيع الجسم أن يحولها إلىٰ طاقة يستفيد منها في أوقات الضرورة، فقد كان المتوقع ـ كما هو الحال مع بقية الأغذية ـ أن ترتفع درجة الحرارة داخل الجسم عند تزوده بالسعرات الحرارية الناتجة عن احتراق الكحول، ولكن ما يحدث هو العكس حيث يقوم الكحول بتسريب حرارة الجسم إلىٰ الخارج ـ كما رأينا سابقاً ـ فيتسبب في انخفاضها.

٢. تسبب السعرات الحرارية الناتجة عن احتراق الكحول شعوراً بالشبع

وتقلل من الإحساس بالجوع فيصاب المدمن بفقدان الشهية ويعاني من أمراض سوء التغذية.

٣. إصابة السكِّير بالغثيان والقيء بشكل مستمر، كما يحصل له اضطرابات هضمية ترهقه وتمنعه من الأكل بسبب تأخير عملية تفريغ محتويات المعدة إلىٰ الأمعاء .

٤. الاضطرابات في الاستقلاب، حيث يؤدي اعتلال الكبد الناتج عن إدمان الكحول إلىٰ انخفاض تكوين البروتينات، والأحماض الأمينية كما يؤدي إلىٰ عدم قدرة الكبد علىٰ تحويل الفيتامينات من الشكل الخام إلىٰ الشكل النشط.

٥. يقلل الكحول من قدرة الجهاز الهضمي علىٰ الامتصاص وذلك لتأثير الكحول المباشر علىٰ الأمعاء الدقيقة بالإضافة إلىٰ تسببه في إلتهاب البنكرياس واعتلال الكبد، لهذا كله فإن العلماء لا يعدون الكحول مصدراً غذائيا ؛لأنه لا يحتوي علىٰ العناصر الغذائية الهامة بل يؤدي إلىٰ نقصها من الجسم ومن ثم التأثير علىٰ كل من الكبد والدماغ.

ومن الادعاءات أن للكحول القدرة علىٰ إدرار البول لمستخدمه في علاج حصى الكلى.

والحقيقة العلمية الطبية القائمة علىٰ البحث الدقيق أن الكحول يؤثر علىٰ الكلية من خلال تأثيره علىٰ الجزء الخلفي للغدة النخامية، مما يؤدي إلىٰ منعها من إفراز الهرمون المضاد لإدرار البول، فيزداد لذلك إدرار البول، ولكن هل هذا يساعد الجسم علىٰ التخلص من الأملاح الزائدة والسموم والحصى؟.

الإجابة: " لا "، بل إن الضرر كبير، والآثار التي تُلحقها الخمر في الكلية هي:

١. رفع نسبة الدهون في الدم مما يؤدي إلىٰ إرهاق الكليتين في التخلص من الدهون الأمر الذي يؤدي إلىٰ ضعفهما وإصابتهما بالفشل فتراكم السموم في الجسم .

٢. يزداد طرح المواد الحيوية التي يحتاجها الجسم مع البول مثل الصفائح

الدموية وكريات الدم الحمراء والبيضاء والبروتينات وبعض الأملاح .

٣ـ تصاب الكلية نتيجة الإدمان بالالتهاب المزمن والتشحم نتيجة لتراكم الدهون عليها، كما تصاب بالتليف.

ومن الادعاءات أن الخمر تنشط الذهن وتتيح للإنسان أن القدرة الكبيرة علىٰ العمل.

لكن الطب الحديث أثبت أن الجهاز العصبي المركزي ـ ومنه المخ ـ هو أول الأجهزة في الجسم تعرضاً لتأثير الخمر ففي بداية شرب الخمر يشعر المرء بنشوة ونشاط وذلك من خلال توسيع الكحول لأوردة الدماغ، فتزداد كمية الدم الواردة إليه، مما يؤدي إلىٰ تنبيه مؤقت لايلبث أن يزول ويتحول إلىٰ خمول وخمود، فتتأثر من جراء ذلك المراكز العليا في الدماغ والمسئولة عن الوظائف الحيوية في جسم الإنسان مثل الذاكرة والقراءة، والكلام، والسلوك، والحركة وغيرها فيفقد الإنسان آدميته، فيتصرف بلا شعور .

كما تؤثر الخمر تأثيراً مباشراً علىٰ المخيخ الذي يقوم بتنسيق حركات العضلات والتوازن، فيترنح المخمور ويفقد السيطرة علىٰ قوامه،أما إذا ارتفعت نسبة الكحول في الدم فإن مركز التنفس في الدماغ قد يتأثر مما يؤدي إلىٰ توقفه ومن ثم الوفاة .

ومن الادعاءات أن الخمر تثير الرغبة الجنسية وتقويها.

ولكن البحوث الطبية أثبتت أن الخمر تتسبب في إثارة الشهوة الجنسية، ولكنها تعطل أداء العمل الجنسي وذلك من خلال الآتي:

١ـ تأثيرها علىٰ الخصيتين: حيث يتسبب الكحول في ضمورها لدى الذكور فيؤدي إلىٰ انخفاض نسبة إفراز هرمون الذكورة كما يؤدي إلىٰ انخفاض عدد المنويات وتشوهها.

٢ـ يؤثر الخمر علىٰ الكبد فتزداد نسبة هرمون الأنوثة، مما يؤدي إلىٰ ظهور الصفات الأنثوية عند الرجل ومن ثم يفقد قدرته الجنسية، ويصاب بالعنَّة، وضعف الباءة .

٣. تتأثر الأعصاب المغذية للجهاز التناسلي مما يؤدي إلىٰ ضعف الانتصاب، ومن ثم فقدان القدرة الجنسية للسكير.

٤. المواد المضافة التي تُكسب الخمرة الطعم اللاذع مثل مادة (اللويولين) تستخدم طبياً كمضاد للباءة حيث تُخَفض من الرغبة الجنسية .

المرأة وشرب الخمر:

تصاب المرأة التي تشرب الخمر بما يلي:

١. ضمور المبيض مما يؤدي إلىٰ العقم.

٢. اضطرابات في الحيض.

٣. بلوغ سن اليأس في سن مبكرة.

٤. تصاب بعض أنسجة الثديين بالانحلال كما تنخفض كمية الحليب عند الرضاعة، وهذا ما نص عليه تقرير الكلية الملكية للأطباء في بريطانيا الصادر في عام ١٩٨٧م بعنوان "شرٌ عظيم ومتفاقم" ما يلي: "إن الاستمرار في تعاطي الكحول يؤدي إلىٰ خلل كبير في الوظائف الجنسية عند الرجل والمرأة وذلك بسبب التأثير المباشر للكحول علىٰ الخصيتين والمبيضين وجزء تحت المهاد من الدماغ والغدة النخامية المسئولة عن إفراز الهرمونات الجنسية التي تحفز كلاً من الخصيتين والمبيضين".

أضرار الخمر على أجهزة الجسم:

١) تأثير الخمر على العينين:

أ ـ يؤثر شرب الخمر علىٰ الأعصاب المغذية لعضلات العين مما يؤدي إلىٰ فقدان المدمن تحريك عينية ويؤدي في النهاية إلىٰ الإصابة بازدواجية الرؤية .

ب ـ يجد شارب الخمر صعوبة في متابعة أي شيء متحرك أمامه، كما يقول الدكتور "أنتوني آدم" ـ أستاذ البصريات بجامعة كاليفورنيا ـ : "إذا نحن حركنا شيئاً أمام شارب الخمر بسرعة فإنه يجد صعوبة في متابعته، كما أن إلقاء الضوء بشكل كثيف علىٰ السائق المخمور تجعل قدرته علىٰ الإحساس بالضوء ضعيفة

مما يؤدي إلىٰ ارتفاع نسبة حوادث الطرق عند شاربي الخمور" .

ج . إذا صنع الخمر من الكحول الميثيلي فإنه يكون سماً ناقعاً للعصب البصري حيث يؤدي إلىٰ ضموره بل قد يؤدي إلىٰ العمى المفاجئ .

د . يؤثر شرب الخمر علىٰ وظائف العين، فيحدث له غشاوة بصرية تزيد تدريجياً وتحدث اهتزازاً للعين عند القراءة . هذا ما قاله الدكتور "محمد حسنين عمارة" استشاري طب العيون وجراحتها في مؤتمر الطب الإسلامي في باكستان سنة ١٤٠٥هـ.

هـ . يذكر تقرير الكلية الملكية للأطباء النفسيين في بريطانيا لعام ١٩٨٦م ما يلي:

"يحدث تناول الخمر تأثيراً كبيراً في انخفاض حساسية العين لاستقبال الألوان وبخاصة اللون الأحمر، كما تتأثر قدرة العين علىٰ التمييز بين الأضواء المختلفة التركيز".

٢) تأثير الخمر على الأذنين:

وجد الباحثون أن شرب الخمر يجعل الأذن الداخلية أكثر تحملاً للأصوات الصاخبة من الحالات العادية،وذلك بسبب تخدير الخمر لحساسية الأذن، لذا نجد أن شارب الخمر يتحمل صوت الماكينات المرتفع وأصوات الموسيقى الصاخبة ومع الاستمرار في التعرض لتلك المؤثرات يصاب بضعف السمع الذي قد يؤدي إلىٰ الصمم في النهاية .

٣) أضرار الخمر على الجلد:

بعد دراسة علمية علىٰ "٣٥٥" مدمناً علىٰ شرب الخمر، ودراسة أخرى علىٰ نحو"٣٥١" مدمناً عليها، يقول الدكتور" تشالز ويتفيلد " أستاذ الأمراض الباطنية المشارك بجامعة ميريلاند بالولايات المتحدة :" إن تعاطي الكحول يسبب مشكلات جلدية خاصة نتيجة للإدمان كما يزيد من تفاقم الأمراض الجلدية الموجودة أصلاً عند المدمنين كما يتسبب في ظهور أمراض جلدية نادرة "ومن أهم تلك الأمراض:

أ . العد الوردي:

حيث يصاب جلد الوجنتين والجبهة والأنف بالاحمرار ثم تظهر حبيبات صغيرة تتحول فيما بعد إلىٰ بثور مؤلمة، كما تسبب تشوهاً لوجه المريض.



صورة توضح العد الوردي. وتأثير داء البورفيرية الجلدية علىٰ الوجه مما يجعل عمر المريض يبدو زائدًا بضع سنين

ب . داء البروفيرية الجلدية الآجلة :

وهذا المرض يتسبب في ظهور فقاعات علىٰ الجلد تكون في الغالب علىٰ الأطراف وخصوصاً ظهر الكف..كما يتغير لون الجلد، ويزداد نمو الشعر في بعض المناطق مثل الوجه حيث يظهر المصاب وكأنه قد زاد عمره بضع سنين، كما يصبح الجلد أكثر حساسية تجاه أشعة الشمس ويتأثر بسرعة مع أدنى إصابة، وذلك بسبب ترسب مادة (اليورفيرين) في الجلد، وسبب هذا كله تأثير الخمر علىٰ عملية الاستقلاب في الجسم، وقد وجد أن ٩٠٪ من المصابين بهذا المرض هم من مدمني الخمر.

ج . داء البلاجرا:

وهو مرض خطير ينتج عن نقص نوع من فيتامينات "ب" وهو النياسين

الذي يكثر نقصه عند مدمني الخمور، وتتمثل أعراض المرض في إصابة جلد المريض بالالتهاب والاحمرار ثم تتغير هيئته وخصوصاً الأعضاء الأكثر عرضة للشمس كالوجه واليدين والساقين والقدمين.



داء البلاجرا

وأول خطوات العلاج من هذا المرض هو الإقلاع عن شرب الخمر .

٤) أضرار الخمر على الجهاز العصبي:

عندما نتحدث عن الجهاز العصبي نقصد به الجهاز العصبي المركزي الذي يشمل المخ والنخاع الشوكي، كما نقصد معه أيضاً الجهاز العصبي الطرفي الذي يشمل الخلايا العصبية المنتشرة في كل أجزاء الجسم، وتقدر عدد الخلايا العصبية بنحو (٢٠) ألف مليون خلية عصبية وهي تتميز عن غيرها من خلايا الجسم بأنها إذا أتلفت لا تعوض مرة ثانية.

٥) تأثير الخمر على الجهاز العصبي:

هو تأثير تخديري وتثبيطي يحدث الآتي:

أ ـ ضمور خلايا قشرة الدماغ حيث يقوم الكحول بتجميع كريات الدم الحمراء، والصفائح الدموية والتصاقها، الأمر الذي يؤدي في إلىٰ تكوين جلطة تسد الأوعية الدموية فيقل دفق الدم والأكسجين إلىٰ خلايا المخ فتصاب بالضمور والموت، فيفقد المصاب القدرة علىٰ تذكر الأحداث كما

يتعدى ذلك إلىٰ فقد القدرة علىٰ الحكم السليم علىٰ الأمور.

يقول الدكتور "مالجين كيسلي" ـ أستاذ التشريع بكلية الطب بكارولينا بالولايات المتحدة ـ : "إن كل كأس من الكحول تؤدي إلىٰ موت بعض خلايا المخ، كما أن الإصابة الدماغية ليست حدثاً يظهر في أواخر أدوار مرضى الإدمان، بل يبدأ الضرر في الخلايا العصبية عندما يبدأ الشارب كأسه الأول للمرة الأولى، ثم يتراكم الضرر ويزداد مع كل كأس أخرى يشربها" وفي هذا تصديق للحديث الذي رواه جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**»[1].

وقد قام الدكتور (هانج) من النرويج باستعمال الأشعة المقطعية في تصوير أمخاخ الذين يتعاطون الخمور فوجد أن المخ ينقص بدرجات متفاوتة وذلك لموت كثير من الخلايا أكثرها المتحكمة في التفكير والإرادة والنطق.

ب ـ السكتة الدماغية "الجلطة الدماغية أو الفالج".

يقول علماء الطب: "إن تعاطي الخمور من أهم الأسباب المؤدية للإصابة بالسكتة الدماغية وذلك؛ لأنه يؤدي إلىٰ الإصابة بارتفاع ضغط الدم وتخثر الدم مما يزيد عدد الصفائح الدموية، كما يؤدي إلىٰ ارتفاع نسبة الدهنيات واضطرابات نظم القلب، وكل هذه عوامل تؤدي إلىٰ تكون الجلطة الدماغية".

ج ـ ضمور خلايا المخيخ.

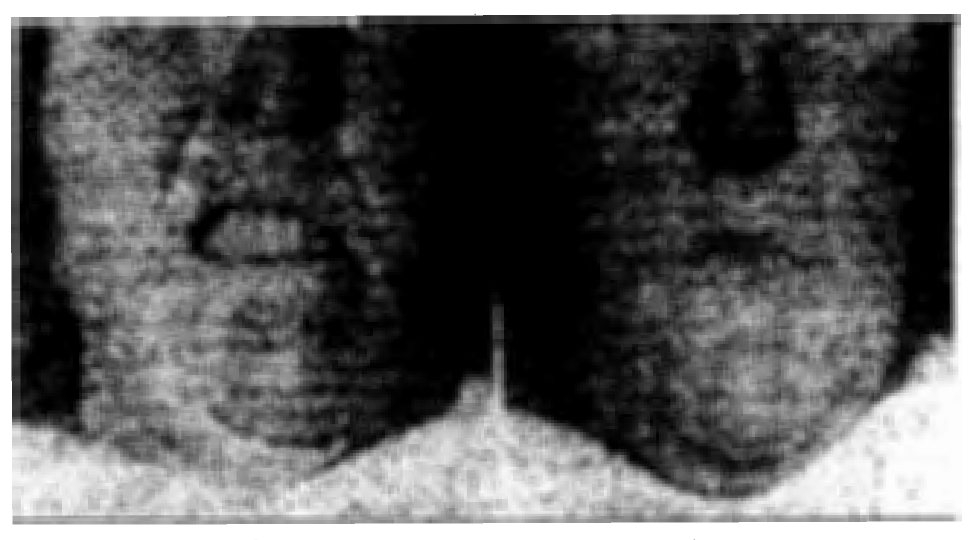
يقوم المخيخ بتنسيق حركات الجسم بالإضافة إلىٰ اشتراكه في المحافظة علىٰ توازن الجسم، لكن إصابة هذه الخلايا بفعل الخمر تجعل الشخص لا يستطيع الوقوف إلا ويترنح يميناً وشمالاً كما تظهر رعشة شديدة في اليد والعين.

---

(١) أخرجه أبو داود ٢/٣٥٢، برقم: ٣٦٨١، وهو في غاية المرام ١/٥٣، برقم: ٥٨.

هـ . اعتلال الأعصاب الطرفية.

يؤدي تعاطي الخمر إلىٰ تحلل في محاور الخلايا العصبية فيفقد المدمن الإحساس بالحرارة والبرودة والألم في أطرافه مع ضعف في المنعكسات العصبية الأمر الذي يؤدي بالمريض إلىٰ عدم استطاعته الوقوف مع آلام يفقد معها الراحة والاستقرار، كما تتأثر حركة الفم عند الكلام وعند البلع ويظهر وجه المريض وكأنه قد جمع إلىٰ جهة واحدة، وخصوصاً عند الكلام أو التبسم .



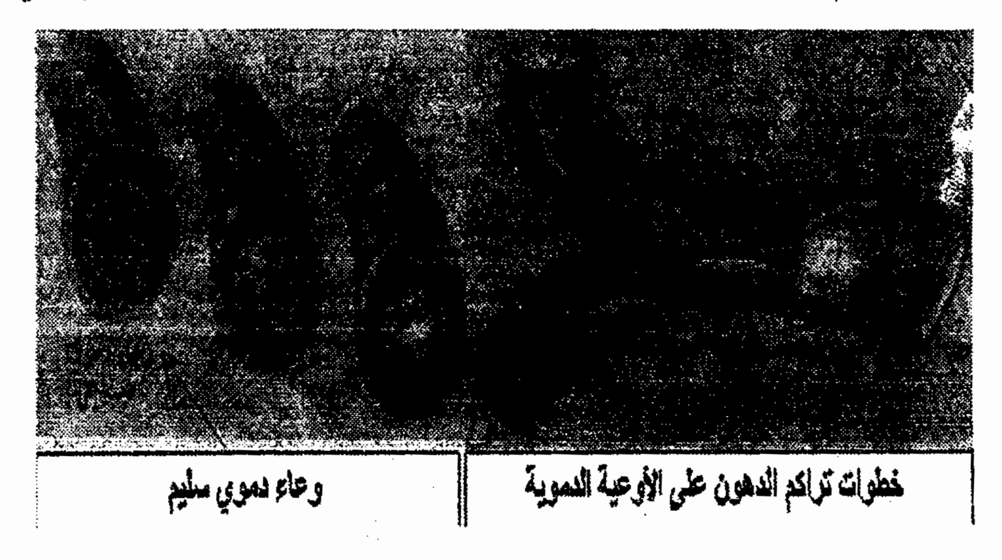
صورة توضح تأثر العصب السابع . حيث يظهر وكأن وجه المصاب قد جمع إلىٰ جهة واحدة

٦) أضرار الخمر على القلب والأوعية الدموية:

أثبتت البحوث العلمية بأن تعاطي الخمر يجعل القلب يستقطب الدهون من الدم كما يحفز خلايا القلب لتكوين هذا النوع من الدهون بنفسها فيكثر مخزون القلب من الدهون.

كما أن الخمر يساعد علىٰ امتصاص الدهون من الأمعاء فيؤدي إلىٰ ارتفاع نسبة الكولسترول في الدم الأمر الذي يؤدي إلىٰ تصلب الشرايين حيث تتجمع الدهون وبخاصة الكولسترول علىٰ جدران الأوعية الدموية، فتضيق

مجاري الدم وتكوّن جلطة دموية، فلا يحصل العضو علىٰ كمية الدم التي



خطوات تراكم الدهون على الأوعية الدموية | وعاء دموي سليم

يحتاجها فيصاب بالاحتشاء ثم الموت.

كما أن تعاطي الكحول ولو مرة واحدة يؤدي إلىٰ انسحاب عنصري البوتاسيوم والفوسفات من خلايا عضلة القلب مما يزيد من تركيز الصوديوم داخل هذه الخلايا الأمر الذي يؤدي إلىٰ اختلال في نظم القلب قد يكون بعضها مميتاً كما أنها تعتبر من أهم أسباب موت الفجأة، كما تصاب عضلة



اعتلال عضلة القلب الكحولي.. ويظهر تضخم جدران حجرات القلب | أعراض هبوط القلب.. حيث تظهر على شكل كبر حجم الكبد. وانتفاخ البطن. وتورم القدمين

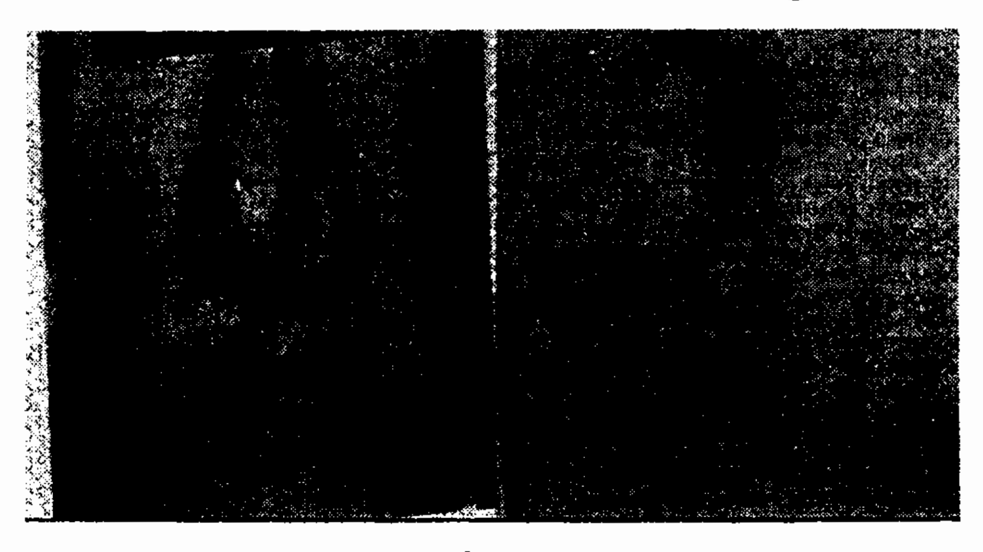
القلب عند المدمنين علىٰ الخمور بالاعتلال، وهو عبارة عن ضعف واسترخاء تتوسع علىٰ إثره حجرات القلب وخصوصاً البطين الأيسر مما يؤدي إلىٰ انخفاض قدرته علىٰ ضخ الدم إلىٰ بقية أجزاء الجسم فيؤدي إلىٰ ضعف الحركة وضيق التنفس وأحياناً يشعر بآلام في الصدر وقد تضطرب ضربات قلبه، وقد تكون النهاية بإصابة القلب بما يعرف بالهبوط الاحتقاني فتتجمع السوائل في رئتي المريض ويكبر حجم كبده وتتورم قدماه.

٧) أضرار الخمر على الجهاز التنفسي:

الجهاز التنفسي في الإنسان يتكون من:

الأنف، البلعوم، الحنجرة، القصبة الهوائية، الرئتان.

أما تأثير الخمر علىٰ الأنف فتصيبها بالورم الفقاعي حيث يحدث تشوهاً بالغاً قد يحتاج إلىٰ أجراء عملية تجميل.



الورم الفقاعي الذي يصيب أنف السكير بسبب الخمر

أما البلعوم فيؤثر عليه الخمر بتخدير لسان المزمار فلا يستطيع إغلاق الحنجرة بسرعة عند نزول الطعام إلىٰ المريء ولذلك كثيراً ما تحصل

للسكران إصابة بالاختناق والسعال الحاد من نزول شيء من الطعام أو الشراب عبر الحنجرة إلىٰ القصبة الهوائية، كما تتسبب الخمر بإصابة البلعوم بالالتهابات المتكررة فيصاب بصعوبة في البلع، وأما الخطير في ذلك فهو دور الكحول في الإصابة بسرطان البلعوم. وأما تأثير الخمر علىٰ الحنجرة فهو يؤدي إلىٰ التهابها الحاد بسبب طعم الكحول اللاذع، كما يصاب بسعال دائم، وبحة، وخشونة في صوته وذلك بسبب تورم الحبال الصوتية نتيجة للالتهاب الذي يؤدي في النهاية إلىٰ ضعف مقاومتها تجاه الجراثيم فتصبح فريسة سهلة للجراثيم التي منها بكتريا السل، وربما أصيب بسرطان الحنجرة.

وأما تأثير الخمر علىٰ القصبة الهوائية فيتمثل بالآتي:

أ ـ إلتهاب القصبات المزمن، حيث يصاب السكير غالب الأحيان ببلغم، وقد يكون البلغم مخلوطاً بدم أحياناً.

ب . توسع القصبات، ويحدث ذلك نتيجة للالتهابات الرئوية وتراكم الإفرازات التي تؤدي إلىٰ انسداد القصبات ومن ثم تصاب بالإنتانات مما يجعل القصبات تفقد قوامها فتتوسع توسعاً يزيد معه نوبات السعال حدة وتكرراً وخروج بلغم يرافقه الدم .

ج . هبوط عملية التنفس، وهو عبارة عن فشل عملية النفس والانسداد المزمن وذلك؛ لأن الخمر تؤثر علىٰ مراكز التنفس في الدماغ مما يؤدي إلىٰ تثبيطها .

كما تتعرض عضلات التنفس للضعف نتيجة لنقص الفوسفات الذي تحتاجه العضلات.

وأما تأثير الخمر علىٰ الرئتين فقد أثبتت الأبحاث العلمية تأثيره علىٰ وظائفها التي منها قدرتها علىٰ استيعاب أحجام معينة من الغازات، والسعة الانتشارية .

كما يتسبب الخمر في تقليل كمية الأكسجين في الدم ورفع نسبة ثاني أكسيد الكربون لذلك تحاول الرئتين التخلص من هذا السم فيشم رائحة

الكحول في زفير السكّير.

كما أن الخمر تؤثر علىٰ وسائل الدفاع عن الرئتين مما يجعل الجسم أكثر عرضة للإنتانات والأمراض الرئوية الأخرى .

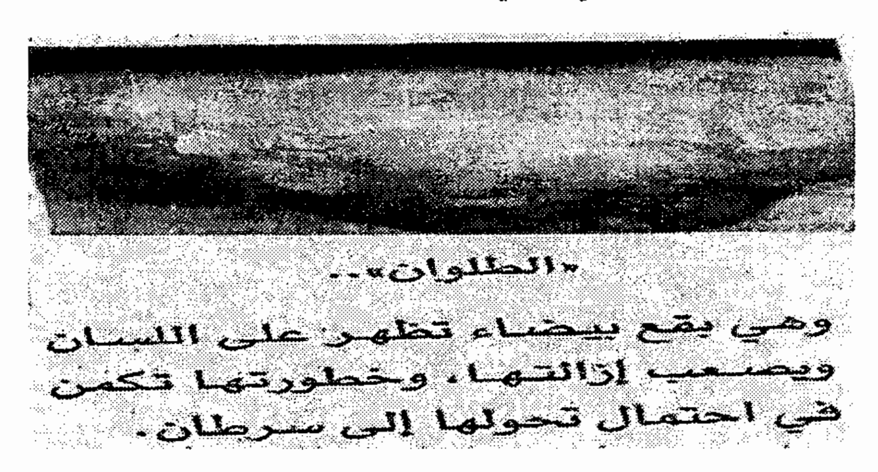
كما يتسبب الخمر في نقص الأحماض الدهنية التي تعتبر مصدراً لتكوين الدهون والحويصلات الهوائية فيؤدي إلىٰ تحطيم الهيكل البنيوي للرئتين.

كما أن التنفس عند مدمني الخمر يمكن أن يتوقف أثناء النوم ويعود السبب في ذلك إلىٰ تأثير الخمر التثبيطي علىٰ الجهاز العصبي.

٨) أضرار الخمر على الجهاز الهضمي :

يتكون الجهاز الهضمي من الفم مروراً بالبلعوم فالمرئ فالأمعاء وينتهي بفتحة الشرج ويضاف إليه البنكرياس والكبد والغدد اللعابية .

ويتسبب شرب الخمر في الآتي :



«الطلوان»..
وهي بقع بيضاء تظهر على اللسان ويصعب إزالتها، وخطورتها تكمن في احتمال تحولها إلى سرطان.

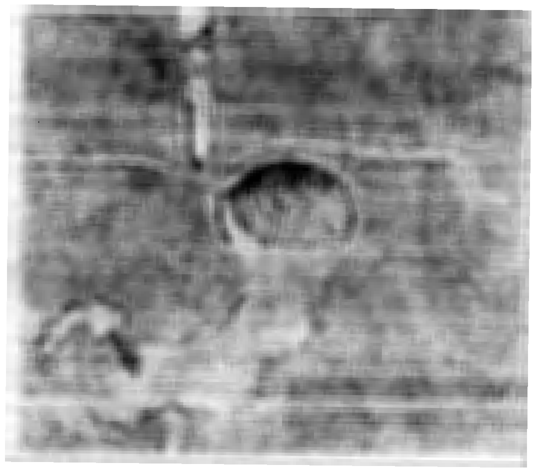
أ ـ تأثيرها علىٰ الفم فيسبب تعاطي الخمور نقص فيتامين "النياسين" فيحدث تقرحات في الفم والتهاب في اللسان. أما إذا صاحب ذلك نقص في فيتامين" الريبو فلافين" فإن الالتهابات والتشققات في زوايا الفم تظهر عند المدمنين،كما تصاب اللثة بتورم وتصبح الأسنان رخوة ويصبح النزيف منها سهلاً جداً عند فقد فيتامين (ج)، وأحياناً يظهر مرض الطلوان علىٰ اللسان

وهي بقع بيضاء تتحول أحياناً إلىٰ سرطان، وإصابة اللوزتين بذلك.

ب ـ **تأثيرها علىٰ البلعوم:** فيتسبب الكحول في إصابته بالالتهاب المنتن الذي يحدث بسبب نقص المقاومة لدى المدمنين مما يؤدي إلىٰ ارتفاع درجة حرارة المصاب كما يشعر بصعوبة في البلع والتنفس الذي قد يؤدي إلىٰ الاختناق .

وقد ثبت لدى الباحثين أن تعاطي الخمر مع السيجارة يؤدي إلىٰ الإصابة بسرطان البلعوم والحنجرة.

ج ـ **تأثيرها علىٰ المرئ** تؤثر عليه الخمر من نواحي عدة هي:



«التهاب المريء الارتدادي»

١ ـ الصمام العلوي للمرئ: وهو عبارة عن مجموعة من العضلات تقوم بحجز مواد تحاول أن تتسرب من المعدة إلىٰ البلعوم ومن ثم منعها من



التقرحات والنزيف في الغشاء المخاطي للمريء

الوصول إلىٰ الرئتين فتقوم المواد الكحولية بإضعافه .

٢ ـ الصمام السفلي للمرئ يصاب بالضعف فيؤدي إلىٰ مرض المرئ الارتدادي كما يصاب المدمن بضعف في الحركة الدودية للمرئ مما يسبب صعوبة البلع .

٣ ـ التقليل بشكل كبير من كمية اللعاب الذي تفرزه الغدد اللعابية، كما يجعل اللعاب ثخيناً فيشعر المدمن بالغثيان والقيء كل صباح لتراكم المواد المخاطية وإفرازات المعدة.

كما يحدث عند المتمادين في شرب الخمر وخاصة في الحفلات الساهرة أن المريء يتعرض للتمزق تلقائياً دون معرفة السبب ويعتبر هذا المرض مميتاً إذا لم يتم عمل جراحي لترقيع ذلك التمزق.

وأما المعدة فإن شارب الخمر المدمن يصاب بتمزق في الغشاء المخاطي المبطن لمنطقة ما تحت الفؤاد ـ وهي المنطقة الفاصلة بين المرئ والمعدة وتحدث المشكلة عند ما يصاب المدمن بنوبات من القئ الشديد والمستمر والذي يكون في أول الأمر محتوياً علىٰ إفرازات المعدة الشديدة ولكن فجأة وبدون سابقة إنذار يتقيأ المريض دماً، ويكون بشكل غزير ومستمر. والخطير في هذا المرض أنه يمكن أن يفقد المصاب حياته لشدة النزيف وغزارته ما لم ينقل سريعاً إلىٰ المستشفى ويعطي دماً.

أما تقرحات المعدة والالتهابات الحادة فهي تصيب ٩٦% من مدمني الخمور علىٰ الأقل نتيجة لتناقص نشاط الإنزيم النازع للهيدروجين.

وأما الأمعاء الدقيقة فإن الخمر يزيد من سرعة تقلصها مما يؤدي إلىٰ سرعة مرور المواد المهضومة خلال الأمعاء فلا تتاح الفرصة لعمل الإنزيمات الهاضمة فيقل الامتصاص فيصاب شاربو الخمور بنوبات من الإسهال مما يؤدي إلىٰ الجفاف ونقص كبير في أملاح الجسم مثل البوتاسيوم والمغنسيوم والفوسفات، كما تصاب جدران الأمعاء وغشاءها المخاطي بالتهتك مما يؤدي إلىٰ تعطيل الاستقلاب وتكوينها للإنزيمات.

وأما الأمعاء الغليظة فإن الخمر يصيبها بمرض القولون المتهيج الذي يؤدي إلىٰ اضطرابات في التبرز وأحياناً الإمساك مع وجع في البطن، كما أنه قد يصاب بسرطان القولون والمستقيم.

وأما البنكرياس فتصيبها الخمر بالالتهاب الحاد بنوعية النخري والتورمي، وتشير الدراسات إلىٰ ارتفاع نسبة الإصابة بسرطان البنكرياس عند المدمنين علىٰ تعاطي الخمور كما أنها تقوم بإتلاف خلايا البنكرياس مما يسبب ظهور مرض السكر بكثرة.

د ـ تأثيرها على الكبد:

١. رفع نسبة الحموضة في الدم .

٢. ارتفاع نسبة حامض (البوليك) في الدم نتيجة لانخفاض معدل إفرازه في الكلية فيصاب المريض بنوبات من داء النقرس .

٣. تراكم الدهون في الكبد فيؤدي إلىٰ تشحم الكبد .

٤. تثبيط عملية تكوين السكر في الدهون أو البروتينات مما ينتج عنه نقص السكر في الدم فيؤدي إلىٰ غيبوبة أو موت بسبب التسمم الكحولي.

٥. إصابة الكبد بالتليف ويكون الموت هو الغالب في معظم الحالات:

٦. حدوث يرقان عند المدمنين ينتج عن تحطيم كريات الدم الحمراء، كما



«الاستسقاء (الحبن)»

يحدث له انتفاخ البطن نتيجة لتراكم السوائل في تجويف البطن، بسبب نقص بروتين الألبومين الذي يصنعه الكبد واحتباس الصوديوم في الجسم نتيجة لتأثر الكليتين.

٧. ضعف قدرة الكبد علىٰ التخلص من السموم مثل مادة النشادر فتتراكم وتؤثر تأثيراً بالغاً في الدماغ فيؤثر علىٰ القدرات العقلية والاتزان في السلوك .

٨. ضمور عضلات الجسم نتيجة لنقص البروتينات التي يصنعها الكبد .

٩. يسبب الكحول ترسب الحديد في الكبد مما يؤدي إلىٰ تضخمه وفقدانه لوظائفه الحيوية والأخطر في ذلك كله التحول السرطاني للتليف الكبدي .

٩) أضرار الخمر على الجهاز التناسلي:

يؤثر الخمر مباشرة علىٰ الغدة النخامية التي بدورها تؤثر علىٰ الغدد التناسلية مما يؤدي إلىٰ نقص الهرمونات التي تحفز خلايا الخصيتين حتى تفرز هرمون الذكورة الذي يساعد في تكوين المنويات.

أما عند المرأة المدمنة فينقص إفراز هرمونات الأنوثة كما يؤدي إلىٰ ضمور في المبيضين وقنواتهما مما يؤدي إلىٰ العقم واضطراب الدورة الشهرية، كما يضعف تعلق الجنين فيكون الإجهاض المستمر مع بلوغ المرأة سن اليأس بوقت مبكر، كما أن للكحول دوراً كبيراً في سرعة انتقال الأمراض الجنسية كالزهري والسيلان والهربس والإيدز.

١٠) أضرار الخمر على الحمل والنسل:

يتميز الخمر بأن له قدرة فائقة في النفاذ خلال المشيمة، فيصاب الجنين بمرض يعرف بمتلازمة الجنين الكحولي ويولد الطفل المصاب مشوهاً خلقياً وناقص الوزن ومتخلفاً عقلياً. كما يعيق شرب الخمر إفراز الهرمون الذي بدوره يعيق إدرار اللبن إلىٰ ثدي الأم، وعودة الرحم إلىٰ وضعها الطبيعي بعد الولادة.

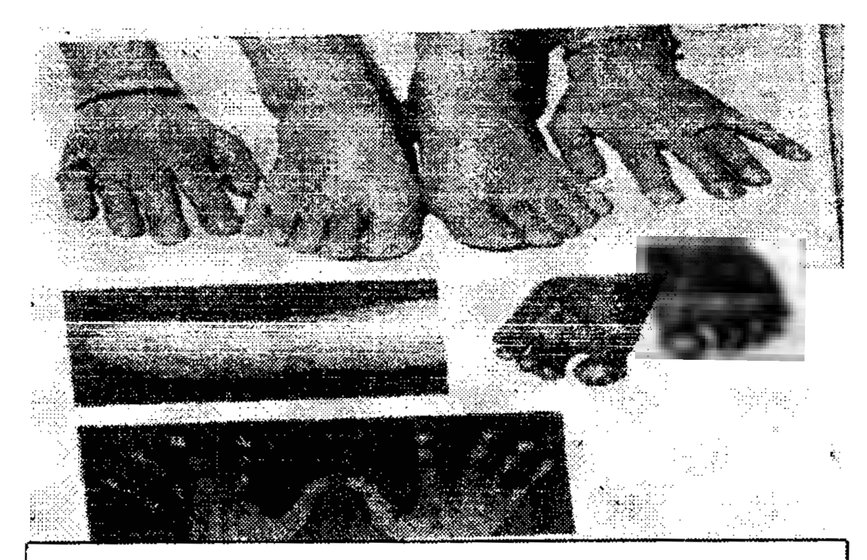
١٠) أضرار الخمر على الجهاز البولي:

ويتكون الجهاز البولي: من الكليتين، والحالبين، والمثانة، والإحليل.

فأما تأثير الخمر علىٰ الكليتين فإنه يقوم بمنع إفراز الهرمون المضاد لإدرار البول الأمر الذي يؤدي إلىٰ التبول المتكرر لدى السكير، كما يؤدي إلىٰ الإصابة بالمغص الكلوي مع ترافق وجود حصى في المسالك البولية. أما الإحليل فيتسبب الكحول في إثارة غشائه المخاطي .

١١) تأثير الخمر على العضلات والعظام والمفاصل:

قد تكلمنا عن تأثير الخمر علىٰ عضلة القلب والعضلات اللاإرادية مثل المعدة والأمعاء أما العضلات الإرادية كالرأس والجذع والأطراف فإنها تصاب بالاعتلال الكحولي الذي يؤدي إلىٰ الآم شديدة مفاجئة وتورمات تؤدي إلىٰ الإصابة بالنخر لألياف العضلات.



التغيرات اتلتي تصيب أصابع اليدين والقدمين من جراء تأثر الكبد حيث تظهر مثل رؤوس أعواد الطبل

وأما العظام فقد أثبتت الدراسات أن الخمر يجعلها لينةً وعرضة للكسر في أبسط حادث للمدمن.

وأما المفاصل فأول تأثير للخمر عليها الإصابة بداء النقرس حيث يصاب

المريض بنوبات وآلامٍ شديدة وخصوصاً مفصل إصبع القدم الكبير، كما تصاب المفاصل بتشوه بالغ مع مرور الوقت.

كما يحدث عند المدمنين لفترات طويلة ما يسمى بداء (مفصل تشاركوت) وهو عبارة عن تخدير للمفاصل المصابة حتى تدمر وتحطم دون أن يشعر المريض .

وجه الإعجاز:

كان الناس في عهد النبي ﷺ يعتقدون أن الخمر دواء ينفع لبعض الأمراض، كما ينفع لمقاومة البرد، واستمر هذا الاعتقاد عند غير المسلمين بعد زمن النبوة إلىٰ الثمانينات من القرن العشرين.

والنبي ﷺ قد بين قبل أربعة عشر قرناً أن الخمر داء وليست بدواء، وكما أن كثير الخمر مضرٌ فإن قليله مضرٌ كذلك، وأن شرب الخمر لا ينفع في مقاومة البرد، فلما تقدم العلم اليوم ووصلت أبحاثه إلىٰ الحقائق العلمية الدقيقة أثبت بأن الخمر داء وليست دواء مصداقاً لما أخبر به الحبيب محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، فمن أخبره بأن الخمر داء وليست بدواء، وأن قليل الخمر مضرٌ كما أن كثيره مضر، وأن الخمر لا ينفع في جلب الدفء، ومقاومة البرد، بينما المشاهد لظاهر جسم السكران يرى الحرارة .

فلا شك ولا ريب أن ما جاء به محمد ﷺ من عند العليم الخبير بما خلق: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: ١٤] .

وهذا مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٨] .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النَّمل: ٩٣] .

وقوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَت: ٥٣] .

* * *

المبحث الرابع

حفظ النسل

وفيه مطلبان:

يراد بحفظ النسل حفظ النوع الإنساني علىٰ الأرض بواسطة التناسل ذلك أن الإسلام يسعى إلىٰ استمرار المسيرة الإنسانية علىٰ الأرض حتى يأذن الله بفناء العالم ويرث الأرض ومن عليها.

ومن أجل تحقيق هذا المقصد شرع الإسلام المبادئ والتشريعات التالية:

المطلب الأول: الإعجاز التشريعي في الزواج:

شرع الإسلام الزواج ورغب فيه واعتبره الطريق الفطري النظيف الذي يلتقي فيه الرجل بالمرأة لا بدوافع غريزية محضة ولكن بالإضافة إلىٰ تلك الدوافع يلتقيان من أجل تحقيق هدف سام نبيل هو حفظ النوع الإنساني وابتغاء الذرية الصالحة التي تعمر العالم وتبني الحياة الإنسانية وتتسلم أعباء الخلافة في الأرض لتسلمها إلىٰ من يخلف بعدها حتى يستمر العطاء الإنساني وتزدهر الحضارة الإنسانية في ظل المبادئ النبيلة والقيم الفاضلة.

١. الزواج مودة ورحمة:

إن كل ما جاء في كتاب الله ﷻ صحيح ومطابق للعلم. فالزواج سنّة نبوية وشريعة إلهية. يقول تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرُّوم: ٢١] . فهذه المودة والرحمة والهدوء والاستقرار النفسي . . . تنشأ بفعل الزواج!.

في دراسة أجريت علىٰ ٣٤٥٠٠ شخص تبين أن الزواج يساعد علىٰ الاستقرار النفسي، ويخفض من احتمال الإصابة بالاكتئاب. وارتكزت الدراسة علىٰ مسح لمنظمة الصحة العالمية للصحة النفسية في جميع البلدان

النامية والمتقدمة، أجري على مدى العقد الماضي[١].

يقول أخصائي علم النفس السريري، كيت سكوت، من "جامعة أوتاغو" في نيوزيلندا: ما تشير إليه دراستنا أن رابط الزوجية يوفر الكثير من الفوائد للصحة النفسية لكل من الرجل والمرأة، أن الأسى والاضطراب المرتبطة بالانفصال يمكن أن تجعل الناس عرضة للاضطرابات العقلية.

وتؤكد هذه الدراسة جملة أبحاث سابقة بأن الزواج يعزز صحة الرجل و"حافظة نقود" المرأة . . إن الملحدين عزفوا عن الزواج ولجأوا إلى الصداقة والشذوذ والفاحشة، فكانت الأمراض الجنسية المعدية، وكان الاكتئاب الذي يعصف بالمجتمع الغربي، حتى إن أحدث دراسة تقول إن ١٣ % من أطفال أمريكا مصابون باضطرابات نفسية!.

ولننظر إلى المجتمعات الإسلامية، وعلى الرغم من التخلف العلمي إلا أننا نجد نسبة الاكتئاب والانتحار والأمراض الجنسية أقل بكثير جداً من أي بلد "إباحي"، وهذا دليل مادي على قوة تعاليم الإسلام وصدق هذه التعاليم وفائدتها بالنسبة للمجتمع.

إذاً نستطيع القول بأن علماء الغرب اليوم وبعد دراسات طويلة ينادون بالزواج كضرورة ماسة لصحة الفرد وزيادة دخله واستقرار حالته النفسية، ويؤكدون من خلال أبحاثهم العلمية أن الزواج أفضل من الرهبانية.. أليس هذا ما جاء به الإسلام بقبل أربعة عشر قرناً؟!!.

ألم يقل النبي ﷺ: «**لا رهبانية في الإسلام**»؟ أليس هذا النبي الرحيم هو الذي قال للشاب الذي عزف عن الزواج: «**فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

العلماء يعودون لمبادئ الإسلام: الزواج هو الأفضل:

في مقالة نشرت على جريدة ديلي ميل البريطانية بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/١٩م اعترفوا بأن الزواج أفضل للأطفال. فقد اعترف الباحثون بأن الزواج ينعكس

---

(١) CNN.

بشكل أفضل على الأطفال وأن العلاقات الزوجية تكون أكثر استقراراً، وبالتالي تنعكس على استقرار الأطفال في المنزل. لقد وجدوا أن ٧٠ % من المجرمين يأتون من بيوت غير شرعية!.

٢. المتزوجون أكثر صحة:

جاء في دراسة حديثة حسب موقع CNN أن المتزوجين في صحة أفضل من تلك التي يتمتع بها العازبون، رغم أن الرجال المتزوجين أكثر عرضة لزيادة الوزن أو البدانة من الرجال الآخرين، وذلك في إحصاء قام به المركز القومي لإحصاءات الصحة.

والحقيقة لم يحدد التقرير الذي نشر بتاريخ ١٦/ ١٢/ ٢٠٠٤م واستند على مقابلات مع أكثر ١٢٥ ألف شخص، الأسباب لذلك. وقالت تشارلوت شونبورن الخبيرة في إحصاءات الصحة وهو أحد مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها بالولايات المتحدة، والتي قادت فريق الدراسة، إن هناك نظريتين لما خلص له التقرير، بحسب وكالة الأسوشيتد برس.

النظرية الأولى: هي نظرية حماية الزواج وترى أن المتزوجين قد يتمتعون بإيجابيات أكثر بمفهوم المصادر الاقتصادية والدعم الاجتماعي والنفسي والتشجيع لاعتماد أسلوب حياة صحي.

أما النظرية الأخرى فهي نظرية اختيار الزواج ومفادها أن الناس الأكثر صحة يتزوجون ويظلون متزوجين، في حين لا يقدم الأقل صحة على الزواج أو من المرجح أن يصبحوا أكثر عرضة للانفصال أو الطلاق أو يصبحوا أرامل إذا تزوجوا.

ووجد التقرير أن بين الراشدين بسن الـ ١٨ وما فوق، ١١,٩ بالمائة منهم قالوا إنهم في صحة سيئة. وقال قرابة ١٠,٥ بالمائة من المتزوجين إنهم في صحة سيئة، فيما كانت نسبة باقي المجموعات أعلى. فالأرامل يبدو أنهم بين الأعلى في هذه المجموعات عند نسبة بلغت ١٩,٦ بالمائة.

نتائج الدراسة:

اعتمد التقرير الذي أعده المركز القومي لإحصاءات الصحة علىٰ مقابلات جرت بين ١٩٩٩ و٢٠٠٠ مع ١٢٧٥٤٥ بالغا تزيد أعمارهم عن ١٨ عاما. وأظهر التقرير أن ٥٨,٢ في المائة من البالغين متزوجون، و١٠,٤ في المائة منفصلون أو مطلقون، و٦,٦ في المائة أرامل و١٩ في المائة لم يسبق لهم الزواج و٥,٧ في المائة يعيشون مع شريك. ووجد التقرير أن حوالي ٦١ في المائة من البيض و٥٨ في المائة من ذوي الأصول الإسبانية و٣٨ في المائة من السود متزوجون.

ووجدت الدراسة أن من يعيشون معاً دون زواج أكثر عرضة للمعاناة من مشكلات نفسية مقارنة مع البالغين المتزوجين.

٣. زيادة الإنتاج العلمي والقدرة علىٰ الإبداع:

تؤكد دراسة حديثة أجراها علماء جامعة كانساس (نوفمبر ٢٠٠٦م) أن العالم المتزوج أكثر قدرة علىٰ الإبداع والإنتاج العلمي من العالِم الأعزب، ولكن الدراسة تؤكد علىٰ أن الإنتاج العلمي ينخفض لدى النساء المتزوجات بسبب انشغالهن بشؤون المنزل وتربية الأطفال ومسؤولية الزوج.

٤. عواقب من يخالف فطرة الله:

هناك أيضاً مسألة الشذوذ الجنسي نتجت من كثرة التعرِّي والفواحش المعلنة والعزوف عن الزواج، وفي دول الغرب هناك ظاهرة تنتشر بشكل كبير اليوم وهي أننا نجد رجلاً يعيش مع رجل آخر أو امرأة مع امرأة، يعيشان وكأنهما زوجان، وتؤكد الإحصائيات أن نسبة العنف بين الشاذين جنسياً كبيرة جداً، تصل إلىٰ ١٨ ضعف العنف بين الأزواج الطبيعيين. وتصل نسبة العنف والضرب بين الشاذين جنسياً إلىٰ أكثر من ٣٠ بالمائة حسب هذه الإحصائيات (Statistics Canada، Canada's National Statistical Agency، July ٧، ٢٠٠٥).

ويؤكد الباحثون في هذا المجال أن العلاقات غير الطبيعية أي بين

المتماثلين جنسياً ويسمونها زواج المثلية، لا تدوم لأكثر من سنتين أو ثلاث سنوات، وهذا أكبر دليل علىٰ أن أي شيء يخالف فطرة الله تعالىٰ لا يستمر ولا يثمر!بالإضافة إلىٰ الكثير من الأمراض وعلىٰ رأسها طاعون العصر الايدز.

أ ـ الأولاد غير الشرعيين:

في الولايات المتحدة الأمريكية ارتفعت معدلات الولادات الناتجة عن زواج غير شرعي حتى وصلت إلىٰ ٣٧ % (إحصائيات ٢٠٠٤م)، والغريب أن ظاهرة الأولاد غير الشرعيين في الغرب أصبحت مقبولة من قبل الرجال والنساء علىٰ حد سواء.

وتقول الدراسة المنشورة علىٰ موقع BBC إن نسبة الأولاد غير الشرعيين في بريطانيا كانت ١٢ % في عام ١٩٩٨م وقفزت إلىٰ ٤٢ % عام ٢٠٠٤م (Office for National Statistics). أما في دول أوربا الغربية فنسبة الأولاد غير الشرعيين (أي أولاد الزنا) تصل إلىٰ ٣٣ % (the annual ONS Social Trends report).

لقد أصبحت نسبة الرجال الذين يعيشون مع زوجات غير شرعيات ٢٤% ونسبة النساء اللاتي يعشن مع أزواج غير شرعيين أصبحت ٢٥ % (ONS، ٢٠٠٤).

نسبة الأولاد غير الشرعيين في بعض دول أوربا، النسبة في السويد مثلاً وصلت إلىٰ ٥٥ % عام ٢٠٠٤م. وفي أفضل الحالات مثل إسبانيا فإن النسبة وصلت في العام ٢٠٠٣م إلىٰ ٢٢ %، الملاحظ هنا أن: من كل ١٠٠ مولود هناك من ٢٢ إلىٰ ٥٥ مولود غير شرعيين، ألا ترون معي أن هذه مؤشرات لانهيار حضارة الغرب[١]!.

ب ـ الاغتصاب: من نتائج العزوف عن الزواج:

في بلد هو الأكثر تطوراً في العالم يمكن أن تتوقع حدوث اغتصاب لامرأة

---

(١) (المرجع BBC).

أو فتاة كل دقيقتين ونصف!! وتقول الإحصائية إن من بين كل ست فتيات في أمريكا هناك فتاة على الأقل تم اغتصابها ذات يوم!!! وفي عام واحد تغتصب ٢٠٠٠٠٠ امرأة، وهذا كل عام! وبالطبع هذه إحصائيات رسمية، أما الأرقام الحقيقية فهي أكبر من هذا بكثير!!.

حتى إن دول كثيرة في الغرب خصصوا أرقام هواتف خاصة لتشجيع الفتيات على الاتصال للإبلاغ عن حالات الاغتصاب، لأن معظم الحالات لا يتم الإبلاغ عنها، وهناك مشافي ضخمة جداً لعلاج الآثار النفسية التي تعاني منها الفتاة التي تم اغتصابها، كذلك هناك مقررات تُدرَّس في الجامعات عن علاج النتائج الخطيرة للاغتصاب وأثر هذه الظاهرة المدمرة للمجتمع.

ولذلك فإن معظم حالات الاعتداء الجنسي التي تقع على النساء تأتي من معارفهن وأصدقائهن ومن لهم علاقة حميمة بهن. ويقول العلماء الذين درسوا هذه الحالات: إن ثلاثة أرباع حالات الاغتصاب تتم من قبل الأصدقاء والمعارف والأشخاص ذوي الصلة المباشرة بالفتاة (National Crime Victimization Survey، ٢٠٠٥). ومعظم هذه الحالات تتم في بيت هذا الصديق أو ذاك!.

لذلك فإن الابتعاد عن طريق الله والإعراض عن ذكره يعرض صاحبه لضنك العيش، فلن يكون سعيداً في الدنيا، أما في الآخرة فالعذاب بانتظاره، لقد كان في الدنيا ينظر إلى ما حرم الله ويمتع نظره بالفواحش ولذلك سوف يفقد هذا البصر يوم القيامة ويحشره الله أعمى، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٧].

المطلب الثاني: الإعجاز التشريعي في الطلاق.

أما وإن الإسلام قد شرع الزواج فإنه أي الزواج في بعض الحالات يعتريه

الفشل ولابد هنا من مخرج آمن للزوجين لا تهضم فيه الحقوق ولا يحيف احدهما على الأخر، على عكس بعض الأديان التي جعلت الزواج حكما أبديا وحرمت الطلاق فكأنها حكمت على الزوجين بالسجن المؤبد وهنا شرع الإسلام كعادته في جميع أحكامه الاعجازية شرع الطلاق وحدد له شروطا وأسسا وسوف نتناول **الإعجاز التشريعي في الطلاق.**

وهذا جانب جديد من جوانب الإعجاز في القرآن والسنة والمتمثل في تشريع الطلاق من خلال آيات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأقوال الأئمة الفقهاء لبيان وتصحيح ما يدعيه أو يظنه بعض الناس من المسلمين وغير المسلمين من أن تشريع الطلاق شر وظلم للمرأة والأسرة والمجتمع والحقيقة أنه خير وصلاح لجميع الأطراف لأنه تشريع الحكيم الخبير سبحانه وتعالى الذي لا يشرع إلا الخير ولا يدعو إلا إلى الرحمة والمصلحة للجميع في كل البيئات وفي جميع الأحوال، ويلبي احتياجات جميع الأطراف ويلاءم الفطرة السليمة بما يرفع الحرج عنهم ويزيل المشقة من حياتهم، ولولاه لوقع الناس في حرج عظيم ومشقة بالغة، وليس ذلك دعوة للطلاق وإذناً فيه، ولكنه بيان وتوضيح لعظمة التشريع الإسلامي في موضوع تشريع الطلاق وتصحيح لما فهمه أو ظنه بعض الناس من التعسف في أحكام التشريع وتعميم الحكم في جميع الأحوال والحق أنه للضرورة ورفع الحرج في بعض الأحوال ويتبين الإعجاز التشريعي في الطلاق في النقاط التالية:

أولاً: أن الإسلام جعله على مرات متفرقة ولم يجعله دفعة واحدة حتى يتسنى لكل طرف أن يراجع نفسه وأن يصحح خطأه وأن يندم على ما فعل فتتحقق العبرة والفائدة وتكون الثمرة المرجوة، قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٩] ، فأتاح للطرفين فرصتين للانفصال والمراجعة للنظر في العلاقة ونتائجها ثم ليكون الاختيار الصحيح بين الاستمرار بالمعروف، أو الانفصال بالإحسان وهنا يظهر الإعجاز حيث لم يجعل التشريع الطلاق هدفاً في ذاته أو تشريعاً بلا هدف أو تبعاً للهوى وإنما

جعله دواء مراً للإصلاح والشفاء فإن لم يثمر الدواء ويتحقق الشفاء فلنبحث عن دواء آخر قد يكون البتر والفراق ولكن بإحسان ودون ظلم أو عدوان وذلك أولى من انتشار المرض في جميع الأعضاء وهي العلاقة الزوجية.

ثانياً: في استخدام القرآن للفظ الطلاق إعجاز لغوي وإعجاز تشريعي، أما اللغوي فلأن هذا اللفظ دون غيره هو الدال علىٰ تمام الانفصال ورفع قيد الزوجية، وأما التشريعي فلأنه اللفظ الصريح الذي لا يحتاج إلىٰ نية أما غيره من نفس المادة فيحتاج إلىٰ نية، ويلحق بالصريح الفراق والسراح، كما أنه اللفظ الذي ينهي العلاقة مؤقتاً في المرتين الأولى والثانية أما الفسخ والايلاء والظهار والخلع فينهيها بلا رجعة.

ثالثاً: أثبتت التجارب أنه لابد أن يكون إلىٰ الفرقة سبيل حيث الطباع متنافرة فإن لم يوجد سبيل مشروع للفرقة ظهرت سبل أخرى خطيرة كالخيانة والقتل فكان الطلاق بالمعروف أخف الأساليب والوسائل للتفريق بين المتنافرين بإحسان وعدل، وهذا ما قرره بنتام في كتابه أصول الشرائع حين قال: "لو كان الموت وحده هو المخلص من الزواج لتنوعت صنوف القتل واتسعت مذاهبه"، ومن هنا اعترفت بلاد كثيرة بالطلاق بعد أن كانت ترفضه، وهذا دليل علىٰ أن الإسلام بتشريع الطلاق سبق الآخرين وهذه صورة من صور الإعجاز كما ظهر من قبل في النطفة الأمشاج ومراحل الجنين.

رابعاً: ومن صور الإعجاز في تشريع الطلاق ما وضعه الإسلام قبل ذلك من تدابير في الزواج ليقلل من وقوع الطلاق كالخطبة والعقد والحقوق الزوجية وإشاعة السكينة والمودة والرحمة وسيادة روح العفو والتسامح، وحتى إذا وقعت الطلقة الأولى فلتبق الزوجة في بيت الزوجية كأن شيئاً لم يكن ولم يدر بذلك أحد .. ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الطّلَاق: ١] .

خامساً: وإذا وقعت الطلقة الأولى فالزوج مندوب إلىٰ المراجعة وهذا حقه لا ينازعه فيه أحد وتتم المراجعة بالكلمة أو بالفعل وكأن شيئاً لم يكن،

"وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهن مثل الذي عليهم بالمعروف وللرجال عليهن درجة".

سادساً: ومن صور الإعجاز في تشريع الطلاق في الإسلام أنه وسط بين الشرائع فلا هو مطلق كاليهودية ولا ممنوع كالمسيحية.

سابعاً: ومن وجوه الإعجاز أن التشريع الإسلامي جعل الطلاق من حق الرجل وحده لأنه أحرص علىٰ بقاء الزوجية حيث أنفق في سبيلها من المال ما يحتاج إلىٰ إنفاق مثله أو أكثر إذا طلق وأراد زواجاً آخر حيث سيتحمل أعباء الزواج الأول والطلاق وآثاره ثم أعباء إنشاء الزواج الثاني، فهو بمقتضى عقله ومزاجه يكون أصبر علىٰ ما يكن من المرأة فلا يسرع إلىٰ الطلاق، والمرأة أسرع من الرجل غضباً وأقل احتمالاً وليس عليها من تبعات الطلاق ونفقات البيت والزواج مثل ما عليه فهي أسرع إلىٰ حل عقدة الزوجية لأدنى الأسباب والدليل علىٰ صحة ذلك أن الإفرنج لما جعلوا طلب الطلاق حقاً للرجال والنساء علىٰ السواء كثر الطلاق عندهم فصار أضعاف ما عند المسلمين، ومن جمال التشريع الإسلامي أنه أعطى المرأة حقاً آخر في مقابل ذلك وهو الخلع إذا أرادت أو الطلاق عن طريق القضاء.

ثامناً: ومن صور الإعجاز أنه لا يقع من أي رجل وفي أي حال وبأي لفظ وعلىٰ أي امرأة وإنما قيده التشريع بصور وضوابط صارمة إذا طبقت كان قليلاً أو نادراً أو لغوا لا أثر له، وهناك الطلاق السني والبدعي والصريح والكناية، والرجعي والبائن.

تاسعاً: ومن وجوه الإعجاز التشريعي في الطلاق عن طريق القضاء رفع الظلم عن المرأة وإنقاذها من الضرر في حالات عجز الرجل أو غيبته أو سجنه أو تعسفه وسوء عشرته أو فقره وإنما كان ذلك صيانة للمرأة وحماية لها.

عاشراً: ومن وجوه الإعجاز التشريعي أن حكم التكليف ليس واحداً للحميع بل يتراوح بين الأحكام التكليفية الخمسة، فالأصل فيه التحريم ولكنه قد يباح وقد يستحب وقد يجب وقد يكره، وهذا التنوع دليل اليسر وملائمة

الأحوال والظروف.

حادي عشر: ومن صور الإعجاز التشريعي في الطلاق أنه يحمي المرأة بعد طلاقها بالنفقة والمتعة ومؤخر الصداق وحضانة الأولاد والإنفاق عليهم وأجرة الحضانة وما ذاك إلا ليحافظ للمرأة علىٰ كرامتها ومشاعرها.

ثاني عشر: وأهم من ذلك كله كفالة الله ﷻ ورعايته للمطلقين رجالاً ونساء بالعوض الطيب والخير الواسع ماداما مظلومين، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ١٣٠] .

* * *

المبحث الخامس

الإعجاز التشريعي في حفظ العرض

وفيه مطلبان:

تمهيد:

لقد كرم الله الإنسان ورفع شأنه علىٰ جميع المخلوقات وشرع له ما يصون كرامته وعرضه وماله بل وحرم كل ما يؤدي إلىٰ النيل من هذه الأشياء حتى مجرد الاقتراب منها قبل الخوض فيها لذلك عمل الإسلام علىٰ سد الذرائع فشرع حدي القذف، الزنا:

المطلب الأول:الإعجاز التشريعي في حد القذف:

الإعجاز التشريعي في تحريم قذف المحصنات واعتباره من أكبر الكبائر، وذلك بعد تحريم الزنا تحريما قاطعا، وتفظيع جرمه، وتقرير حده، وتقطيع الصلة فيما بين الزناة والمجتمع المسلم. ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النُّور: ٤].

من أوجه الإعجاز التشريعي في النص الكريم.

من دلالات قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النُّور: ٤] أي: الذين يقذفون العفيفات من الحرائر (ثيبات وأبكارا) بتهمة الزنا بدون دليل قاطع. وكل أنثى عفيفة هي مُحصَنة ومُحصِنة (بالفتح والكسر)، وكل امرأة متزوجة فهي مُحصَنة (بالفتح).

والقذف قد يكون بالتصريح أو بالتلميح (أي بالتعريض أو الكناية) وإن كان التعريض عند عدد من الفقهاء لا يعتبر قذفا إلا إذا اعترف القاذف بقصد القذف فيقام عليه الحد.

وفي الآية الكريمة يقول ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ ..﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النُّور: ٤] .. و(الشهداء) جمع (شاهد)، والمقصود بأربعة شهداء هنا هو أربعة

من الرجال، لأن شهادة النساء لا تقبل في حد القذف، سترا على العباد، لتميز النساء بالثرثرة في أغلب الأحوال. ويؤكد ذلك مجيء العدد (أربعة) في الآية الكريمة بصيغة التأنيث لأن الأعداد من الثلاثة إلى العشرة لا تأتى بصفة التأنيث إلا مع المذكر، والعكس صحيح.

ولم تذكر الآية الكريمة في صفة (الشهداء) أكثر من أنهم أربعة رجال. ومن الفقهاء من يرى أنه لابد للشاهد أن يكون عدلا، ومنهم من لا يشترط ذلك. كذلك لا فرق عند فقهائنا بين أن يؤدى الشهود الأربعة شهادتهم مجتمعين أو متفرقين.

وفي قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ أي: اضربوهم ثمانين ضربة على جلودهم، بالجلد أو بغيره، وذلك لأن الجلد هو الضرب، وأن (المجالدة) هي المضاربة في الجلود بالجلود أو بغيرها. وشروط (القاذف) هي شروط التكليف من البلوغ، والعقل، والحرية. و(حد القذف) فيه شيء من الانتقام من (القاذف)، لتجاوزه حدًا من حدود الله، وفيه رد شيء من حقوق العباد وهو إزالة الفضيحة والمعرة التي أوقعها القاذف بالمقذوف بدون دليل قاطع.

من هنا كان في تشريع حد القذف صيانة لحق المقذوف الذي اتهم بأمر باطل، وحفظا لحق الله ـ تعالى ـ الذي لا يرتضى من عباده إلا الصدق وقول الحق، ولذلك قال ـ تعالى ـ في حق القاذفين: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤] وأن من معاني الآية الكريمة أن القاذف الكاذب الملفق يحكم عليه بالجلد ثمانين جلدة، وبألا تقبل منه شهادة أبدًا، وأن يوصف بالفسوق والعصيان لأوامر الله. ولكن من رحمة الله بعباده أنه بعد هذه الآية الكريمة عقب بقوله ـ تعالى ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عمران: ٨٩] .

والفقهاء يفسرون الآيتين الرابعة والخامسة من سورة "النور" على وجهين: فمنهم من يرى أن الاستثناء الوارد بعد الجمل المتعاطفة بحرف (و) يرجع إلى كل الجمل السابقة عليه، ومنهم من يراه مقصورا على الجملة الأخيرة

فقط. وعلىٰ ذلك فالأولون يحكمون بأن القاذف بغير دليل إذا تاب بعد إقامة الحد عليه قبلت شهادته، ورفع عنه وصف الفسق. والآخرون يرون أن يرفع عنه وصف الفسوق فقط، ولكن لا تقبل شهادته. وحجة هؤلاء هي حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «**المسلمون عدول بعضهم علىٰ بعض إلا محدودا في قذف**».

ويتضح **وجه الإعجاز التشريعي في هذا الحكم الإلهي** في أن الذين ينتهكون حرمات الناس بالباطل، فيرمون العفائف الشريفات الطاهرات أو الشرفاء الأطهار من المسلمين بفاحشة الزنا ـ وهي فاحشة تخدش العرض والشرف وتثلمهما ـ ثم لم يأتوا علىٰ دعواهم بأربعة من الشهداء فجزاؤهم الجلد ثمانين جلدة، وإهدار كرامتهم بعدم قبول شهادتهم، واعتبارهم من الفاسقين، إلا إذا تابوا بعد إقامة الحد عليهم، واعترفوا علىٰ أنفسهم بأنهم كذبوا، وقالوا بهتانا فيما قذفوه، حتى يكون في ذلك تبرئة للمقذوف من فم القاذف.

وجريمة القذف دون دليل قاطع إذا تركت دون عقاب رادع فإنها تدمر كرامة الأفراد، وتشيع الفاحشة في المجتمعات فتقوض بنيانها. وذلك لأن هذه الجريمة إذا شاعت فإنها تترك الباب مفتوحا أمام كل من شاء أن يتهم بريئا في عرضه بهذه التهمة النكراء، ثم يمضي بدون عقاب، يلوث الأعراض، ويدمر السمعة، ويجعل كل فرد في المجتمع عرضة لهذا الاتهام الشنيع، مما يثير الشكوك والريبة فيه ويهدده بالإفلاس والانهيار.

ولصيانة المجتمعات المسلمة من أخطار ذلك شدد القرآن الكريم في عقوبة القذف، وجعلها قريبة من عقوبة الزنا، ردعا لكل من يسول له الشيطان، أو تحدثه نفسه الخبيثة في اقتراف تلك الجريمة النكراء، والولوغ في أعراض الناس بالباطل، أو بالظن الكاذب، ولذلك قال ـ تعالىٰ ـ في نفس السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٢٣].

والمجتمعات الإنسانية ـ بصفة عامة ـ والمسلمة منها ـ بصفة خاصة ـ يؤذيها السكوت عن إشاعة التهم الباطلة بين أفرادها، لأن ذلك قد يعين علىٰ الترخص

فيما تشيعه تلك التهم من جرائم، والوقوع فيها إذا لم تتوافر العقوبات الرادعة لها. وكل من يتعرض لإحدى هذه التهم الباطلة قد يصيبه من التدمير النفسى ما لا يقدر علاج علىٰ إصلاحه، ومن هنا كان تشديد القرآن الكريم علىٰ عقوبة القذف حماية لكل من الأفراد والمجتمعات المسلمة من الدمار.

المطلب الثاني:الإعجاز التشريعي في تحريم الزنا:

ومن أجل الحفاظ علىٰ العرض، شَرَع القرآن الكريم حدَّ الزِّنا في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور: ٢]، هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، أن يجلد كلٌّ منهما مائة جلدة بخلاف الزَّاني المحصن، أو الزَّانية المُحصنة، فقد دلَّت السُّنة الصحيحة علىٰ أنَّ الحدَّ لكل منهما هو الرجم[(١)].

ولا يقتصر تحريم الإسلام لفاحشة الزنا علىٰ الأسباب الاجتماعية فحسب بل إن الأمراض الجسمية والنفسية لها نصيب كبير في التحريم. فمن أضراره مرض الزهري الذي يصيب جميع أجهزة الجسم كالجهاز العصبي والتناسلي والهضمي ويصيب العظام والمفاصل والجلد والعين والأذن. ومن أمراضه السيلان الذي ينذر العالم بشر كبير وسببه ميكروب صغير لايرى إلا بالمجهر وسببه الجماع فيصاب الرجل إذا اتصل بامرأة مصابة. . ومن أمراضه داء الإيدز وهو مرض حديث ظهر في أمريكا عام ١٩٨١م وهو عبارة عن فيروس موجود في سوائل الجسم المختلفة كالدماء والسائل المنوي والدموع واللعاب وتنتقل العدوى بالإيدز عن طريق اللقاء الجنسي ويهاجم فيروس الإيدز الخلايا التي تدافع عن الجسم ضد غزو الميكروبات فإذا حدث ذلك فإن هذه الخلايا تعجز عن أداء دورها ويتم تدمير قدرة الجسم علىٰ مقاومة المرض وتؤكد الإحصائيات أن ٩٠٪ من المصابين بمرض الإيدز يأتي في مقدمتهم المنحلون الاباحيون.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحدود، باب حد الزِّنا، (٥/ ٢٦٧).

ومن أمراضه مرض الهربس التناسلي وهو مرض سببه جرثومة تستقر قرب الدماغ وعند النخاع الشوكي وهذه الجرثومة تؤدي إلىٰ سرطان الرحم والبروستات والمصاب بهذا المرض يفكر دائما في الانتحار.أهـ.

وبالتالي فعواقب الزنا التي تنعكس علىٰ الفرد والمجتمع كثيرة . فمنها تزييف النسل وإنجاب الأولاد غير الشرعيين وهذه في تصور الإسلام كارثة نكراء توهن المجتمع وتؤدي بالبيت والأسرة إلىٰ الخواء.

ومنها خيانة النفس من الداخل فإن هذه الحياة المباركة ما ينبغي لمتلصص ولا متدسس ولا خئون أن ينال منها.، ومنها شيوع الشكوك والظنون في أوساط المجتمع بما يقضي إلىٰ انعدام الثقة بين الأفراد والأزواج وذلك بدوره يقضي إلىٰ انحلال الزوجية وتفكك الأسرة ومنها أن هذه الرذيلة تتدنس فيها أجساد الزناة وتعرضهم إلىٰ أمراض فتاكة قد تقدم بعضها.



المبحث السادس

الإعجاز التشريعي في حماية الأموال

وفيه أربعة مطالب:

كما هو شأن الإسلام دائما مع النزعات الفطرية للإنسان حيث يبيح إشباعها ويلبي مطالبها ضمن الحدود المعقولة، مع التهذيب والترشيد حتى تستقيم وتحقق الخير للإنسان ولا تعود عليه بالشر، كان هذا شأنه مع نزعة حب التملك الأصلية في الإنسان، فقد أباح الملكية الفردية وشرع في ذات الوقت من النظم والتدابير ما يتدارك الآثار الضارة التي قد تنجم عن طغيان هذه النزعة من فقدان للتوازن الاجتماعي، وتداول للمال بين فئة قليلة من المجتمع، ومن النظم التي وضعها لأجل ذلك نظم الزكاة، والإرث، والضمان الاجتماعي.

ومن ثم اعتبر الإسلام المال ضرورة من ضروريات الحياة الإنسانية وشرع من التشريعات والتوجيهات ما يشجع علىٰ اكتسابه وتحصيله، ويكفل صيانته وحفظه وتنميته، وذلك علىٰ النحو التالي:

أ ـ وسائل الحفاظ علىٰ المال إيجادا وتحصيلا:

١. الحث علىٰ السعي لكسب الرزق وتحصيل المعاش فقد حث الإسلام علىٰ كسب الأموال باعتبارها قوام الحياة الإنسانية واعتبر السعي لكسب المال ـ إذا توفرت النية الصالحة وكان من الطرق المباحة ـ ضربا من ضروب العبادة وطريقا للتقرب إلىٰ الله قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [المُلك: ١٥] .

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجُمُعَة: ١٠] .

٢. أنه رفع منزلة العمل وأعلى من أقدار العمال، قال رسول الله ﷺ: «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل**

يده»[1]، وقرر حق العمل لكل إنسان وجعل من واجب الدولة توفير العمل لمن لا يجده، كما قرر كرامة العامل وأوجب الوفاء بحقوقه المادية والمعنوية، يقول ﷺ: «**أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه**»[2].

٣. إباحة المعاملات العادلة التي لا ظلم فيها ولا اعتداء علىٰ حقوق الآخرين، ومن اجل ذلك أقر الإسلام أنواعا من العقود كانت موجودة بعد أن نقاها مما كانت تحمله من الظلم، وذلك كالبيع والإجارة والرهن والشركة و غيرها، وفتح المجال أمام ما تكشف عنه التجارب الاجتماعية من عقود شريطة أن لا تنطوي علىٰ الظلم أو الإجحاف بطرف من الأطراف أو تكون من أكل أموال الناس بالباطل.

ب ـ وسائل المحافظة على المال بقاء واستمرارًا:

١ ـ ضبط التصرف في المال بحدود المصلحة العامة ومن ثم حرم اكتساب المال بالوسائل غير المشروعة والتي تضر بالآخرين، ومنها الربا لما له من آثار تخل بالتوازن الاجتماعي، قال تعالىٰ: .. ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٥] .. وسوف نتناوله بشيء من التفصيل:

٢ ـ كما حرم الاعتداء علىٰ مال الغير بالسرقة أو السطو أو التحايل وشرع العقوبة علىٰ ذلك قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المَائدة: ٣٨] .

وأوجب الضمان علىٰ من أتلف مال غيره، قال ﷺ: «**كل المسلم علىٰ المسلم حرام دمه و ماله وعرضه**»[3].

٣ ـ منع إنفاق المال في الوجوه غير المشروعة، وحث علىٰ إنفاقه في سبل الخير، وذلك مبني علىٰ قاعدة من أهم قواعد النظام الاقتصادي الإسلامي وهي أن المال مال الله وأن الفرد مستخلف فيه ووكيل قال تعالىٰ: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ

---

(١) الترمذي.

(٢) صحيح الجامع برقم(١٠٥٥).

(٣) صحيح سنن ابن ماجة برقم(٣٩٣٣).

وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [الحديد: ٧] .

ومن ثم كان على صاحب المال أن يتصرف في ماله في حدود ما رسمه له الشرع، فلا يجوز أن يفتن بالمال فيطغى بسببه لأن ذلك عامل فساد و دمار قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦] .

ولا يجوز له أن يبذر في غير طائل قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦] .

٤ ـ سن التشريعات الكفيلة بحفظ أموال القصر والذين لا يحسنون التصرف في أموالهم، من يتامى وصغار حتى يبلغوا سن الرشد ومن هنا شرع تنصيب الوصي عليه قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء: ٦].

ومن ذلك الحجر على البالغ إذا كان سيء التصرف في ماله قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾ [النساء: ٥] .

٥ ـ تنظيم التعامل المالي على أساس من الرضا والعدل ومن ثم قرر الإسلام أن العقود لا تمضي على المتعاقدين إلا إذا كانت عن تراض وعدل ولذلك حرم القمار قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩] .

٦ ـ الدعوة إلى تنمية المال واستثماره حتى يؤدي وظيفته الاجتماعية وبناء على ذلك حرم الإسلام حبس الأموال عن التداول وحارب ظاهرة الكنز قال تعالى: .. ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] .

جـ ـ شرع الميراث:

حتى يحافظ لصاحب المال على ماله بعد موته فلا ينتقل إلا إلى اقرب الناس إلى الميت وبالتالي أحبهم إليه فيكون بذلك قد حفظ له الشرع ماله حيا وبعد وفاته.

وبهذه التشريعات كلها حفظ الإسلام المال وصانه عن الفساد حتى يؤدي دوره كقيمة لا غنى عنها في حفظ نظام الحياة الإنسانية،وتحقيق أهدافها الحضارية والإنسانية.

شأنه في ذلك شأن كل المصالح السابقة التي تمثل أساس الوجود الإنساني وقوام الحياة الإنسانية ومركز الحضارة البشرية، والتي بدون مراعاتها وحفظ نظامها يخرب العالم وتستحيل الحياة الإنسانية ويقف عطاؤها واستثمارها في هذا الوجود. وسوف نتعرض بشيء من التفصيل للإعجاز التشريعي في الحفاظ على المال في المطالب التالية:

المطلب الأول: في حمايتها من الضياع وذلك من خلال الإعجاز التشريعي في أطول آية من القرآن.

يتميز كتاب الله ﷻ بأنه كتاب صالح لكل زمان ومكان، ولذلك فهو شامل لكل العلوم التي يحتاجها الإنسان في حياته، ومنها علم القانون والقضاء، وربما نعجب إذا علمنا أن معظم القوانين الوضعية التي يفتخر رجال القانون باكتشافها ووضعها، معظمها موجود في كتاب الله تعالى، ومن هذه القوانين ما ينظم شؤون الدين والعقود والبيع والشراء، أو ما يسمى بنظام الكاتب بالعدل.

وإذا ما تأملنا اليوم هذا النظام نرى بأنه يتضمن العديد من القوانين وجميعها موجود في القرآن ولكن بصورة أكثر بلاغة ووضوحاً. وسوف نعدد بعضاً من الأنظمة التي وضعها رجال القانون في فرنسا منذ أكثر من قرنين، وأخذتها معظم الدول العربية فيما بعد على أنها نتاج الحضارة الغربية "المتقدمة" ثم تبيّن بعد ذلك أن هذه القوانين هي ذاتها في كتاب الله تبارك وتعالى!.

والذي يثير العجب أن الله تعالىٰ جمع كل هذه المعاملات في آية واحدة من القرآن وهي آية الدَّين وهي أطول آية في كتاب الله تبارك وتعالىٰ، لنتأمل هذه المعجزات التشريعية الرائعة.

١ ـ نظام التوثيق:

في القرن السابع الميلادي لم يكن مألوفاً لدى العرب أو لدى الأمم من حولهم عملية توثيق البيع والشراء. فقد كانت العمليات التجارية تتم عشوائياً من دون أي تنظيم، إلا في حدود ضيقة جداً. وبقي الوضع علىٰ ما هو عليه حتى جاء الإسلام عندما أمر النبي ﷺ بتوثيق العمليات التجارية بين الناس.

وبالطبع لم يأت النبي بهذا النظام من تلقاء نفسه، بل بأمر إلهي في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢]، ولذلك يمكن القول بأن أول تنظيم للعمليات التجارية تم في العهد الإسلامي. وفي العصر الحديث جاءت الثورة الفرنسية، وبدأت بعدها صياغة مجموعة من القوانين التي تنظم العمليات التجارية، والعجيب أن هذه القوانين ذاتها موجودة في القرآن العظيم!.

٢ ـ نظام الكاتب بالعدل:

هذا النظام لم يكن معروفاً في الدول المتقدمة إلا حديثاً، ثم أخذته الدول العربية منها، ونسينا بأن هذا النظام موجود في القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً في قوله تعالىٰ: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] ، ولذلك يجب القول بأن نظام الكاتب بالعدل والذي يهدف لتوثيق عمليات البيع والشراء بين الناس، هو نظام قرآني وليس نظاماً غربياً!.

ثم إن القرآن أمر بكتابة كافة التفاصيل في العَقد، وكتابة العقود فنّ قائم بذاته، لأن كلمة واحدة قد تغير مضمون العقد بشكل كامل، ولذلك فإن القوانين الحديثة تقول بأنه ينبغي كتابة كل التفاصيل صغيرة أو كبيرة، وهذا ما أشار إليه القرآن بقول تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] ، انظروا معي كيف تحدد هذه الآية الأجل أو المدة في

العقد، ويقول خبراء القانون، إن أهم ركن من أركان العقد هو الأجل أو مدة العقد أو زمن تسديد الدين!.

القوانين الحديثة تقول بأنه ينبغي على الكاتب بالعدل أن يكتب الحقيقة كاملة ولا يتواطأ مع أحد الفريقين على حساب الآخر، وهذا ما أكده القرآن ولم يغفل عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] .

كذلك تقول القوانين الحديثة إنه يجب الإقرار من قبل كلا الطرفين وبخاصة الطرف الدائن أو البائع أو صاحب السلعة، وأن يكون الإقرار واضحاً لا لبس فيه، والعجيب أن القرآن ذكر هذا الأمر أيضاً، يقول تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] "يملل" أي يردد العبارات التي تفيد بأنه موافق على عملية الدين أو البيع.

٣ ــ نظام الولّي والوكالة:

هناك أشخاص ليس لديهم القدرة على البيع والشراء وليسوا مؤهلين قانونياً لمثل هذه العمليات، ومنهم الأطفال والمصابين بأمراض عقلية وهؤلاء أجاز لهم القانون اتخاذ ولي أو وكيل لهم ينوب عنهم في العقد. والقرآن أيضاً لم ينسَ ذلك وقد ذكر هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] ، وتأملوا معي التأكيد القرآني على العدل دائماً ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] لأن العدل أساس النظام القضائي الناجح.

بالنسبة لقوانين الوكالات في البلاد العربية فإن هذا النظام مأخوذ بالكامل من القوانين الفرنسية والغربية، حيث أن الناس اليوم ليس لديهم خبرة في أمور القانون فيلجأون إلى محامٍ ينوب عنهم في متابعة القضية التجارية أو غيرها، مع العلم أن القرآن قد طرح هذا التشريع قبل ١٤٠٠سنة، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢]، فالولي أو الوكيل هو الشخص الذي ينوب عن صاحب العلاقة الاصلي، وهو ما نسميه بالوكالة.

٤ ـ نظام الشهود:

نظام الشهادة مهم جداً لحل أي نزاع قانوني ينشأ بين المتخاصمين، وقد تم تطوير هذا النظام عبر السنين حيث تم وضع ضوابط تنظم عمل الشهود والعجيب أن القرآن طرح هذا التشريع بل وأمر به وهو أن يكون هناك شهود علىٰ أي عملية تجارية، ونظام الشهود معروف في القوانين الغربية، ويعتبرونه من إنجازاتهم، مع العلم أن القرآن قد سبقهم إلىٰ هذا الأمر قبل ذلك بزمن طويل. يقول تعالىٰ: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢]، ثم يقول بعد ذلك محدداً عدد الشهود اللازم، ولضمان عدم كذب الشاهد: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢].

وهنا تجدر الإشارة إلىٰ أن القرآن ميز بين الرجل والمرأة، فالشهادة عملية دقيقة وحساسة ويتوقف عليها مصالح الناس، وبالتالي فإن شهادة المرأة الواحدة لا تكفي لا بد من امرأتين، ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] لماذا؟ ببساطة دماغ المرأة أصغر من دماغ الرجل بنسبة١٠% علىٰ الأقل، وكفاءة دماغ المرأة في عمليات التذكر واستحضار المعلومات وسرعة معالجتها أقل من الرجل، وهذه حقيقة علمية سبق القرآن إليها! ولذلك قال تعالىٰ: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢].

كذلك فإن القوانين الحديثة تؤكد علىٰ ضرورة امتثال الشاهد للشهادة أمام القاضي، ولا يجوز له أن يتخلف عنها، ويؤكدون أن ذلك ضروري من أجل نجاح القضاء وتحقيق العدالة. العجيب يا أحبتي أن القرآن لم يغفل ذلك!! يقول تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢].

كذلك حدد القرآن نوعية الشهود وأن يكونوا صادقين: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ..﴾، وهذا ما تقول به القوانين الحديثة، حيث يطلب القاضي أن يكون الشاهد عدلاً صادقاً، ولا تُقبل شهادة الكاذب أو الذي اشتهر بالكذب.

٥ ـ نظام التجارة الحاضرة:

يقول خبراء القانون: ليس ضرورياً كتابة كل شيء في العمليات التجارية

الجارية، حيث يتعذر علىٰ التاجر أن يكتب العمليات التي تتم بالبيع نقداً دون أجل، وبالتالي فإن ذلك يسهل الكثير من العمليات التجارية الجارية، والعجيب أن القرآن قد أشار إلىٰ ذلك ولم يغفل عنه، يقول تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] ، فمثل هذا النوع من أنواع البيع والشراء ليس ضرورياً أن يكتب أو يوثق، قال تعالىٰ بعد ذلك: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] ، ولذلك فإن القرآن وضع أساساً للعمليات التجارية.

والقرآن يؤكد دائماً علىٰ نقطة لا نجدها في القوانين الوضعية، وهي أن الله تعالىٰ يعلم كل شيء، ويعلم ما في النفوس، ولذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] ، وهذا أسلوب نفسي رائع لضمان تطبيق هذه القوانين وعدم التلاعب فيها، أو التحايل علىٰ القانون كما نراه اليوم. فعندما تدرك أيها البائع أو أيها المشتري أن الله يعلم ما تفكر به، ويعلم نيَّتك وسوف يحاسبك عليها، والعقوبة ستكون نار جهنم، عندها لابد أن تنضبط وتطبق ما أمرك الله تعالىٰ به، وهنا تتجلى روعة هذه القوانين الإلهية.

٦ ـ نظام الرهن:

هناك نظام مهم في العمليات التجارية هو الرهن، وربما نتذكر الأزمة المالية العالمية وأحد أسبابها إساءة هذا النظام، وعقد صفقات وهمية مع البنوك، مما أدى إلىٰ انهيار النظام المالي العالمي. هذا الرهن تحدث عنه القرآن ونظّمه بقول تعالىٰ: ﴿فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٣] ، ولذلك فإن القرآن سبق القانونيين في الغرب إلىٰ مثل هذا النظام، ولم يكتف بذلك (كما تفعل البنوك اليوم) بل أمر بأداء الأمانة بقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٣] ، وسبحان الله! لو تأملنا معظم الدعاوى والشكاوى في المحاكم وجدناها تحت بند "إساءة الأمانة" ، ولو أن الناس طبقوا هذه الآية لزالت كل المشاكل والقضايا التي تساهم في دمار الاقتصاد العالمي.

٧ ـ نظام حماية الشهود وعقوبة الشهادة الكاذبة:

يؤكد المشرعون حديثاً علىٰ ضرورة الاهتمام بموضوع حماية الشهود، وهذا الموضوع أخذ مساحة كبيرة من المؤتمرات والمناقشات بهدف تحسين حماية الشهود، حتى إن بعض القانونيين يعتبرون أن النظام القضائي لن يكون ناجحاً من دون تأمين الحماية الكافية للشهود، وعدم خوفهم من بطش أحد الفريقين المتخاصمين.

ربما نعجب أن هذه الآية العظيمة لم تغفل هذا الجانب المهم، بل أضافت له جانباً مهماً وهو حماية الكاتب بالعدل أيضاً، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] ، وحذر من خطورة الإضرار بالشهود أو بالكاتب، فقال: ﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] . ومثل هذه التعاليم تجد صدى كبيراً في النفس البشرية. ولكن الشاهد أحياناً لا يقول الحقيقة كاملة، وهذا يحدث كثيراً في المحاكم، فهل نسي القرآن هذا الأمر المهم؟.

بالطبع الله لا ينسى أي شيء، كيف ينسى وهو خالق كل شيء ﷻ، ولذلك قال: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٣] ، فهذا أمر صريح بضرورة قول الحقيقة كاملة، وانظروا كيف أن الله تعالىٰ أمر باتخاذ الشهود، ونظم عملهم وأمر بحمايتهم وأمرهم بقول الحقيقة، وهذا ما نجده في القوانين الحديثة.

أطول آية في القرآن:

والآن نأتي إلىٰ النص الكريم الذي ينظم هذه العلاقات ويعطي كل ذي حق حقه، يقول تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ

إِذَا مَا دُعُوا۟ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة:٢٨٢ ـ ٢٨٣].

هناك شيء ملفت للانتباه في هذه الآية العظيمة، وهي موضوع التقوى الذي تكرر ثلاث مرات: في قوله تعالىٰ: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] : أمر إلهي بالتقوى وأن الله يراك ويرقبك، ولذلك إياك أيها المشتري أن تأخذ ما ليس لك، أو تنقص من قيمة البضاعة بل أعط صاحبها حقه كاملاً. وقوله ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] : وهنا أمر إلهي بالتقوى للجميع (الكاتب والشهود والبائع والمشتري). وقوله: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٣] : أمر بالتقوى وعدم كتمان الشهادة. ولكن ماذا يعني ذلك؟.

إن مشكلة القوانين الوضعية أنه عند غياب الرقيب، فلا توجد وسيلة فعالة تمنع الإنسان من الخطأ أو الغش أو إساءة الأمانة، ولكن القرآن جعلك تشعر بمراقبة الله لك في كل لحظة، وهنا ضمن التطبيق العملي للقوانين حتى أثناء غياب الرقابة عليه، وهذه هي عظمة التشريعات الإلهية.

كذلك يؤكد خبراء القانون أن وضع القانون لا يكفي إنما ينبغي وضع الآلية التي تضمن تطبيق القوانين، مثل دراسة جدوى هذه القوانين وفائدتها وانعكاساتها علىٰ المجتمع، والعجيب أن القرآن لم يغفل هذه الناحية الهامة، ولم يضع القوانين من دون هدف وحكمة وتوجيه، بل وضع التوجيهات اللازمة والتي تضمن تطبيق هذه القوانين، ولذلك فقد وضع لنا الله ثلاثة أهداف من هذه القوانين وهي في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ

لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] :

١ ـ ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] : انظروا معي كيف يضع القرآن دائماً وفي مقدمة الأهداف، التوجه إلىٰ الله تعالىٰ، فقبل كل شيء، يجب أن تشعر بمراقبة الله لك، وعندما تحقق ذلك فإنه يستحيل أن تخون الأمانة أو تغش أو تبخس الآخرين حقوقهم، وهذا ما لم تحققه القوانين الوضعية التي "تهمل" وجود خالق عظيم يتصرف بهذا الكون، ولذلك نرى بأن تطبيق القوانين الوضعية يكون ضعيفاً، وغالباً ما تخضع لتعديلات وإضافات مستمرة، علىٰ عكس القوانين الإلهية الثابتة.

٢ ـ ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] : هذا الهدف يحدد الطريقة المثالية للتعامل من خلال توضيح الشهادة، حيث أن معظم النزاعات التجارية التي نراها اليوم، تحدث نتيجة غموض العقد والتباس ذلك علىٰ الشهود، ولكن القرآن كان حريصاً علىٰ التدقيق علىٰ هذه النقطة، أي ضرورة إحكام الشهادة ووضوحها وتوثيقها، وضمان عدم الالتباس والابتعاد عن الأخطاء.

٣ ـ ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] : هذا الهدف مهم جداً لدفع أية شبهة أو خطأ أو ارتياب. ويقول القانونيون والمشرعون، من الضروري جداً أن تتم كتابة العقد بوضوح كامل مراعية كل التفاصيل، وأن يتم دفع أي ارتياب يمكن أن يحدث. ونقول أليس هذا ما أمر به القرآن؟.

النظام القرآني للعمليات التجارية يتميز بأنه صادر من الله تعالىٰ، ولذلك فإنه يمثل أمراً إلهياً من تركه فقد أثم، ومن فعله أخذ الأجر والثواب، وهذا لا نجده في القوانين الوضعية التي جاءت فقط لحماية الحقوق.

قد يقول قائل كيف يمكن بكلمات قليلة أن نختصر كتب القانون التي تملأ المكتبات والجامعات؟ ونقول إن المسلمين بفضل هذه التعليمات القليلة بكلماتها ولكنها عظيمة بأثرها، استطاعوا أن يفتحوا العالم وأن يحققوا العدل بشكل لم يحققه أحد علىٰ مر العصور!! وهذا يدل علىٰ أثر تعاليم القرآن علىٰ الناس، ولكننا عندما ابتعدنا عن هذا الكتاب وعن تعاليم الخالق ﷻ،

ركبتنا الهموم وأصبحنا أكثر الأمم تخلفاً: غثاء كغثاء السيل!!.

وقد يقول آخر: هناك العديد من القوانين في شريعة حمورابي والقوانين الرومانية والقوانين التي كانت سائدة في حضارة الصين والهند وغيرها قبل الإسلام، ونقول: إن هذه القوانين كانت مزيجاً من الصواب والخطأ، بل هذه القوانين كانت تعطي الحصانة المطلقة للملك أو الإمبراطور، والذي فعله الإسلام أنه صحح القوانين الخاطئة، وأبقى على القوانين الصحيحة، وهذا لم يكن باستطاعة بشر يعيش في ذلك الزمن، ولذلك فإن هذه الآية من آيات الإعجاز التشريعي والتي تشهد على صدق القرآن وأنه كتاب صالح لكل زمان ومكان.

ونقول بالله عليكم: هل يمكن لإنسان يتهمونه بالتخلف والإرهاب، أن يأتي بمثل هذه التشريعات التي تعمل بها اليوم كبرى الدول في العالم؟ إنه دليل صادق على أنه رسول من عند الله ﷺ، وأنه كما وصفه ربه بقوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: ١٨٨] .

ولابد من السؤال: من أين جاء هذا النبي بتشريعات دقيقة كهذه، واختصرها في آية واحدة، لو لم يكن رسولاً من عند الله؟!

المطلب الثاني: الإعجاز التشريعي في تحريم الربا:

القرآن معجز من كل الوجوه ومن هذه الوجوه الإعجاز التشريعي، فالقرآن جاء بتشريعات لإصلاح الفرد والمجتمع، ودفع المفاسد عنهم، ومن هذه التشريعات تحريم الربا[1].

---

(١) الرّبا لغة: الزيادة، ابن فارس، معجم المقاييس في اللّغة، صفحة ٤٤٠، ابن منظور، لسان العرب، ج٥، صفحة (١٢٦ ـ ١٢٧)، والربا في الاصطلاح: يقسم إلى ثلاثة أقسام: أولاً: ربا بالفضل: زيادة في أحد البدلين المتجانسين على الأخر إذا كانت المبادلة فورية، ثانياً: ربا النساء، فضل المعجّل على المؤجّل. ثالثاً: ربا النسيئة: زيادة في أحد البدلين المتجانسين على الآخر، وتلحق هذه الزيادة البدل المؤجل، ويجتمع في هذا النوع ربا الفضل وربا النساء، ويسمى ربا القرض، أو ربا الدين، أو ربا الجاهلية. السمرقندي، تحفة الفقهاء، ج٢، صفحة ٢٨، ابن عرفة، حدود ابن عرفة، ج١، صفحة ٣٣٥ ـ ٣٣٦. الشربيني، مغني المحتاج، ج٢، صفحة ٢١، المرداوي، الإنصاف ج٥، صفحة ٣٢ ـ ٣٣. المصري، ربا القروض وأدلة تحريمه، صفحة ١-٢. الطبري، جامع البيان، ج٣، صفحة ١٣٩ ـ ١٤٣. إلهي. التدابير الواقية من الربا في الإسلام صفحة ٢٦ ـ ٢٩ .

إن القرآن الكريم قد حرّم الرّبا ومنع النّاس من التّعامل به، لما فيه من الظّلم وأكل أموال النّاس بالباطل، وهذا ما كان يدركه المسلمون في صدر الإسلام، وأمّا اليوم فإنّ العلماء والخبراء الاقتصاديّين يدركون أضرار الرّبا ومفاسده تبعاً لتطوّر العمليات الاقتصاديّة ومنها: سوء توزيع الثّروة، وهدر الموارد الاقتصادية، وضعف التّنمية الاقتصاديّة والاستثمار، والتّضخم، البطالة وغيرها، كلّ هذا يدلّ علىٰ أنّ هذا التّشريع معجز، وأنّه من عند الله ولا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله.

قال تعالىٰ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٧٦] .

هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في خواتيم سورة البقرة، وهي سورة مدنية وآياتها مئتان وستة وثمانون (٢٨٦) بعد البسملة، وهي أطول سور القرآن الكريم علىٰ الإطلاق، ونركز هنا علىٰ ومضة الإعجاز التشريعي في تحريم الربا بمختلف صوره وأشكاله ومقاديره انطلاقا من قول ربنا ـ تبارك وتعالىٰ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٧٦] .

من أوجه الإعجاز التشريعي في الآية الكريمة.

أولا: تأكيد قيمة المال في الإسلام:

تشير هذه الآية الكريمة إلىٰ أن للمال في الإسلام قيمة كبيرة لأنه الوسيلة الرئيسية في تقويم جهود الناس وأقدار ممتلكاتهم، ومن هنا كان لابد من أن تبقي قيمته ثابتة، وألا يتخذ سلعة بذاته تباع بمثلها ويكون من وراء ذلك مكسب مادي، كي يبقي من العوامل الأساسية في استقرار الأوضاع الاجتماعية للأمم، وفي تقدمها العلمي والتقني، ونجاحها المادي والمعنوي. والإسلام لا يرى المال ـ في ذاته ـ غاية مقصودة، ولا هدفًا منشودًا، يطلب بكل وسيلة ممكنة، سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة، وسواء أضرت بالمصلحة العامة أم لم تضر، بل وضع لكسبه من الضوابط ما صان قيمته.

وبالمثل فإن الإسلام لا يقبل إنفاق المال بلا ضوابط طلبا لتحقيق الشهوات، والمتع المادية المجردة من كل غاية.

وعلىٰ ذلك فإن جمع المال في الإسلام يجب أن يكون منزها عن كل كسب حرام من مثل الربا، الرشوة، الاحتكار، الاكتناز، النجش (التلاعب بالأسعار)، الغش، أكل أموال الناس بالباطل، أكل مال اليتيم، أكل المال العام عن طريق التحايل، التزوير، استغلال النفوذ، الخداع، السمسرة، تطفيف المكيال والميزان، وكثرة الحلف بالباطل، وغير ذلك من الأساليب الضارة بالمجتمع أفرادًا وجماعات وأمما، وبقيمه وأخلاقياته. ومن ذلك الغيبة والنميمة، والظلم بمختلف أشكاله وصوره. ولذلك أمر رسول الله ﷺ بتحري الحلال في كل شيء فقال: الحلال بين والحرام بين . . . . كذلك يرى الإسلام أن المال الذي يكتسب بالحلال هو أشرف من أن ينفق علىٰ المتع المادية فقط، وعلىٰ الانصراف الكلي إلىٰ الحياة الدنيا وزينتها، علما بأن الاستمتاع المادي بالطيبات من الرزق في حدود المباح شرعا ليس محرمًا لأن فيه تقوية للإنسان علىٰ حسن القيام برسالته في هذه الحياة علىٰ الوجه الذي يرتضيه الله ـ تعالىٰ ـ، وفيه العصمة من الوقوع في المحرمات من السلوك، وحينئذ يندفع الإنسان بإيمان راسخ، وعزيمة ماضية إلىٰ تحقيق رسالته في هذه الحياة عبد الله ـ تعالىٰ ـ يعبده بما أمر، ومستخلفًا ناجحًا في الأرض يقوم علىٰ عمارتها وإقامة شرع الله وعدله فيها، ولذلك قال المصطفى ﷺ: «**نعم المال الصالح للعبد الصالح**».

وانطلاقًا من ذلك كله؛ فإن الإسلام يعتبر المال مال الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ، ويعتبر أصحاب المال مستخلفين فيه، ومن ثم فإن الإسلام يأمر بطلب المال بالطرق المشروعة، ويحرم أكله بالباطل، ويحض علىٰ الإنفاق حسب الطاقة علىٰ ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل، والسائلين، وأصحاب العاهات، والعجزة، واللقطاء، والأرامل، والأحداث الضائعين، والمنكوبين

والمكروبين من الخلق أجمعين.

كذلك حرم الإسلام كنز الأموال وحذر من البخل، وأمر بتوزيع الإرث، وأقر المساءلة عن أصل المال كما أقر العدالة في توزيع الثروات، وأمن المرافق العامة، وحرم تحديد الأسعار في الأحوال العادية، وعدد طرق الإنفاق في سبيل الله وحض عليها ومنها الزكوات (زكاة المال، زكاة الزروع، زكاة الفطر)، ومنها الصدقات، والنذور، والكفارات، والأضاحي، ومنها الوقف (الذري والخيري)، والوصية، العارية، والهدية، والهبة، وإغاثة المحتاجين والجوعى خاصة في أحوال الأزمات، وتأسيس الجمعيات الخيرية القائمة على مختلف الأنشطة النافعة. كذلك حبب رسول الله ﷺ في إنظار المعسر، وفي التجاوز عن غير القادر، فقال: من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر، أو يضع عنه.

ثانيا: التأكيد على حرمة الربا:

يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في تحريم الربا:

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥ ـ ٢٨١].

ويقول عز من قائل: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ

ٱللَّهِ﴾ [الرُّوم: ٣٩] ... .

وفي الحديث القدسي يقول تعالىٰ: «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**»[١].

* ويقول ﷺ: «**لعن الله في الربا آكله وموكله وكاتبه وشاهديه**»[٢].

من هنا قرر الإسلام العظيم تحريم الربا بكل أشكاله وألوانه وصوره، ومقاديره، ومبرراته إلا في حالة واحدة، هي الوشوك علىٰ الهلاك جوعًا.

وتحريم الربا فيه حماية للقطاع الغالب من الأمة أصحاب الدخول المحدودة من العمال، والموظفين، والأيتام، والأرامل، والمحالين إلىٰ التقاعد، لأن الربا هو السبب في استعار الأسعار الذي يكتوي بناره أصحاب الدخول المحدودة الذين يمثلون القطاع الأكبر في المجتمعات الإنسانية.

ثالثا: انتشار الربا في العالم مخالفة لأوامر الله ـ تعالىٰ ـ:

انطلاقًا من إيماننا بوحدانية الله ـ تعالىٰ ـ فإننا نؤمن بوحدة رسالة السماء، وبالأخوة بين الأنبياء، وبين الناس جميعًا، ومما يؤكد علىٰ هذه الحقيقة أن علم مقارنة الأديان يثبت أن الربا كان محرمًا في جميع الشرائع السماوية كما هو محرم في الإسلام، وأن إشاعته بين الناس كان من وساوس شياطين الإنس والجن، الذين أشاعوه في الحضارتين اليونانية والرومانية القديمتينَ، وحمل وزر إشاعته اليهود، علىٰ الرغم من نهيهم عنه نهيًا قاطعاً واعتداه العرب في جاهليتهم تأثرًا باليهود، ثم جاء الإسلام العظيم بتحريمه تحريما مغلظا باعتباره من السبع الموبقات المهلكات، فحرمه المسلمون، وبقى الربا محرمًا إلىٰ النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، وان مارسه اليهود خلسة، ثم بدأت إباحته في الغرب في حدود سنة (١٥٩٣م)، وحمل

---

(١) رواه البخاري.

(٢) صحيح سنن أبي داود برقم(٣٣٣٣)

اليهود لواء الدعوة إليه حتى تبنته الثورة الفرنسية وجعلته مبدءا رسميا للدولة في سنة ١٧٨٩م، ومن ثم انتشر الربا انتشار النار في الهشيم في كافة دول العالم غير الإسلامي، ثم فرضته القوى الغاشمة علىٰ جميع الدول المسلمة بالقوة، وعلىٰ الرغم من ذلك بقيت الشعوب المسلمة ـ في غالبيتها الساحقة ـ رافضة فكرة البنوك والمؤسسات الربوية، إلا أن هذا الرفض أخذ في التضاؤل تحت ضغط حملات الذين تغربوا من أبناء الأمة، والذين مكنهم الاستعمار من مراكز اتخاذ القرار في بلاد المسلمين، حتى شاع فيها الربا وعمت البلوى، واعتبرت القوى المعادية ذلك انتصارا لها. وأصبحت الدول المسلمة ـ حكومات، وبنوكًا، وشركات، ومؤسسات وأفرادًا ـ تتعامل فيما بينها بالربا فعم البلاء، واستعر الغلاء، ونزعت البركة من كل شيء، وحل القحط، وكثرت الكوارث والنكبات، وتحللت الأخلاق، وتردت السلوكيات، وساءت المعاملات، وضاعت كل القيم النبيلة، وحل محلها النصب والاحتيال، والتزوير والغش، ومختلف صور الكسب الحرام عند غالبية الناس إلا من رحم ربك.

ومن كوارث الربا التي حلت بنا في مصر فوائد ديون الدولة إلىٰ الحد الذي أعجزها عن دفع تلك الفوائد المتراكمة عليها بالربا، التي تضاعفت أضعافا كثيرة، وكان ذلك أحد مبررات الاحتلال البريطاني الذي دمر كل شيء في مصرنا الحبيبة، وفي غيرها من ديار المسلمين، فأفسد البلاد، وأذل العباد مسبب في غالبية الكوارث والفتن التي لا نزال نعاني منها إلىٰ اليوم.

وصدق رسول الله ﷺ حين حذرنا من هذا الواقع الحزين بقوله الشريف: **«لئن تركتم الجهاد، وأخذتم بأذناب البقر، وتبايعتم بالعينة ليلزمنكم الله مذلة في رقابكم لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلىٰ الله وترجعوا إلىٰ ما كنتم عليه»**[١].

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٣٨٩).

ولكن من رحمة الله تعالىٰ أن أبقي طائفة من المؤمنين الرافضين للتعامل بالربا، الذين ظلوا يدافعون عن النظم الاقتصادية الإسلامية حتى شاء الله أن تقوم أعداد من المؤسسات المالية الإسلامية، فاقت أعدادها المئات في مختلف أنحاء العالم، وأثبتت نجاحها، علىٰ الرغم من الحرب الضارية التي شنت عليها من المتغربين من أبناء المسلمين قبل المعادين من غير المسلمين.

كل ذلك يشرح ومضة للإعجاز التشريعي في تحريم الربا، الذي يجسده قول ربنا . تبارك وتعالىٰ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٧٦] .

المطلب الثالث:الإعجاز التشريعي في تحريم الميسر:

تعريف الميسر:

يقول المناطقة: إن الحكم علىٰ الشيء فرع عن تصوره، وعليه فأول ما يجب علينا في معرض الكلام عن الميسر هو أن نذكر تعريف الميسر حتى ندرك حقيقته ونميز أنواعه المختلفة، وما يدخل في حكمه وما لا يدخل مما يستجد من معاملات وتحدث من تصرفات.

هناك تعريفات كثيرة ومتنوعة عن العلماء للميسر، وهذا بعضها:

١ ـ قول ابن عمر وابن عباس ﷺ: الميسر هو القمار[١].

٢ ـ قول الزهري عن الأعرج: الميسر هو الضرب بالقداح علىٰ الأموال والثمار[٢].

٣ ـ قول القاسم بن محمد: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر[٣].

٤ ـ قول ابن سيرين: كل لعب فيه قمار من شرب أو صياح أو قيام فهو من

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٩٢.

(٢) المصدر نفسه٢/ ٩٢.

(٣) المصدر نفسه٢/ ٩٢.

الميسر[1].

٥ ـ قول السعدي: هو كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين من النرد والشطرنج، وكل مغالبة قولية أو فعلية بعوض[2].

الميسر في العصر الحديث:

وفي عصرنا الحديث تنوعت آلات الميسر وتعددت صنوفها حتى فاقت الحصر أو كادت، وقد تفاقم الأمر مع تطور وسائل الإعلام والاتصال، فخاطر الناس وتغالبوا في المباراة، وعبر الشبكة العالمية (الإنترنت)، ورسائل المحمول القصيرة، والمسابقات في القنوات التلفزيونية والإذاعية، وربما سموها ألعابًا أو جوائز أو غيرها من الأسماء اللامعة، وهي لا تغير من حقيقتها شيئًا.

حكم الميسر في الشريعة الإسلامية:

إن الإسلام يريد من المسلم أن يتبع سنن الله في اكتساب المال، وأن يطلب النتائج من مقدماتها، ويأتي البيوت من أبوابها، والقمار يجعل الإنسان يعتمد علىٰ الحظ والصدفة والأماني الفارغة، لا علىٰ العمل والجد واحترام الأسباب التي وضعها الله وأمر باتخاذها.

والإسلام يجعل لمال الإنسان حرمة فلا يجوز أخذه منه إلا عن طريقة مبادلة مشروعة، أو عن طيب نفس منه بهبة أو صدقة، أما ما أخذ بالقمار فهو من أكل المال بالباطل[3].

وقد دل علىٰ حرمة الميسر نصوص من القرآن والسنة.

ومن الأدلة القاضية بتحريم الميسر من القرآن:

١ ـ قوله تعالىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ

(١) تفسير الطبري ٢ / ٣٨٥ للإمام محمد بن جرير الطبري ط دار الفكر ـ بيروت ١٤٠٥ هـ

(٢) تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن تأليف اعلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي ص ٩٨ ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت

(٣) المصدر نفسه ٢٧٧

عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المَائدة: ٩٠] ففي الآية الكريمة من صيغ التحريم وصف الميسر بأنه: ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [المَائدة: ٩٠] مما يدل علىٰ تحريمه وأنه من الكبائر، والرجس وصف لكل الأعيان الخبيثة خبثًا معنويًا أو ماديًا.

وسمى عذابه رجسا فقال: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌ﴾ [الأعرَاف: ٧١] .

وكذلك الأمر باجتنابه في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المَائدة: ٩٠] واجتناب الشيء هو التباعد عنه بأن تكون في غير الجانب الذي هو فيه[1].

ومن اجتنب شيئًا وابتعد منه لم يتعاطاه، ومن صيغ تحريم الميسر أيضا الأمر بالانتهاء منه ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المَائدة: ٩١] قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فهو أبلغ في الزجر من صيغة الأمر التي هي: انتهوا..."[2].

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البَقَرَة: ١٨٨] .

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا تأكلوا أموالكم أي أموال غيركم أضافه إليهم لأنه ينبغي علىٰ المسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويحترم ماله كما يحترم ماله، ولأن أكله لمال غيره يجرئ غيره علىٰ أكل ماله عند القدرة..."[3].

ثم ذكر نوعي أكل أموال الناس الحق والباطل فعلق علىٰ النوع الأخير بقوله: فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه حتى ولو حصل فيه النزاع وحصل الارتفاع إلىٰ حاكم الشرع وأدلى من يريد أكلها (الأموال) بالباطل بحجة غلبت حجة المحق وحكم له الحاكم بذلك فإن حكم الحاكم لا يبيح محرمًا ولا يحلل حراماً، إنما يحكم علىٰ نحو ما يسمع، و إلا فإن حقائق الأمور

---

(١) أضواء البيان ٢ / ٤٠٥ تأليف الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ط دار الفكر ـ بيروت ١٤١٥ هـ.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٤٠٥.

(٣) تفسير السعدي ص ٨٨.

باقية فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة ولا شبهة ولا استراحة...)[١].

وأما الأدلة علىٰ تحريم الميسر من السنة فمنها ما يلي:

١ ـ عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه»**[٢].

قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ: قال العلماء النردشير هو النرد وشير معناه حلو، وهذا الحديث حجة للشافعي والجمهور في تحريم اللعب بالنرد وقال أبو إسحاق المروزي من أصحابنا يكره ولا يحرم، وأما الشطرنج فمذهبنا أنه مكروه وليس بحرام وهو مروي عن جماعة من التابعين، وقال مالك وأحمد حرام قال مالك: هو شر من النرد وألهى عن الخير، وأصحابنا يمنعون القياس ويقولون هو دونه، ومعنى **«صبغ يده في لحم خنزير ودمه»** في حال أكله وهو تشبيه لتحريمه بتحريم أكلهما والله أعلم[٣].

ولا شك أن موضع الخلاف بين الأئمة هو الآلات المختلفة من نرد أو شطرنج وغيرهما من الملهيات، وليس فيما يخالطه من المغالبة بمال ونحوه فإن ذلك محرم بنص القرآن ولم ينقل عن أحد من الأئمة القول بجوازه والله أعلم.

٢ ـ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله»**[٤].

وذكر الزرقاني من أسباب تحريمه وكونه معصية لله ورسوله ﷺ أن أول من وضعه هو سابور بن أردشير وفعله إتباع لسنة المجوس المنهي عن إتباعها.

٣ ـ ما رواه البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله حرم عليكم الخمر والميسر والكوبة»**[٥].

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٨.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٧٧٠ ط: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٣) شرح النووي علىٰ مسلم ١٥ / ١٦ ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٣٩٢ هـ.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك، وقال (هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه (١ / ١١٤) لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤١١هـ ورواه غيره.

(٥) سنن البيهقي الكبرى ١٠ / ٢١٣ للإمام البيهقي نشر / مكتبة دار الباز ـ مكة المكرمة ١٤١٤ هـ.

والحديث تأكيد لما ورد في سورة البقرة و سورة المائدة من تحريم الميسر، والكوبة هي الطبل، وقيل هي النرد وقيل الشطرنج[1].

تنبيه وتفصيل:

نود أن ننبه إلىٰ أن الميسر هو كما قال السعدي: "هو كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين من النرد والشطرنج، وكل مغالبة قولية أو فعلية بعوض"[2]. أيا كان نوع ذلك الميسر أو آلته، إذ العبرة كما يقول الأصوليون بالحقائق والمعاني وليس بالألفاظ والمباني.

أضرار الميسر الدينية والدنيوية:

إن التعرف علىٰ الحكم التشريعية فيما يأمر به الإسلام أو ينهى عنه لاسيما فيما يتعلق بأمور المعاملات لما ينشط علىٰ الالتزام بشرع الله ويعين عن الانقياد له، ولذلك عودنا الشارع الحكيم الإشارة إلىٰ بعض تلك الحكم، ومن ذلك ما نص الله عليه في القرآن الكريم و أشار إليه الرسول ﷺ في السنة المطهرة من مفاسد وأضرار الميسر في الدين والدنيا وعلىٰ الفرد والمجتمع، وهذه جملة من تلك المفاسد والأضرار في مطلبين:

أضرار الميسر الدينية:

هناك مفاسد دينية كثيرة تترتب من تعاطي الميسر والقمار ومنها:

١ ـ أن في الميسر إثما كبيراً: قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البَقَرَة: ٢١٩] ، وهذا يقتضي كونه حراما في الشريعة الإسلامية إذ الحرام هو (المنهي عنه علىٰ الجزم، المثاب علىٰ تركه، والمعاقب علىٰ فعله، وهو مأخوذ من الحرمة وهي ما يحرم انتهاكه).

٢ ـ الميسر قرين الشرك وشرب الخمر: وهذه الصفة مما يزيد قبحه شرعا، فالمنهيات علىٰ درجات، واقتران منهي من المنهيات بأكبر الكبائر في الذكر

---

(١) لسان العرب ١ / ٧٢٩ لابن منظور ط دار صادر . بيروت.

(٢) تفسير السعدي ص ٩٨.

يزيده قبحا وسوء، وقد نهى الله عن الميسر وقرنه بكبائر أخرى وعلىٰ رأسها الشرك بالله تعالىٰ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المَائدة: ٩٠] .

والأنصاب عند غير واحد من السلف حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها، وأما الأزلام فهي قداح كانوا يستقسمون بها[١].

ولعل من حكم اقتران الميسر بالشرك والخمر بيان شناعته لمن تزين له نفسه تعاطيه.

٣ ـ **الميسر من عمل الشيطان:** قال تعالىٰ في وصف الخمر والميسر... ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [المَائدة: ٩٠] الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، ومن المعلوم يحذر منه ويحذر مصائده وأعماله خصوصا الأعمال التي يعملها ليوقع عدوه فإن فيها هلاكه، فالحزم كل الحزم البعد عن عمل العدو المبين والحذر منها والخوف من الوقوع فيها"[٢].

٥ ـ **الميسر من موانع الفلاح:** من أضرار الميسر أنه من موانع الفلاح، وذلك بمجرد ارتكابه بدون استحلال فيمنع من مطلق الفلاح لما يسحقه من يلعب بالميسر من غضب الله وعذابه لأنه من كبائر الإثم، ويمنع من الفلاح مطلقا إذا استحل الميسر وكذب الله ورسوله، ورمى الشريعة بالضيق والقصور فيخرج بذلك من الإسلام، ويستحق الخلود في النار والعياذ بالله، قال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البَقَرَة: ٨١] .

٦ ـ **الميسر يصد عن ذكر الله وعن الصلاة:** إن متعاطي الميسر يهدرون أوقات غالية في ممارسة اللعب بوسائل الميسر من أوراق أو كعاب وغيرها.

ومن الملاحظ أن أكثر الناس تعاطيًا للميسر هم الجهال والعصاة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢ / ٩٣).

(٢) تيسير الكريم المنان للسعدي (٢٤٣).

مفاسد الميسر الدنيوية:

كما أن للميسر مفاسد تتعلق بدين المرء وتعرضه لغضب الله وعذابه يوم القيامة، فكذلك فإن له مفاسد تتعلق بالحياة الدنيا فتعكرها وتنغص صفوها، وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ بعض تلك المفاسد، كما أن بعضها مشاهدة وملموسة من واقع الحياة اليومية للمشتغلين بالميسر، وهذه بعض تلك المفاسد الدنيوية:

١ ـ يسبب العداوة والبغضاء بين الناس: الميسر بأنواعه وأشكاله عادة سيئة يؤدي انتشاره في المجتمع إلىٰ العداوة والبغضاء قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المَائدة: ٩١] .

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قول تعالىٰ ذكره إنما يريد لكم الشيطان شرب الخمر والمياسرة بالقداح ليعادي بعضكم بعضا ويبغض بعضكم إلىٰ بعض فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان وجمعه بينكم بأخوة الإسلام"[١].

٢ ـ من عوامل انتشار البطالة: قال الشيخ الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمقصد الشرعي في الأموال كلها خمسة أمور: رواجها، ووضوحها، وحفظها، وثباتها، والعدل فيها، فالرواج دوران المال بين أيدي أكثر من يمكن من الناس بوجه حق، قال تعالىٰ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المُزمّل: ٢٠] ...

ولا شك أن الميسر لا يمت إلىٰ واحد من هذه المقاصد بصلة، بل إن شيوعه في المجتمع يعطل الصناعات ويخسر التجارات ويهلك المزارع، كيف لا؟.

٣ ـ يساهم في تفشي الجريمة: أن صالات القمار، أو قل إن مجتمعات القمار لا تخلوا في أغلب الأحيان من جرائم السرقة والقتل ومن الشرب

---

(١) تفسير الطبري (٧ / ٣٢).

والخلاعة والميوعة، بل لا نبالغ إذا قلنا إنها وكر لكل رذيلة مطردة الكل فضيلة.

٤ ـ فيه أكل لأموال الناس بالباطل: ومن مقصود الشارع في الأموال أيضا كما يقول بن عاشور رحمه الله (الوضوح، والحفظ، والعدل، والإثبات) ويستمر ـ رحمه الله ـ في شرح تلك المقاصد قائلا: وأما وضوح الأموال فذلك إبعادها عن الضرر والتعرض للخصومات بقدر الإمكان، ولذلك شرع الإشهاد والرهن في التداين، وأما حفظ المال فأصله قول الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] .... .

وقال النبي ﷺ: «**لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس**»[١].

أما إثباتها فهو تقريرها لأصحابها بوجه لا خطر فيها ولا منازعة، أما العدل فيها فذلك بأن يكون حصولها بوجه غير ظالم وذلك إما أن تحصل بعمل مكتسبها، وإما بعوض من مالكها أو بتبرع وإما بإرث ومن مراعاة العدل حفظ المصالح العامة ودفع الأضرار)[٢].

ومال الميسر كسب رخيص يكتنفه الغموض من كل جانب، ولا يعرف الرابح من أين جاءه الربح ولا يدري الخاسر من أين أتاه الخسران، ولا يمكن تقريره بوجه لا منازعة فيها، ولذلك يدلون إلىٰ الحكام ليأكلوا فريقا من أموال الناس بالباطل، أما مقصد العدل فهو أبعد المقاصد عن الميسر، فالميسر هو الظلم بعينه، إذ بواسطته يأكل الناس بعضهم أموال بعض بغير وجه حق، ومهما قال لك المقامر في حرية ممارسته لهذه العادة السيئة، فإنه لا يطيب نفسا بما يخسر من مال. مما سبق يتضح عظمة الإعجاز التشريعي في تحريم الميسر الذي هو من أشد أبواب الشر فتكا بالمجتمعات.

المطلب الرابع: الإعجاز التشريعي في حد السرقة:

ومن أجل الحفاظ علىٰ الملكية شَرَع القرآن الكريم حدَّ السرقة في قوله ـ

---

(١) سنن الدارقطني٣ / ٢٦ ط دار المعرفة ـ بيروت ١٣٨٦ هـ.

(٢) مقاصد الشريعة الإسلامية ص ٤٧٣ فما بعدها (بتصرف).

سبحانه ـ : ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨] .

ذلك أنَّ السَّرقة نزعة شريرة ربَّما تحمل صاحبها، أو تَجرُّه إلىٰ ارتكاب جرائم شنعاء في سبيل الاستيلاء علىٰ مال الغير، بدافع من خبث الطبع، أو فساد المنشأ، وسوء التَّربية.

وقد تؤدي هذه النزعة الشريرة عند بعض المجرمين إلىٰ تكوين عصابات من الأشرار، تُخرِّب وتدمر ما شاء لها التَّدمير والتخريب.

من أجل هذا كانت هذه العقوبة الرَّادعة لكلٍّ من تسول له نفسه العدوان علىٰ مال الغير، وقد رأينا كيف أنَّ رسول الله ﷺ لم يقبل شفاعة أسامة بن زيد في المرأة المخزومية؛ فعن عائشة رضي الله عنها أنّ قريشًا أهمتهم المرأة المخزوميّة التي سرقت، فقالوا: من يكلم رسول الله ـ ﷺ ؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِب رسول الله ﷺ فكلم رسول الله ﷺ فقال: «**يا أيّها الناس، إنّما ضل من قبلكم؛ أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضَّعِيف فِيهم أقاموا عليه الحد، وَأيْمُ الله، لو أَنَّ فاطمة بنت محمد سرقت، لقطع محمد يدها**»[1].

عقوبة السرقة:

واجهت الشريعة الإسلامية جريمة السرقة بعقوبة قاسية هي قطع اليد، لتكفل بذلك استئصال شأفة الجريمة ولتكون رادعة وزاجرة لكل من تسول له نفسه العدوان علىٰ مال الغير خفية أو غصباً، تهدف العقوبة إلىٰ قطع اليد لأنها هي الأداة التي استعملها السارق وساعدته علىٰ ارتكاب جريمته، وذلك لمنع استعمالها مرة أخرى في السرقة، وحكمة التشريع في قطع اليد أنها تعتبر أن الجرائم الخطيرة لا يفلح في ردها إلا عقوبات صارمة ومؤلمة، ليس فيها

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلىٰ السُّلطان، (١٢/ ٨٧ ـ رقم الحديث: ٦٧٨٨)، فتح الباري.

لين أو رخاوة ليكون الجزاء من جنس العمل، ولتكون العقوبة ملازمة للجاني وظاهرة للناس ومحذرة لهم وعلىٰ الرغم من ذلك لم يترك الإسلام أمر قطع اليد علىٰ عانه بل قيده بشروط.

شروط قطع اليد:

أشترط في السرقة المعاقبة عليها بقطع اليد أن يكون الجاني بالغاً من الرشد عاقلاً وغير محتاج ولا مضطر للسرقة، وأن يكون المسروق مملوكاً للغير ومحفوظاً في حرز ولا يقل نصابها عن ربع دينار من الذهب أو ما يعادل ذلك نقداً، وهذا هو العقاب المقدر لحد القطع، وإذا قل عن ذلك فلا قطع، وقد أتفق الفقهاء علىٰ قطع يد السارق اليمنى في السرقة الأولى فإذا عاد للسرقة تقطع رجله اليسرى في رأي بعض الفقهاء وذلك لشل حركة السارق فإذا عاد بعد ذلك فلا قطع وإنما يحبس إلىٰ مدة غير محدودة حتى يموت أو يتوب نهائياً .

قال الحافظ ابن كثير: "وقد ذكروا أن أبا العلاء المعري، لما قدم بغداد، اشتهر عنه أنه أورد إشكالًا علىٰ الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار، ونظم في ذلك شعرا دل علىٰ جهله وقلة عقله فقال:

يد بخمس مئين عسجد وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار

تناقض ما لنا إلا السكوت له ... وأن نعوذ بمولانا من النار

ولما قال ذلك واشتهر عنه تطلبه القفهاء فهرب منهم .

وقد أجابه الناس في ذلك فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ: لما كانت أمينة كانت ثمينة، ولما خانت وسرقت هانت وبترت.

ومنهم من قال: هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة، فإنه في باب الجنايات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسمائة دينار لئلا يجنى عليها، وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار لئلا يتسارع الناس في سرقة الأموال، فهذا عين الحكمة عند ذوي الألباب"[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١١٠).

حالات لا تقام فيها الحدود:

لا يطبق حد السرقة إذا حصلت في الأماكن العامة أثناء العمل فيها وحيث لا حراسة فيها للمال أو في أماكن مأذون للجاني بدخولها، ولم يكن الشيء المسروق محرزاً، أو أن تحصل السرقة بين الأصول والفروع من أفراد الأسرة أي بين الأب وولده أو بين الزوج وزوجته، أو كان المال المسروق مجهولاً لا يعرف صاحبه، أو كان الجاني دائناً لصاحب المال المسروق، وكان مماطلاً وجاحداً، وان السارق استولى علىٰ ما يوازي حقه فقط .

وقد يحلو لبعض الناقدين الجاهلين بحكمة التشريع الإسلامي أن يصفوا عقوبة قطع اليد بالقسوة وعدم الرحمة، ويتباكون علىٰ الأيدي المقطوعة ناسين أو متناسين ما أحدثته هذه الأيدي الآثمة من أذى وقتل وتخريب وفساد في الأرض وترويع الآمنين، فهم يشفقون علىٰ الجاني ولا يشفقون علىٰ المجني عليهم، وحقيقة الواقع الذي لا خفاء فيها في عصرنا أن الدول الإسلامية التي طبقت أحكام الشريعة الإسلامية قلت فيها جرائم السرقة، ودليل ذلك ما يحدث في المملكة العربية السعودية التي طبقت شرع الله، فإنه لم يقطع فيها يد السارق إلا في القليل جداً من الحالات، وحبذا لو احتذت الدول الإسلامية الأخرى حذو المملكة العربية السعودية، ليهيئ لأهلها الآمن والطمأنينة علىٰ أموالهم وأنفسهم، وإنه من الإنصاف أن ننظر إلىٰ قطع اليد لا يقصد الشرع به الرغبة في قطع الأيدي، بل هو الرغبة في سلامة هذه الأيدي من القطع بمثل هذه العقوبة المخيفة التي تمنع السارق من ارتكاب جرائمه، فهل بعد ذلك رحمة في قسوة الأحكام التي تحفظ الأمن وتمنع الإجرام.



المبحث السابع

الحفاظ على النظام العام

من أجل الحفاظ علىٰ النظام العام، وضمان أمن المجتمع واستقراره، شرع القرآن الكريم حدَّ الحرابة.

لقد حاربت شريعة الله الجريمة والمجرمين، والإفساد في الأرض والمفسدين، وحرمت العدوان علىٰ الآمنين، وأنزلت أشد العقوبات علىٰ الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا، وينشرون الخوف والفزع بين الآمنين جزاء عادلا فاضحا لهم في الدنيا، وهددتهم في الآخرة بالعذاب العظيم. والحد الشرعي هو عقاب من الله - تعالىٰ - للمجرم علىٰ اقتراف جريمته وهو عقاب متكافئ مع حجم الجريمة، لأن الجريمة لا يوقفها إلا العقاب الرادع، والعقاب لا يكون رادعًا إذا اتصف بالرخاوة والضعف. ولولا أن الله تعالىٰ قد حد الحدود، وأنزل العقوبات الرادعة لفسدت الأرض، وعمتها الفوضى والخراب والدمار، وسلبت منها نعمة الأمن والأمان، ونهبت الحقوق والممتلكات، وانتهكت الحرمات، وتعطلت مصالح الناس بالكامل.

ولم يشرع ذلك ظلمًا للناس أو إذلالًا لهم، وإنما شرع عقابًا مكافئا للمعتدين، وردعًا وزجرًا وعظة وعبرة للمعتبرين حتى لا يقعوا فيما وقع فيه المعتدون من جرائم، ومن هنا تجب دعوة المسلمين أجمعين إلىٰ ضرورة المحافظة علىٰ أمن مجتمعاتهم من الضياع، والذي إذا فقدوه فقدوا كل شيء في حياتهم، ومن أجل الحفاظ علىٰ النِّظام العام، وضَمان أمْن المُجتمع واستقراره، شَرَعَ القرآن الكريم حدَّ الحرابة في قوله - سبحانه -: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ

﴿مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣﴾ [المَائدة: ٣٣] .

وقال ﷺ: «**كل المسلم حرام دمه وماله وعرضه**»[(١)].

والمحاربون لله ورسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض بالكُفر والقتل، وأخذ الأموال، وإخافة السبيل.

والمشهور أنَّ هذه الآية الكريمة في أحكام قُطَّاع الطَّريق، الذين يعرضون للناس في القرى والبوادي، فيغصبونهم أموالهم، ويقتلونهم، ويُخيفونَهم، فيمتنع الناس من سلوك الطَّريق التي هم بها، فتنقطع بذلك؛ فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم ـ عند إقامة الحدِّ عليهم ـ أنْ يُفعل بهم واحد من هذه الأمور.

واختلف المُفسِّرون: هل ذلك علىٰ التخيير، وأنَّ كل قاطع طريق يَفعلُ به الإمام أو نائبُه ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة؟ وهذا ظاهرُ اللفظ، أو أن عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم، فكلُّ جريمة لها قسط يُقابلُها؛ كما تدل عليه الآية بحكمتها وموافقتها لحكمة الله ـ تعالىٰ ـ وأنَّهم إن قَتلوا وأَخَذوا مالاً تَحتَّم قتلهم وصلبهم، حتَّى يشتهروا ويختزوا ويرتدع غيرهم.

وإن قتلوا ولم يأخذوا مالاً تَحتَّم قتلُهم فقط، وإن أخذوا مالاً ولم يقتلوا تَحتَّم أن تقطع أيديهم وأرجلُهم من خلاف: اليد اليمنى، والرجل اليسرى.

وإن أخافوا النَّاس ولم يَقتلوا ولا أخذوا المال، نُفُوا من الأرض، فلا يُترَكُون يأوُون في بلد حتَّى تظهر توبَتُهم؛ وهذا قولُ ابن عباس رضي الله عنهما وكثيرٌ من الأئمة، علىٰ اختلافٍ في بعض التفاصيل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ [البَقَرَة: ٢] : النَّكال، ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَاۖ﴾ [المَائدة: ٣٣] ؛ أيْ: فضيحة وعار، ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ١١٤] ؛ فدلَّ هذا علىٰ أنَّ قطع الطَّريق من أعظم الذُّنوب، موجبٌ لفضيحة الدُّنيا وعذاب الآخرة،

---

(١) سبق تخريجه.

وأنَّ فاعله مُحارِب لله ولرسوله.

وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة، عُلم أنَّ تطهيرَ الأرض من المُفسدين، وتأمين السبلِ والطرق عن القَتل، وأخذ الأموال، وإخافة النَّاس - من أعظم الحسنات وأجَلِّ الطاعات، وأنه إصلاحٌ في الأرض، كما أنَّ ضده إفسادٌ في الأرض[1].

وما يحدث في مصر هذه الأيام ليس بخاف علىٰ أحد مما يفعله البلطجية قطاع الطرق مَن يأخذون السيارات من اصحباها عنوة ويهتكون أعراض النساء ويسلبون الأموال ويزهقون الأرواح. كلما زادت العقوبة كلما قلت الجريمة وهي معادلة مسلم بها.

إن هذه التشريعات تدل علىٰ متانة بناء التشريع الإسلامي وقوة أركانه وصلاحيته للأحكام في كل زمان ومكان بين جميع الأجناس، ويدل علىٰ ذلك أن الأمة الإسلامية ازدهرت وقويت شوكتها حينما كانت تخضع في جميع شؤونها للشرع الإسلامي، وأنها ضعفت وتفككت حينما انصرفوا عن شريعته وجمد الفقهاء وركنوا إلىٰ التقليد وحاولوا أن يخضعوا التشريع لأهوائهم وشهواتهم وأدى ذلك علىٰ الاستعانة بالقوانين الوضعية علىٰ اعتبار أن الفقه الإسلامي لم يعد يتفق مع التطورات العالمية وما تقضيه المدنية الحديثة من مجاراة الدول القوية الغنية .

من هنا تتضح ومضة الإعجاز التشريعي في حد الحرابة الذي يعتبر تعطيله مفسدة كبرى لأنه إذا اكتفي المشرع في عقاب المحارب بالسجن أو الغرامة المالية فقط فإنه سرعان ما يعاود الكرة بمجرد خروجه من السجن أو احتياجه إلىٰ المال، بينما إذا التزم المشرع بحدود رب العالمين، وأقام شرعه وأنزل أوامره في عقاب المحاربين حقق للمجتمعات الإنسانية ما تصبو إليه من أمن وأمان، ومن صون لحقوق العباد، ومصالحهم من عبث العابثين، واستهتار المستهترين، وطمع الطامعين، من أصحاب النفوس المريضة، وإذا تم

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، (٢٩/ ٢٣٠).

للمجتمع الإسلامي ذلك اختفت منه طبقة المحاربين لله ورسوله، ولن يتوقف مسلسل الخروج على المجتمع إلا بالنزول على أوامر رب العالمين.

وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة، علم أنَّ تطهير الأرض من المُفسدين، وتأمين السبل والطرق عن القتل، وأخذ الأموال، وإخافة الناس - من أعظم الحسنات وأجل الطاعات، وأنه إصلاح في الأرض، كما أنَّ ضده إفساد في الأرض[١].



(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، (٢٩/ ٢٣٠).

المبحث الثامن:الإعجاز التشريعي

العدالة الاجتماعية في الإسلام.

تمهيد:

لقد أرسى الإسلام العديد من القواعد والأسس التي تنظم العلاقات بين أفراد المجتمع. ومن أهم هذه الأسس هي العدالة الاجتماعية بما تحمله من معاني وقيم رفيعة تساعد على القيام بمجتمع يتمتع بالسلام والإخاء والمحبة والرخاء. والعدالة في الإسلام لا تطبق فقط على المسلمين، إنما جعلت لجميع أفراد المجتمع بغض النظر عن معتقداتهم[١].

مفهوم العدل:

كلمة العدل لغويا تعني (القصد في الأمور، أو عبارة عن الأمر المتوسط بين الإفراط و التفريط) ومقابلها الظلم والجور.

ومصطلح العدل يرمي إلى المساواة في إعطاء الحقوق والالتزام بالواجبات دون تفرقة لأي سبب من الأسباب سواء كان دين أو جنس أو لون[٢].

مظاهر العدل في القرآن:

تتضح أهمية العدل في الإسلام في كونه صفة من صفات الله تعالى، حيث إنه سبحانه وتعالى العدل. ويعد العدل من القيم الأساسية التي حث عليها القرآن وكررها في العديد من الآيات. ولقد فرض الله العدل على المسلمين ليشمل كل شيء في حياتهم ابتداءًا من العدل في الحكم إلى الشهادة و معاملة الأسرة والزوجة وجميع الناس حتى الأعداء والخصوم. فلقد قال الله تعالى:

---

(١) محمد الحسيني عبد العزيز. نظم الأمن والعدالة في الإسلام دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع: القاهرة، ٢٠٠٢،ص (١٢٣).

(٢) محمد نجيب أحمد أبو عجوة. المجتمع الإسلامي: دعائمه و آدابه في ضوء القرآن الكريم مكتبة مدبولي: القاهرة،، ص(٧٣)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النِّساء: ٥٨] .

كما يقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ ... [المائدة: ٨][1] .

مفهوم العدالة الاجتماعية:

تعني العدالة الاجتماعية إعطاء كل فرد ما يستحقه وتوزيع المنافع المادية في المجتمع، و توفير متساوي للاحتياجات الأساسية. كما أنها تعني المساواة في الفرص؛ أي أن كل فرد لديه الفرصة في الصعود الاجتماعي[2] .

أسس العدالة الاجتماعية في الإسلام:

تعد العدالة الاجتماعية من أهم مكونات وأساسيات العدل في الإسلام. ولقد أوضح د. سيد قطب في كتابه العدالة الاجتماعية في الإسلام أن هناك ثلاثة ركائز تقوم عليها العدالة الاجتماعية في الإسلام. هذه الركائز هي التحرر الوجداني المطلق والمساواة الإنسانية الكاملة والتكافل الاجتماعي الوثيق حيث أن كل عنصر مبني على الآخر. ويعني بالتحرر الوجداني هو التحرر النفسي من الخضوع وعبادة غير الله لأن الله وحده هو القادر على نفع أو ضرر الإنسان. فهو وحده الذي يحييه ويرزقه ويميته دون وجود وسيط أو شفيع حتى لو كان نبي من الأنبياء. فلقد قال الله عن النبي ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ [الجنّ: ٢١] .

كما قال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ ..﴾ [آل عمران: ٦٤].

والهدف من التحرر النفسي من الخضوع لغير الله هو التخلص من الخوف و التذلل لغير الله لنيل رزق أو مكانة أو أي نوع من أنواع النفع عن يقين أن

---

(١) محمد نجيب أحمد أبو عجوة. المجتمع الإسلامي: دعائمه وآدابه في ضوء القرآن الكريم، ص ٧٩ ـ ٨٠.
(٢) هبة رءوف عزت: الليبرالية .. أيدلوجية مراوغة أفسدها رأس المال.

الله وحده هو الرزاق. ولكنه قد ينجح الإنسان نسبيا في أن يتحرر من عبودية كل ما هو سوى الله تعالىٰ في حين أن هناك احتياجات طبيعية بشرية خلقها الله في الإنسان أهمها المأكل تعوق التحرر الكامل والحقيقي. ومن أجل أن يحقق الإسلام هذا التحرر الوجداني بصورة فاعلية وواقعية، فلقد وضع الله من القوانين والتشريعات ما يضمن للإنسان احتياجاته الأساسية و بالتالي يساعده علىٰ تحقيق التحرر الوجداني الكامل. و من أهم هذه القوانين هو وضع مبدأ المساواة كمبدأ أساسي من مبادئ الإسلام. فبعكس كل من ادعى أنه من نسل الآلهة و كل من تصور أن دمه دما أزرقا نبيلا أرقى من بقية الشعب، جاء الإسلام ليساوي بين جميع البشر في المنشأ والمصير. فلقد قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النِّساء: ١] .

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحُجرَات: ١٣] .

كما قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسرَاء: ٧٠] .

فالكرامة مكفولة لكل إنسان و الفرق بين الناس عند الله هي درجة تقواهم وليس جنسهم أو لونهم.

أما القانون الثاني الذي وضعه الإسلام لضمان التحرر الوجداني الحقيقي فهو التكافل الاجتماعي[١].

والتكافل الاجتماعي يقصد به التزام الأفراد بعضهم نحو بعض؛ فكل فرد عليه واجب رعاية المجتمع و مصالحه. وليس المقصود بالتكافل الاجتماعي في الإسلام مجرد التعاطف المعنوي من شعور الحب والمودة، بل يتضمن العمل الفعلي الإيجابي الذي يصل إلىٰ حد المساعدة المادية للمحتاج و تأمين حاجته بما يحقق له حد الكفاية. وذلك يكون عن طريق دفع الزكاة، فإن

(١) سيد قطب. العدالة الاجتماعية في الإسلام دار الشروق: القاهرة، ٢٠٠٢، ص. ص ٣١ ـ ٦٣.

لم تكفي فيؤخذ من الأغنياء ما يكفي للفقراء[١].

صور من العدالة في الإسلام:

ضرب الرسول صلى الله عيه وسلم أروع الأمثلة للخلق العظيم ومن أهمها العدل في التعامل. وقد صار علىٰ نهجه الصحابة وعلىٰ رأسهم عمر بن الخطاب والذي سماه الرسول ﷺ بالفاروق لأنه كان يفرق بين الحق والباطل وكان العدل من أهم سماته منذ أن دخل في الإسلام. ولقد خطب عمر في الناس عندما تولى الخلافة قائلا: إن رأيتم في اعوجاجًا فقوموني. فيندب له رجل من عامة المسلمين يقول: لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقومناك بحد سيوفنا. فما يزيد عمر علىٰ أن يقول: الحمد لله الذي جعل في رعية عمر من يقومه بحد سيفه[٢].

وهذا يدل علىٰ قمة المساواة والعدل. فلقد أعطى عمر بن الخطاب الرعية الحق في أن يقوموه بالسيف إن لم يستقم بعكس ما هو قائم حيث أن معظم الحكام لا يسمحون إلا بتبجيلهم وتعظيمهم واضعين نفسهم في مرتبة أعلى من بقية البشر. كما أن عمر بن الخطاب في وقت خلافته خطب في الناس في وجود الولاة ليعرفوا حقوقهم وواجباتهم قائلا: (إني لم أستعمل عليكم عمالي ليضربوا أبشاركم، ويشتموا أعراضكم، ويأخذوا أموالكم ولكن استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم عليه الصلاة والسلام، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علىٰ يرفعها إلىٰ حتى أقص منه. فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين أرأيت إن أدب أمير رجلا من رعيته أتقصه منه؟ فقال عمر: ومالي لا أقصه منه و قد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه؟)[٣].

وبجانب العدل والمساواة، فلقد ضرب الصحابة أروع الأمثلة في العطاء والتكافل الاجتماعي بين الأغنياء والفقراء. فلقد كان أبو بكر الصديق يملك

---

(١) محمد شوقي الفنجرى "التكافل الاجتماعي" المؤتمر١٥ للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مستقبل الأمة الإسلامية،القاهرة،المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية،٢٠٠٣،ص٩١٣

(٢) سيد قطب. العدالة الاجتماعية في الإسلام، م. س. ذ، ص ١٤٠

(٣) نجيب أحمد أبو عجوة. المجتمع الإسلامي: دعائمه و آدابه في ضوء القرآن الكريم، م. س. ذ، ص ٩٢.

أربعون ألف درهمًا من تجارته لم يتبقى منهم سوى خمسة آلاف درهم أنفقهم علىٰ الفقراء من المسلمين الذين كانوا يذوقون ألوانًا من العذاب لإسلامهم. ويتضح العطاء أيضا من علي بن أبي طالب حيث أنه تصدق بثلاثة أرغفة لم يكن يملك سواهم وأعطاهم لمسكين ويتيم وأسير[١].

ومن ثم، فإن العدالة الاجتماعية بما تتضمنه من مساواة بين جميع أفراد المجتمع حتى بين الحاكم والمحكوم وبما تتضمنه من تكافل اجتماعي تعد من أهم القيم التي قام عليها الإسلام ومارسها الرسول ﷺ والصحابة بدقة لبناء مجتمع قوي ومتماسك؛ الإخاء والمحبة والترابط من أهم سماته. وبرغم غياب الممارسة الحقيقية لهذه المفاهيم في عصرنا الحالي، فيجب علىٰ كل الأمة الإسلامية استرجاع ما علمه لنا الإسلام ورسوله حتى نعيد البناء القوي لمجتمعنا والشعور بالمحبة والأمان والطمأنينة الذي يعاني مجتمعنا من غيابه.



(١) سيد قطب. العدالة الاجتماعية في الإسلام، م. س. ذ، ص ١٥١.

الخاتمة

وبعد هذا التطواف بين الفصول، والمباحث، والمطالب، والفرع والنقاط، أجدني في نهاية المطاف قد اهتديت إلىٰ اللب بعد نزع القشرات وهذا اللب هو الذي من أجله كتبت هذه الورقات .... بعد هذا الاستعراض الذي تناولت فيه الإعجاز التشريعي والذي استفدت منه علىٰ المستوى الشخصي استفادة بالغة واطلعت بسببه علىٰ الكثير والكثير من كتب العلم المختلفة والذي لولاه ما كلفت نفسي عناء البحث فيها والاطلاع عليها. ..تبين لي أن الكتابة في هذا الموضوع محفوفة بالمخاطر وخاصة إذا كانت تتعلق بربط الدين بالتطور العلمي فهي خوض في بحر متلاطم الأمواج يحتاج من السابح فيه إلىٰ التسلح بجميع المهارات حتى يستطيع أن يقتنص الدرر وينثرها علىٰ العالم لتضيء له الطرقات وفي نفس الوقت ينجو بسلام.

لقد من الله علينا أن بعث فينا رسولا يعلمنا ما جهلنا وينير لنا طريق الهداية بشرائع الله وجعل الله الشرع المنزل علىٰ رسوله غاية في الكمال والصلاح فشرع شرعا لا يأتيه الباطل من أي مكان لأنه من قبل العليم المنان ولقد أردت بعد تفصيل أن أحيط بالموضوع لعل القارئ يتمكن من الإحاطة بالبحث من خلال صفحات الخاتمة فقد أجملت ما فصلت في البحث من الإعجاز التشريعي في القرآن والسنة النبوية المطهرة ويتمثل الإعجاز التشريعي فيهما فيما يلي:

١ ـ مكانة المصلحة في الشريعة الإسلامية وصرف الإسلام تحقيق السعادة للإنسان ولذا قال الفقهاء: (إذا وجدت المصلحة فثم شرع الله).

٢ ـ الدليل الثاني أن الشريعة الإسلامية جاءت علىٰ نوعين:

أ ـ النوع الأول قواعد ومبادئ عامة.

ب ـ أحكام جاءت علىٰ هيئة تفصيلية.

٣ ـ مصادر هذه الأحكام تجعل الشريعة الإسلامية في غاية القدرة والاستعداد والأهلية للبقاء والعموم.

٤. أنها قامت برعاية حقوق الإنسان وهى الكليات الخمسة ولقد سبق الإسلام القوانين الموضوعة في رعاية حقوق الإنسان قبل الإعلان العالمي ١٧٨٩م وصدور أول تقنين دولي لحقوق الإنسان في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٤٨م حفظ النفس بتناولها ما تقيم به حياتها وابتعادها عما يؤدي لهلاكها ويكون الحفظ أيضا بتحريم قتلها.

أ ـ أوجب الإسلام القصاص علىٰ القاتل إذا ثبت عليه يقول تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩] .

ب ـ كما أن الإسلام أوجب عقوبة تكميلية تمثلت في إيجاب الكفارة تكفيراً للذنب وهى عتق رقبة ـ فإن لم يستطع فعليه صيام شهرين متتابعين.

ج ـ الحرمان من الميراث وذلك في حالة القتل العمد وذلك تطبيقاً للقاعدة الفقهية (من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه).

د ـ واحتراما للنفس جعل الإسلام الدية في حالة العفو.

ل ـ أوجب الإسلام علىٰ بيت مال المسلمين إخراج مال من خزينة الدولة إذا وجد قتيل في مكان لا يعرف له قاتل باعتبار الدولة مسئوله عن حماية هذا الحق وأنها مقصرة في هذه الحالة وإيماناً بالمبدأ الشرعي لا يبطل دم في الإسلام بمعنى أنه لا يذهب هدراً أو بدون مقابل كما يقال: (قيدت القضية ضد مجهول).

هـ ـ علىٰ الرغم من أن الإسلام قد قرر حدوداً لجرائم معينة ليرتدع الذين يخرجون عن تعاليم الدين جعل لها شروطاً قاسية لتطبيقها.

و ـ حماية الإسلام للنفس سواء كانت مسلمة أو ذمية ما دامت تعيش في عهد المسلمين وذمتهم.

٥. المقصد الثاني: حفظ العقل.
أ ـ جاءت الآيات والأحاديث مبينة أهمية العقل.
ب ـ أوجب الإسلام الدية لمن ضرب إنساناً فأذهب بهذه الضربة عقله.
ج ـ بالعقل اهتدى الإنسان إلىٰ خالقه وعبد ربه ومولاة.
د ـ تحريم الإسلام للخمر ـ والمسكر ـ والمفتر.
٦. المقصد الثالث: (حفظ الدين).
وبما أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بدون دين فلابد من الحفاظ علىٰ الدين فيقرر الإسلام:
أ ـ أن لا إكراه في الدين.
ب ـ الدعوة للدين بالحكمة والموعظة الحسنة وبالتي هي أحسن.
ج . الإعجاز التشريعي في العبادات التي فرضها الإسلام علىٰ أتباعه سواء كانت صلاة أو زكاة أو صيام أو حج.
د . عقوبة الارتداد عن الدين بالقتل.
٧. المقصد الرابع: حفظ النسل ويتمثل ذلك في حرص الإسلام على:
أ ـ سلامة المجتمع وقوة أفراده باختيار الزوجة الصالحة.
ب ـ المحافظة علىٰ النوع الإنساني بالترغيب والحث علىٰ الزواج.
ج ـ حفظ النسل يتطلب اجتناب الطرق غير المشروعة التي تؤدى إلىٰ اختلاط الأنساب وهو تحريم الزنا والعلاقات الغير مشروعة.
د ـ حفظ النسل يتطلب البعد عن الطرق غير المشروعة التي تؤدى إلىٰ تدمير صحة الإنسان كالشذوذ وغيرها.
ل ـ حفظ النسل يقتضى التربية الإسلامية لأفراد الأسرة.
م ـ حفظ النسل يقتضى تحريم زواج المحارم ويوصى بعدم زواج الأقارب.
ن ـ تحريم الإسلام الاعتداء علىٰ الأعراض.

هـ ـ تحريم كل الوسائل التي تؤدى إلىٰ إبادة الأخضر واليابس.

و ـ حفظ النسل يكون بالتعليم والتثقيف ومواكبة التطورات العلمية.وكل هذا من الإعجاز التشريعي في الإسلام.

٨ـ المقصد الخامس حفظ المال.

أ ـ الحقيقة الأولى أن المال مال الله والإنسان مستحلف فيه ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [الحديد: ٧] .

ب ـ حيل الإنسان علىٰ حب المال يقول تعالىٰ ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ٢٠] .

ج ـ حق الإنسان في التملك يجمع أنواعه بحيث لا يضر بالآخرين.

د ـ المال عصب الحياة ولا يمكن أن تتقدم حياة الناس وتزدهر بدون المال.

ذ ـ حرص الشريعة علىٰ حماية المال حرم الإسراف والتبذير يقول تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩] .

ر ـ جعل الإسلام للمسلم الحق في الدفاع عن ماله وجعل ذلك شهادة في سبيل الله يقول ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد».

ز ـ حق الفقير في مال الغنى حق أصيل ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج ٢٤ ـ ٢٥].

س ـ واجب المجتمع في الحفاظ علىٰ المال وحمايته من الاعتداء ويكون ذلك في الحجر علىٰ السفيه.

ش ـ دعوة الإسلام إلىٰ التكافل بين أفراد المجتمع ومن وسائل ذلك إخراج الزكاة والصدقات.

٩. الوسطية.

أ ـ يقول تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] .

وتتمثل الوسطية في شعائر وعبادات الإسلام فلم يفرض الله الزكاة علىٰ كل إنسان وإنما فرضها علىٰ المستطيع.

ب ـ وكذلك الصلاة جعلها في اليوم خمس مرات والصيام شهر في العام والحج مرة في العمر.

ج ـ إعطاء الإنسان ما يحتاجه من الجوانب الروحية والجسمية.

هـ ـ وسط في التحليل والتحريم.

فالإسلام معجز في جميع أوامره معجز في جميع نواهيه معجز في أخلاقه وآدابه وتعاليمه ولما لا يكون كذلك وهو الشرعية التي حوت كل فضيلة ونبذت عن كل رذيلة لأنها الشريعة الخاتمة المحفوظة من قبل الله تعالىٰ.

❊ ❊ ❊

وفي النهاية أقول

إني قد بذلت الجهد الصادق في سبيل دراسة هذا البحث من جوانبه كافة، وتنقيته مما رانَ عليه، وإني لأرجو أن أكون قد وفقت في ذلك، فإن أصبت فواجب هداني الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ إلىٰ إنجازه وإتمامه، وإن تعثرت فحسبي أني أخلصت النية، وبذلت الجهد، واستفرغت الوسع والطاقة، ونشدت الحق.

وأحمد الله علىٰ ما وفقني إليه، وأستغفره علىٰ ما قصرت فيه، وأرجو أن يكون الباحث ـ في توفيقه وتقصيره ـ مأجورًا ما دام قد تجرد للبحث، وأخلص اتجاهه لله، وقد علمنا ربنا أن نستغفره عند النسيان والخطأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦] وأن نستعفيه حمل ما لا نطيق: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ وأن نسأله العفو والعافية في الدين والدنيا ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ .

وأسأل الله أولا وأخيرًا أن ينفع الإسلام بكل كلمة طيبة ونية صادقة وجهد مخلص.

ـ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

❊ ❊ ❊

المراجع

أولا: التفاسير

١ ـ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الجامع لأحكام القرآن، الطبعة الثالثة عن دار الكتب المصرية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧م.

٢ ـ ابن كثير، عماد الدين إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٨٨هـ.

٣ ـ الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٤ ـ الرازي، "تفسير مفاتح الغيب"، دار إحياء التراث العربي.

٥ ـ السعدي، "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، دار المثنى، جدَّة.

٦ ـ الراغب الأصفهاني، "المفردات في غريب القرآن"، مطبعة مصطفى الحلبي.

٧ـ محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، الطبع دار المعارف.

٨ ـ جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الجيل .

٩ ـ مجد الدين الفيروز أبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المكتبة العلمية.

١٠ ـ شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي.

١١ ـ صلاح الدين أرقه دان، مختصر الإتقان في علوم القرآن، دار النفائس.

١٢ ـ محمد حسين الذهبي، الوحي والقرآن الكريم، مكتبة وهبة .

١٣ ـ أبو السُّعود، "إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم"، مطبعة محمد علىٰ صبيح وأولاده.

١٤ ـ البيضاوي، "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، دار الجيل.

١٥ ـ الزركشي، "البرهان في علوم القرآن"، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

ثانيا: الحديث الشريف

١٦. شعب الإيمان، البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٠هـ.

١٧. صحيح ابن حبان، لابن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ.

١٨. صحيح البخاري شرح الكرماني، دار الفكر، بيروت، الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

١٩. صحيح مسلم ـ لأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري ـ بيت الأفكار الدولية ـ الرياض ـ ١٤١٩هـ.

٢٠. فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني ـ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحي الدين الخطيب ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان.

٢١. فتح القدير علىٰ الهداية، للشيخ كمال الدين محمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام الحنفي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م. مسند أبي يعلى الموصلي. تحقيق حسين سليم أسر، دار مأمون للتراث، دمشق ـ سوريا ـ الأولى ١٤٠٤هـ.

٢٢. مسند البزار ـ (البحر الزخار) للحافظ أبي بكر أحمد بن عمر والبزار، تحقيق: محفوظ الرحمن الله، مؤسسة علوم القرآن ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٩هـ.

٢٣. سنن أبي داود، للإمام الحافظ سليمان بن الأشعث ـ تعليق: عزت عبيد وعادل السيد، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٤. سنن الترمذي ويسمى الجامع الصحيح لأبي عيسى محمد بن عيسى ابن سورة الترمذي ـ تحقيق: أحمد شاكر وآخرين ـ دار إحياء التراث ـ بيروت.

٢٥. سنن الدار قطني للإمام علي بن عمر، الدارقطني، تحقيق عبد الله المدني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ.

٢٦. سنن النسائي للحافظ أحمد بن شعيب، النسائي، دار المعرفة للطباعة، بيروت، لبنان، الثالثة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٢٧. اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، تركيا.

٢٨. صحيح مسلم بشرح النووي، مطبعة المكتب الثَّقافي، دار الفتح الإسلامي بالإسكندرية.

ثالثا: مراجع لغوية

٢٩. لسان العرب (١/ ١٨٢). البحر المحيط، بدر الدين بن محمد بهادر الزركشي، دار الكتب سنة النشر: ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م الطبعة: الأولى.

٣٠. مُختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، الطبعة الأميرية بالقاهرة.

٣١. البحر المحيط، بدر الدين بن محمد بهادر الزركشي، دار الكتب سنة النشر: ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م رقم الطبعة: الأولى.

رابعا: مراجع عامة

٣٢ ـ مالك بن نبي، ترجمة د/ عبد الصَّبور شاهين، "الظاهرة القرآنية"، دار الفكر طرابلس، لبنان.

٣٣ ـ د/ سعد الدين صالح، "المعجزة والإعجاز في القرآن"، دار المعارف.

٣٤ ـ الشاطبي، "الموافقات"، مطبعة المدني بالقاهرة.

٣٥ ـ عبد الفتاح القاضي، "الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع"، مكتبة الدار، المدينة المنورة.

٣٦ ـ د/ مناع القطان، "مباحث في علوم القرآن"، مطبعة مؤسسة الرسالة.

٣٧ ـ ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم.

٣٨ ـ الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبيد الله، غياث الأمم في إلتياث الظلم، تحقيق د. عبد العظيم الديب، قام بنشره عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، قطر، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

٣٩ ـ عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، دار القلم، الطبعة الحادية عشرة ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧.

٤٠ ـ أبو عبيد، كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية ودار القلم.

٤١ ـ د / فهمي عبد العزيز هيكل، موسوعة المصطلحات الاقتصادية والإحصائية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٠.

٤٢ ـ ابن قدامة، المغنى، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢م .

٤٣ ـ الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.

٤٤ ـ محمد رواس قلعة جي، موسوعة فقه عبد الله بن مسعود، جامعة أم القرى، من التراث الإسلامي، الكتاب الثاني والعشرون ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م.

٤٥ ـ النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية.

٤٦ ـ يوسف القرضاوي، فقه الزكاة، الطبعة الثامنة، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م.

٤٧. اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، ج١، المكتبة الإسلامية.

٤٨. د/ فهمي عبد العزيز هيكل موسوعة المصطلحات الاقتصادية والإحصائية، دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٠م.

٤٩. أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي، الكافي في فقه أهل المدينة المالكي، مكتبة الرياض الحديثة.

٥٠ ـ الأشقر، عمر سليمان، الربا وأثره على المجتمع الإنساني، دار النفائس، عمان، الأردن، ط٣، ١٤٢٣هـ.

٥١ ـ شحاته، حسين، التورق المصرفي في نظر التحليل المحاسبي والتقويم الاقتصادي الإسلامي، الاقتصاد الإسلامي، مجلد، عدد ٢٧٤، ١٤٢٥هـ.

٥٢ ـ سويلم، سامي بن إبراهيم، التكافؤ الاقتصادي بين الربا والتورق، الاقتصاد الإسلامي، عدد ٢٧٤ مجلد، سنة ١٤٢٥هـ.

٥٣ ـ رمضان، زياد، مبادئ الاستثمار المالي والحقيقي، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ط٢، سنة ٢٠٠٢م.

٥٤ ـ المصري، رفيق، بيع التقسيط تحليل فقهي واقتصادي، ط١، دار القلم، دمشق، ١٤١٠هـ.

٥٥ ـ أبو أحمد، رضا، إدارة المصارف، دار الفكر، ط١، عمان، الأردن، ١٤٢٣هـ.

٥٦ ـ المصري، رفيق، ربا القروض وأدلة تحريمه، ط١، مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبد العزيز، جدة السعودية، ١٤١٠هـ.

٥٧ ـ لاشين، فتحي السيد، الربا وفائدة رأس المال بين الشريعة الإسلامية والنظم الوضعية، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٠م.

٥٨ ـ شحاته، حسين حسين، الفائدة الربوية وقود التضخم النقدي وليس

تعويضاً عنه، الاقتصاد الإسلامي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة ١٩٩٠م.

٥٩ ـ المصري، عبد السميع، آراء ومفاهيم حول البنوك الإسلامية (رسالة البنك الإسلامي) الاقتصاد الإسلامي، المجلد الأول، العدد الثالث، سنة ١٤٠٢هـ.

٦٠ ـ الجميعي، حمزة، الفوائد بين علىٰ التحريم ونتائج الانتشار، الاقتصاد الإسلامي، المجلد الثاني، العدد ١٥، سنة ١٤٠٣هـ.

٦١ ـ جامع، أحمد، النظري الاقتصادية، الجزء الأول (التحليل الاقتصادي الجزئي)، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ط٥، سنة ١٩٨٦م.

٦٢ ـ إلهي، فضل، التدابير الواقية من الربا في الإسلام، إدارة ترجمان الإسلام، باكستان، ط٤، ١٤٢٠هـ.

٦٣ ـ السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم، تحفة الفقهاء، تحقيق محمد الكتاني ووهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، سورية.

٦٤ ـ الشربيني، محمد الخطيب، مغني المحتاج إلىٰ معرفة ألفاظ المنهاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٦٥ ـ المرداوي، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان بن أحمد، الإنصاف في معرفة الراجح من خلاف، تحقيق أبو عبد الله محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٦٦ ـ ابن عرفة، محمد الورغمي، حدود ابن عرفة متن شرح حدود ابن عرفة، تحقيق محمد أبو الأجفان والطاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣م (مطبوع مع شرح حدود ابن عرفة).

٦٧. لاشين، الربا وفائدة رأس المال بين الشريعة والنظم الوضعية.

٦٨. شحاده. العقبات والصعوبات التي تحول بين البنوك الإسلامية وتحقيق التنمية.

فهرس